الأثر المقدس

إيسا دي كيروش

ترجمة : د. السيد محمد واصل

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع

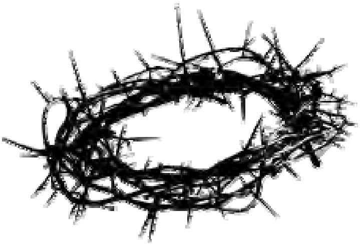

الأثر المقدس

الأثر المقدس
تأليف: إيسا دي كيروش

ترجمة: د. سيد واصل
تحرير ومراجعة: هدى فضل
مراجعة لُغوية: فاطمة محمود

الطبعة الأولى: يناير 2019
رقم الإيداع: 2018/21944
الترقيم الدولي: 9789773194604

الغلاف: جورج لطيف

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

Funded by the Direção-Geral do Livro, dos Arquivos e das Bibliotecas (DGLAB) / Portugal.

GOVERNO DE PORTUGAL
DIREÇÃO-GERAL DO LIVRO, DOS ARQUIVOS E DAS BIBLIOTECAS

إيسا دي كيروش

الأثر المقدس

رواية من البرتغال

ترجمها عن البرتغالية: د. سيد واصل

العربي للنشر والتوزيع

بطاقة فهرسة

كيروش، إيسا

الأثر المقدس: رواية من البرتغال/ تأليف إيسا دي كيروش.

ترجمة: د. سيد واصل- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018، ص؛ سم.

تدمك 9789773194604

1- القصص البرتغالية

أ- واصل، سيد (مترجم)

ب- العنوان 869.3

شخصيات الرواية

تيودوريكو

بطل الرواية الذي يروي سيرته الذاتية. ماتت أمه فور ولادته ثم مات أبوه وهـو في السابعة. تربى في بيت خالته "تيتي" ودرس القانون في جامعة "كـويمبرا"، وهنـاك لقبـه زملاؤه بـ"رابوزو" أي الثعلب. عاش في صراع بين إرضاء خالته ليرث ثروة العائلـة وبـين إرضاء نزواته وتحقيق ذاته. تميز أسلوبه بالسخرية من الآخـرين مـن حولـه، لـذا كـان يناديهم بأسماء غير أسمائهم.

باتروسينيو داس نيفس "تيتي"

خالة البطل، وكان يدللها باسم "تيتي". ورثت عـن خالهـا، القائـد جودينيـو، ثـروة طائلة كانت تنفقها على رجال الكنيسة وعلى التبرعات. قامت برعاية تيودوريكو بعـد موت أبويه. وكانت شديدة التدين والبخل، وعاشت حياة الزهد ولذا لم تتزوج.

القائد جودينيو

جد تيوديريكو وخال باتروسينيو، كان رجلًا ثريًا ذا نفـوذ لكنـه لم يتـزوج. فورثتـه ابنة أخته "باتروسينيو داس نيفس".

توبسيوس

شـاب ألمـاني جـاء لـلشرق لإعـداد دراسـة عـن "آل هـيرودس" في فلسـطين، وصـحب تيودوريكـو طـوال رحلتـه في بـلاد الشرق. كـان عالمًـا في التـاريخ والآثـار وعضـو في المعهـد الإمبراطـوري للحفريـات التاريخيـة، واتخـذه البطـل كي يظهـر

أسلوبه الساخر في الرواية. فكان ينتقد بخله وضعفه واعتزازه ببلده ألمانيا وإيثاره السلامة في كل المواقف. كما اتخذه صديقًا طوال الرحلة ليظهر علمه الغزيز بالتاريخ واللاهوت دون أن يصيب القارئ بالملل. كان يجسد جمود العلم فيما كان يمثل البطل حرارة الإيمان.

كريسبم

زميل البطل في المدرسة. وهو من عائلة غنية تخصصت في صناعة النسيج.

جزوينا

أخت كريسبم.

أديليا

صديقة تيوديريكو التي كان يقضي معها ليالي ساخنة هربًا من كبت خالته له. كان يدللها لـ"أديلينيا". كانت تنتقد تدينه الشديد وتدعوه بالـ"المتطرف".

ماري

بائعة القفازات الإنجليزية التي تعيش وحيدة في الإسكندرية. قضى البطل معها أيامًا وليالي ساخنة، وكانت متحررة متعددة العلاقات. كان يدللها بـ"ماريكوكيناس".

ألبندرينا

خادم من البرتغال يعمل بفندق الأهرامات بالأسكندرية.

بوت

كان الدليل الذي صاحب البطل في الأراضي المقدسة، وكانوا يسمونه بـ"بوت المرح"

د. مارجاريد

كان قاضيًا وصديقًا للعائلة، ويكن حبًا شديدًا للبطل واحترامًا لوالده الذي كان صديقه أيضًا.

الأب بينيرو والأب كاسيميرو

من رجال الكنيسة، وكانا يحيطان بالخالة "تيتي" لكرمها معهما، على أمل أن توصي لهما بشيء من أموالها.

الأب نيجراو

رجل كنيسة ماكر استطاع أن يكسب حب "تيتي" حتى أوصت له بجزء كبير من أموالها، وكان يكره فيديريكو.

جوستينو

كاتب العدل ووكيل أعمال "تيتي".

فيسنسيا

الخادمة العجوز.

مقدمة المترجم

هذه الرواية التي بين أيدينا إنما هـي قصـة صراع لا ينتهـي حتـى آخـر فصـل مـن فصولها، صراع بين الخير والشر، صراع بين العلم والدين، صراع بين الإيمان والإلحاد، بين الصراحة والنفاق. صراع الخير والشر فهـو في نفـس البطـل "تيوديريكـو رابـوزو" الـذي تغلبه شهواته وتطغى على وازعه الديني. وهناك كذلك صراع العلم الذي يمثله الشاب الألماني المثقف "توبسيوس" وأمامه البطل الذي يدّعي الجهل والتمسـك بالـدين الـذي سيوصله إلى الفوز بثروة خالته. أما الصراع بين الإيمـان والإلحـاد فقـد اعتمـل في نفـس البطل.

أتوقع أن تثير هذه الرواية جدلًا واسعًا في الأوساط الثقافية لما تطرحـه مـن أفكـار وتأملات يسوقها الراوي في منامه في متن الرواية، ولا تمثل تلك الرؤى تمهيـدًا للأحـداث التالية - كما هو متوقع - لكنه يبث من خلالها أفكـاره الثـائرة عـلى القوالـب الدينيـة الجامدة والمعروفة في زمانه وكأنـه يقـول إنهـا ليسـت أفكـاري ولكنهـا أوحيـت إليّ في منامي، وذلك خوفًا من هجوم رجال الدين عليه.

تمتد الرواية في إطار دراميّ ساخر بحياة الطفل "تيوديريكـو" منـذ طفولتـه وحتـى أتم تعليمه الجامعي، كما تستعرض نفاقه لخالته صاحبة الثروة الكبيرة. ترسـله خالتـه إلى القدس ليحج عنها وليحضر لها أثرًا مقدسًا يكون فخرًا للعائلة أمام رجال الكنيسـة، فيذهب باحثًا عن المتعة في بلاد الشرق، ويحضر- بمحض الصدفة - أثـرًا لم يكـن يحلـم به.

تمثل الرواية أهم أعمال "إيسا دي كيروش" والتي أثَّر من خلالها في وجـدان أجيـال كثـيرة مـن الشـعب البرتغـالي، فـما قابلـت أحـدًا مـن البرتغـاليين إلا وقرأهـا أو

سمع عنها رغم نشرها قبل قرن ونصف من الزمان تقريبًا. تمثل اللغة التي يتميز بها "إيسا دي كيروش" عائقًا كبيرًا عند الترجمة نظرًا لاختياره ألفاظًا جزلة وتعبيرات غير مألوفة.. إضافة إلى قدم الأسلوب والتراكيب التي لم تعد تستخدم في لغة اليوم.

ولا أذيع سرًا إذا قلت أن كثيرًا من مثقفي البرتغال حاليًا كانوا يلجأوا إلى القواميس لفهم معنى استعصى عليهم فهمه عندما كنت أستشيرهم في معنى غامض.. ورغم ذلك كانوا يرجحون معاني بعينها دون القطع بصحتها. لذا فقد لجأت إلى قواميس متخصصة وكتب من التراث المسيحي والتي تتناول فترة السرد نفسها. كما حرصت على إنتاج نص أدبي معادل لغويًا وأسلوبيًا بانتقاء ألفاظ وتعابير بليغة من الشعر حتى يترك النص المترجم الأثر نفسه الذي كان النص الأصلي قد تركه في قارئه.

وبالله التوفيق..

د. السيد محمد واصل

مقدمة المؤلف

قررتُ - في أوقات فراغي هذا الصيف - أن أكتب صفحات من حياتي، في مزرعة "موشتيرو" التي أمتلكُها الآن.. كانت ملكًا لنبلاء عائلة "ليندوزو" من قبلي.. تلك الصفحات التي أظنُّ - ويشاركني صهري "كريسبم" في هذا الظنِّ - أنها ستكون مليئة بالدروس الواضحة القوية في هذا القرن الذي امتلأ بشكوك العقل وهموم الثروة.

في عام 1875، عشية عيد القديس "أنطونيو"، هزَّت خيبة الأمل كياني بمرارة ليس لها مثيل.. في ذلك الوقت، أرسلتني خالتي، السيدة "باتروسينيو داس نيفيس"، من ساحة "سانتانا" حيث كنا نعيش، في رحلة حج إلى القدس.. وصلت هناك في أحد أيام شهر أبريل، والحر شديد، عندما كان "بيلاطس البنطي" هو حاكم "يهودية"، وكان "إيليو لاما" مبعوث الإمبراطور لسوريا، وكان "ج. كايراس" هو رئيس الأساقفة، وشهدت حينها أحداثًا فاضحة بين جنبات تلك الجدران المقدسة.. ثم عدت، بعدما حدث تغير مادي وأخلاقي كبير في شخصيتي.

وهناك عدة قضايا بارزة أرجو أن ألفت إليها الانتباه بوعي وصدق، بينما تحلِّق طيور السنونو فوق سطح منزلي، وتعطِّر زهور القرنفل الأحمر أرجاء حديقتي المثمرة.. ستبقى هذه الرحلة إلى أرض مصر وفلسطين دائمًا كواسطة العقد في حياتي، وأتمنى أن تظل عملًا أدبيًّا جادًا وشيقًا يبقى للأجيال القادمة، لكني حرصت اليوم، وأنا أكتب لأغراض روحانية بحتة، أن تخلو هذه

الصفحات المحببة إلى قلبي من ذكر الأطلال والعادات والتقاليد، والتي يمكن أن تُكَوِّنَ دليلًا سياحيًّا رائعًا لبلاد الشرق[1].

أمَّا ما عدا ذلك، فإن بلد الإنجيل، الذي يُذهِلُ كلَّ من كان له قلب، فقد بدا لي أقل إثارةً للاهتمام ببلد أجدادي "ألينتيجو" بسبب جفافه، ولا يبدو لي أن الأرض، التي شَرُفَت بوجود المسيح عليها، يمكن أن تتفوق على بلادي في جمالها وروعتها.. صحيح أنني لم أحظَ بجولة في الأماكن المقدسة في بلاد الهند حيث عاش بوذا، وبساتين ميجادايا، أو تلال فيلوفانا، أو وادي راجاجراها العذب، حيث كان المعلم الكبير يعطي أتباعه دروسًا فيها. كما أنني لم أزُرْ غار حراء، ولا رأيتُ الأماكن المقدسة بين مكة والمدينة، التي تردد عليها كثيرًا ذلك النبي العظيم مُحَمَّدٌ، على ظهر ناقته متأملًا في هدوء.. ولكنني أعرف جيدًا الأماكن الممتدة بين أشجار التين في "بيسان" حتى برك المياه المحيطة بمدينة "الجليل"، وأعرف جيدًا الأماكن التي عاش فيها ذلك الرسول المبعوث من الله، الذي ملأ قلبه الحب، والأحلام، ذلك الذي نسميه الرب يسوع، ولم أجد فيها سوى القسوة، والجفاف، والخراب، والشعور بالوحدة، والأطلال.

والقدس عبارة عن قرية عثمانية، ذات شوارع متشابكة تحدُّها جدران طينية، ترتفع تحت أشعة الشمس وقرع أجراس الكنائس الحزين.. ولا يمكن مقارنة نهر الأردن - وهو مجرى مائي موحل صغير يتسلل بين المباني العتيقة - بنهر ليما[2] مثلًا، ذي المياه النقية السائغة للشاربين، والذي يجري من تحت قرية "موشتيرو"، حيث تنتشر جذور أشجار الدبق في حديقتي؛ غير أن مياه أنهار البرتغال لم تنسَب بين قدمي المسيح، ولم تمسُّها أجنحة الملائكة المتوهجة القوية، والتي يرسلها الرب حاملة النُّذُر من السماء.. وعلى أية حال، وبما أن

---

(1)- خصص الكاتب كتابًا آخر ألفه عن آثار الشرق وعاداته وتقاليده بعنوان "خيالات الشرق"، وسبق لنا ترجمته ونشرته دار العربي للنشر والتوزيع عام 2017م. المترجم

(2)- نهر ليما، هو نهر يتدفق غربًا من جاليثيا في إسبانيا إلى البرتغال، بطول 108 كيلو مترات. المرجع السابق، المترجم

هناك أرواحًا تقرأ بـنهَمٍ عـن الأراضي التـى تنزلـت فيهـا الكتـب المقدسـة، وتتـوق إلى معرفة كل شيء فيها؛ من حجم الأحجار إلى سعر الجعـة، فأنـا أوصيـهم بقـراءة عمـل يمتـاز بغـزارة المعلومـة ووضـوح الأسـلوب لـزميلي في "رحلـة الحـج"، وهـو الألمـاني "توبسيوس"، وهو مـدرس في جامعـة "بـون"، وعضـو المعهـد الإمبراطـوري للحفريـات التاريخية.. ويتكون عمله من سبعة مجلـدات متصلـة، طُبعـت في "ليبـزيج"، وتحمـل هذا العنوان الرقيق والعميق في الوقت نفسه: "مسالك القدس.. من شرقها إلى غربها". في كل صفحة من هـذه الرحلـة الشـاقة، يتحـدث العـالم "توبسـيوس" عنـي بإعجـاب وشوق. وكان دائمًا يسميني البرتغالي الشريف الشـهم، وهـو مـن شرف صـداقته ونبـل أصله الذي يعود الى "البراقيين"[3]، كما يقول هو وقد انتفخت أوداجـه فخـرًا، وإضـافةً إلى ذلك فإن هذا الجهبذ "توبسيوس" كان يسخر مني بأن يعلـق عـلى شـفتيَّ أو عـلى حجم رأسي، بأقوال وأوصاف توصمني بالتدين المفرط إلى حد السذاجة، ثم يفنـد آرائي بعد ذلك بذكاء وفصاحة، فيقول مثلًا: "وأمام هذه الأطلال التي تعـود الى عصر حملـة "جودفري"[4] الصليبية يزعم صديقي البرتغالي أن المسيح كان يمشي هنا ذات يـوم مـع القديسة فيرونيكا، ثم يسوق دلائل دامغة بعد ذلك يـدحضُ بهـا رأيـي، ولكـن بمـا أن الخطب الرنانة التي ينسبها إليَّ ليست أقل شأنًا في حكمتها ولا في بلاغتهـا مـن خطـب "بوسويه"[5] اللاهوتية، فلن أقوم بالتنديد به في مقال أبعثـه مـثلًا إلى جريـدة كولونيـا الألمانية.

(3)- كان البراقيون (Bárcidas) عائلة نبيلة من مدينة كارتاغو القديمة، كان العديد مـن أعضـائها أعداء شرسة للجمهورية الرومانية. المرجع السابق، المترجم.

(4)- جودفري (1060 - 18 يوليو 1100) حـاكم مدينـة بولـون الواقعـة جنـوب لوكسـمبورغ منـذ 1076 أصبح بعدها دوقًا على اللورين السفلى في 1087 اشترك بالحملة الصـليبية الأولى، وشـارك في حصار القدس في 1099 وأصبح أول ملك على مملكة بيت المقـدس عـلى الـرغم مـن عـدم اتخـاذه لقب ملك، مكتفيًا بلقب حامي القبر المقدس. المرجع السابق

(5)- جاك بينين بوسويه (1627 م - 1704 م) رجل دين، وخطيب فرنسي بليغ. كان مربيًا وأستاذًا خاصًا لابن الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكان الناس في مختلـف أرجـاء فرنسـا يتوقـون إلى سماع هذا الرجل يلقي مواعظه. وكان تقيًّا ورعًا، وعالمًا، وناقدًا عنيفًا لكل أعضاء الكنيسة الذين لا يتبعون النهج القويم. المرجع السابق

وهناك نقطة في مجلد "مسالك القدس من شرقها إلى غربها" لا يمكن أن أمر عليها مرور الكرام؛ وهي عندما يتحدث العالم الألماني عن لفافتين من الورق كنت أحملهما وأهتم بهما طوال رحلة الحج التي قمت بها، منذ أن غادرت أزقة الإسكندرية حتى وصلت إلى وديان جبل الكرمل. يقول الدكتور "توبسيوس": "كان النبيل البرتغالي الشهم يحمل فيها بعضًا من رفات أسلافه، التي جمعها، قبل أن يغادر وطنه البرتغال، وهو قادم من قصره القديم ذي الأبراج العالية!...". وهو لعمري قول خادع ومردود عليه، فهو يجعل ألمانيا المثقفة تظنُّ أنني كنت أسافر إلى بلاد الإنجيل جالبًا معي عظام أجدادي ملفوفة في قماش بني!

ولا يمكن لأي استهانة أخرى أن تثير غضبي ولا أوافق عليها كتلك التهمة. ليس لأنني لا أعترف بالكنيسة، ولكن لأن انتهاك حرمات المقدسات والقبور تزعج فارسًا وإقطاعيًّا مثلي أكثر من انتهاك حرمات الكنيسة التي لا أكترث لمقدساتها أكثر من اكتراثي بأوراق الشجر الجافة التي تتساقط أحيانًا على شمسيتي من فرع شجرة ميت، كما أنني لا أظنُّ أن الكنيسة، بعد أن حصلت على مكاسبها بدفن كومة من العظام، سوف تهتم بأن تُبقي هذه الأجساد إلى الأبد ترقد في سلام تحت ألواح الرخام الأبدية، أو أن تجوب الدنيا في طيات ناعمة من الورق البني؛ لكن ما يقوله "توبسيوس" يشكك في مصداقيتي تجاه البرجوازية الليبرالية. تلك البرجوازية الليبرالية القوية التي أخذت تنتشر في كل مكان، والتي بها فقط يتحقق كل ما هو جميل في الحياة بدءًا من إيجاد الوظائف في البنوك وانتهاءً بحملات جمع التبرعات للفقراء والمحتاجين.

إن البرجوازية الليبرالية تقدِّر الإنسان وما لديه من طموحات، وتستوعب كل رجل نبيل ذي حسب ونسب.. إنها كالخمر المعتق النفيس الذي يحسّن من جودة النبيذ الجديد الخام. لذا فإن صديقي الحميم الدكتور "توبسيوس" (الذي رآني

من خلف نظّارته الثاقبة، وأنا أحضر اللفافتين؛ واحـدة في أرض مصر والأخـرى في أرض "كنعان")، تحرّك ضميره الحي في الطبعة الثانية من كتابه "مسالك القدس.. من شرقهـا إلى غربها"، وخفّف من امتهانه لي، وكشـف لألمانيـا المـتحضرة مـا كانـت تحويـه تلـك اللفافات من الورق البني. لذلك فأنا أكشف لأهل بلدي بصراحـة، في هـذه الصـفحات التي أكتبها للتسلية في وقت فراغي، الحقيقية دائمًا، رغـم كونهـا أحيانًـا متعـثرة وهـي ترفل في ثياب التاريخ الثقيلة.

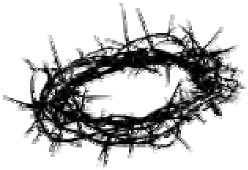

أيام الصِّبا والشباب

كان جدي، الأب "روفينو دا كونسيساو"، دارسًا لعلوم اللاهوت، ومؤلف كتاب "حياة الورع عند القديسة فيلومينا"، ورئيس دير "أمندويرينيا". أمَّا والدي، "روفينو دا أسونساو رابوزو"، فكان تابعًا لجماعة السيدة العذراء، وكان يعيش في "إيفورا" مع جدتي "فيلومينا رابوزو"، وكانت تلقَّب بـ"ذات القوام الملفوف"، وكانت تبيع الحلوى في الشارع. وكان أبي يعمل في البريد، ويهوى الكتابة في جريدة "لا كورونا".

وفي عام 1853، رأى رجل كنيسة مشهور يدعى "جاسبار دي لورين" وأسقف "كورزيم" القديس يوحنا وهو يُدخل "إيفورا"، إلى بيت الكاهن "بيتا"، حيث كان أبي غالبًا ما يتردد عليه لعزف الجيتار ليلًا. وعلى سبيل المجاملة، نشر أبي - مع اثنين من الكهنة - في جريدة المنارة تحقيقًا عن شظف العيش الذي يعانيه الدعاة، مهنئًا "إيفورا" بـ"زيارة أحد الأساقفة البارزين وهو السيد "جاسبار"، نجم الكنيسة المتألق وبرج القداسة ذائع الصيت".

قطع أسقف "كورزيم" هذا المقال من جريدة المنارة، ليضعه بين أوراق كتاب الصلوات الخاص به. وبدأ كل شيء في والدي يروق له: بدءًا من نظافة

ملابسه البيضاء، حتى الصوت الشجي الذي كان يتمتع به، وهو يعزف الجيتار ويـروي قصص الكونت "أوردونيو". ولكنه عندما علم أن هـذا "الروفينـو دى أسونسـاو"، هـذا الظريف قمحي اللون كان مـن الأتبـاع المقـربين لزميـل دراسـته في مدرسـة "القـديس يوسف الدينية" وفي دراسة اللاهوت بالجامعة، أصبح حبه لأبي يفـوق الوصـف. وقبـل أن يغادر "إيفورا"، أعطاه ساعة فضية. وبفضل نفوذه، عُيّن أبي، بعد بضـعة أشـهر مـن البطالة والتسكع في جمارك "بورتو" مديرًا لجمارك "فيانا".

كانت الزهور تُغطي أشجار التفّـاح، عنـدما وصـل أبي سـهلًا خصـيبًا بـين "مينيـو" و"ليما"، ثم تعرَّف في شهر يوليو على شاب من لشبونة وهو القائـد "جودينيـو"، الـذي كان يقضي الصيف مع اثنين من بنات أخته في مكان يطل على النهر، في مزرعة تسـمى "مزرعة موشتيرو"، وبها قصر قديم يخص أشراف عائلة "ليندوزو".

كانت البنت الكبرى، وتدعى "ماريا دو باتروسينيو"، ترتدي نظارات داكنة، وكانت تأتي كل صباح من المزرعة إلى المدينة على ظهر حمار، ومعها خادم يرتـدي زيًّـا رسـميًّا لحضور القداس في "سانتانا". أمَّـا الأخـرى - وتُـدعى "روزا" - فكانـت ممتلئـة الجسـم وقمحية البشرة، وتجيد عزف القيثارة، وتحفظ عن ظهر قلـب أبيـات الحـب والوجـد، وكانت تمضي ساعات على ضفاف النهر بين ظلال شجر النغـت تجرجـر ثوبهـا الأبـيض على العشب، وتجدل الأغصان البرية.

بـدأ أبي يـتردد عـلى المزرعـة، وكـان أحـد حـراس الجـمارك يحمـل لـه الجيتـار؛ وبيـنما كـان القائـد ومعـه صـديق لـه يُـدعى "مارجريـد" وهـو طبيـب منتـدب يتسـليان بلعـب طاولـة الزهـر، كانـت "ماريـا باتروسـينيو" منهمكـة في صـلواتها، وكـان أبي في الشرفـة، إلى جانـب "روزا"، يقطـع الصـمت بعزفـه ويغنـي قصـص الكونـت "أوردونيـو" الحزينـة تحـت ضـوء القمـر الـذي يـنعكس عـلى صـفحة

النهر.. وكان يلعب أحيانًا أخرى لعبة الطاولة، بينما كانت "روزا" تجلس عند قدمي "تيتي" (وهو اسم "باتروسينيا" الذي كنت أدللها به) وتضع زهرة في شعرها، وكتابًا في حجرها، وبينما كان يهز أبي زهر "الدومينو" في يده كان يشعر بمداعبة واعدة من عينيها الهدباء.

تزوجا.. ووُلِدت أنا عصر يوم الجمعة العظيمة. وتُوفيت والدتي عندما كانت صواريخ الاحتفالات بعيد الفصح تفرقّع في صباح بهيج. دُفِنت مغطاة بالزهور الملونة الرائعة، في مقابر "فيانا"، في شارع ملاصق للجدار، بمقبرة رطبة بفضل الظلال الوارفة للأشجار المحيطة، حيث كانت تحب أن تذهب عصر أيام الصيف، مرتدية ملابسها البيضاء، مع كلبها الصغير الرقيق والذي كانت تسميه "ترافياتا".

لم يعد القائد والسيدة "ماريا" إلى مزرعة "موشتيرو". كبرتُ وأصبتُ بالحصبة، وأخذ وزن أبي في الازدياد؛ وصمت جيتارُه، وقبُع في ركن من الصالة، داخل كيس من القماش الأخضر. وفي أحد أيام شهور يوليو عندما كان الجو شديد الحرارة، ألبستني خادمتي "جيرفاسيا" البدلة الثقيلة المصنوعة من المخمل الأسود. ووضع أبي شريطًا أسودَ على قبعتي المصنوعة من القش. كان ذلك حدادًا على القائد "جودينيو"، الذي كان أبي يسميه "المحتال".

ثم تُوفي أبي فجأة، في ليلة الاحتفال بالمهرجان، بسبب سكتة دماغية، عندما كان يهبط سلم منزلنا الحجري. كان يرتدي قناع رجل قبيح استعدادًا لحفلٍ راقصٍ مع سيدات عائلة "ماسيدو".

كنت في السابعة من عمري، وأتذكرُ أنني رأيتُ في اليوم التالي سيدة طويلة القامة، وبدينة، في بهو منزلنا، تلبس غطاءً فخمًا للرأس من الدانتيل الأسود، وتنتحب أمام بقع الدم التي نزفها أبي، والتي لم يتكلف أحد عناء إزالتها،

فجفت على البلاط. وعند الباب، كانت تنتظر امرأة عجوز، تصلي، منكفئة في عباءة من الحرير.

وأُغلقت نوافذ المنزل الأمامية؛ وفي الممر المظلم، كان المصباح النحاسي يبعث بضوئه من كُوة تشبه مقصورة الكنيسة التي يملؤها الدخَان منذ قديم الزمان. كانت الرياح تهُبُّ وكانت السماء تمطر. ومن خلال نافذة المطبخ، كانت "ماريانا" تجهش بالبكاء وهي تأجج نار الموقد، ورأيت في بلدة "لارجو دا سنيورا دا أجونيا" الرجل الذي عاد حاملًا على ظهره نعش أبي. وفوق المرتفعات الجبلية الباردة، بدت لي كنيسة السيدة العذراء الصغيرة بصليبها الأسود أشد حزنًا، كانت بيضاء عارية بين أشجار الصنوبر، وتختفي تقريبًا في الضباب. وإلى الأمام، كانت الصخور تتأوه وتتدحرج، دون توقف، وكان الشتاء كالبحر الهادر.

ذات ليلة، أجلستني خادمتي "جيرفاسيا" ليلًا في غرفة الكي، على الأرض، ملفوفًا بتنورة قصيرة. وكان وقع أقدام "جواو" حارس الجمارك، يُسمع من الممر، وكان يوقد النار بشجر الخزامى. أحضرت لي الطبَّاخة قطعة من الكعكة الإسفنجية. وعندما غلبني النعاس رأيت نفسي أمشي على حافة نهر صافٍ، حيث بدت أشجار الحور العتيقة وكأن الروح قد بُعثت فيها فوقفت تتنهد، وبجانبها سار رجل عارٍ، بقرحة في قدميه، وقرحة على يديه، كان ذلك الرجل هو الرب يسوع.

أيقظوني عند الشروق، وقد غمرت أشعة الشمس نافذة غرفتي.. كان الضوء الرائع يشرق كنذير لشيء مقدس.. وعلى جانب السرير، رأيتُ شخصًا بدينًا ومبتسمًا يدغدغ قدميَّ بحنان ويصفني بالكسول. أخبرتني "جيرفاسيا" أنه السيد "ماتياس"، وأنه سيأخذني بعيدًا حيث منزل خالتي "باتروسينيو". وكان السيد "ماتياس" يحدِّق بشيء من الدهشة في جوربي الممزق الذي

ألبستني إيَّاه "جيرفاسيا". ودثروني في شال أبي الرمادي. حملني "جواو"، حارس الجمارك، بين أحضانه إلى الباب الأمامي، حيث كان الهودج ذو الستائر المرسومة بألوان الزيت في انتظاري.

ثم بدأنا السير على طرق طويلة وكان النعاس يغلبني وأنا أسمع رنين أجراس الخيل البطيء؛ وكان السيد "ماتياس" جالسًا أمامي يداعب وجهي بحركات لطيفة من يده من وقت لآخر، وأنا أتساءل: "هل وصلنا؟". وبعد الغروب، في وقت الشفق، توقفنا فجأة في برية، حيث كان هناك مستنقع. وأخذ الحوذي غاضبًا يسب ويلعن، وهو يهز الشعلة الموقدة في يده. ومن حولنا ساد ظلام حالك، وكانت أشجار الصنوبر تُحدث ضجيجًا. ونزع السيد "ماتياس" ساعته من جيبه وأخفاها في حذائه.

وفي إحدى الليالي، عبرنا مدينة كانت مصابيح الشوارع فيها تشع ضوءًا براقًا نادرًا لم يسبق لي أن رأيت مثله، وكانت على شكل وردة التيوليب المفتوحة. وفي النُزُل الذي قضينا الليلة فيه، كان الخادم، ويدعى "جونكالفيس"، يعرف السيد "ماتياس" جيدًا. وبعد أن أحضر لنا شرائح اللحم، وقف بجوار الطاولة على نحو مألوف يحمل منشفة على كتفه، ويقص علينا حكايات عن البارون وعن زوجته الإنجليزية.

وعندما ذهبنا إلى الغرفة، التي أضاءها "جونكالفيس"، مرت بنا فجأة سيدة بيضاء ضخمة بملابسها الحريرية التي تحدث حفيفًا مميزًا في الممر، وتفوح منها رائحة المسك. كانت هذه هي السيدة الإنجليزية، زوجة البارون. كان ضجيج العربات يوقظني في سريري الحديدي، وكنت كلما استيقظت أجد نفسي أفكر فيها وأصلي لها صلوات كصلوات مريم العذراء:

"لم تمس يداي جسدًا جميلًا كجسدك

تفوح منه بقوة نسمات عطرك

يا ممتلئة بالنعمة

كان الرب معك

تمُرين مباركة أنتِ في النساء

وفستانك الحريري الأبيض يُحدث ضجيجًا...".

ثم انطلقنا في عربة كبيرة بها أثاث ملكي على طريق ممهدة، على وقع سنابك أربعة من الخيول القوية. وأخذ السيد "ماتياس" وهو مرتديًّا نعليه يأخذ نفسًا عميقًا من النشوق، ويشير لي هنا وهناك، فهذه قرى صغيرة تلتف حول كنيسة قديمة، وذاك وادٍ خصيب. وعند غروب الشمس، كنا نرى أحيانًا على جانب التل نوافذ بيت هادئ تتوهج بلون الذهب اللامع. كانت العربة تسير وكان المنزل يقبع بين الأشجار؛ ومن خلال زجاج العربة الضبابي كنت أرى نجمة فينوس تتلألأ في السماء.

وفي جوف الليل عزف بوق نحاسي. ودخلنا بلدة صغيرة هادئة تتدحرج على رصيف مائل حتى وقفنا أمام بوابة نُزُل، تصحبنا الفوانيس بضوئها الخافت في هدوء. وفي الطابق العلوي، دلفنا إلى غرفة مريحة، تتوسطها طاولة مليئة بأدوات المائدة، وأشعلت نيران الأفران؛ فتوافد النزلاء، يتثاءبون، وخلعوا عنهم القفّازات الصوفية السميكة. واحتسيتُ مرق الدجاج، وأنا أغالب النعاس وغير راغب في الطعام، وكنت بجانب السيد "ماتياس"، الذي كان يعرف دائمًا أحد الندلاء، وكان دائم السؤال عن الطبيب المنتدب، أو عن أحوال المجلس البلدي.

أخيرًا، وفي صباح يوم أحد، بينما كانت السماء تمطر قليلًا، وصلنا إلى منزل كبير، في منطقة موحلة. أخبرني السيد "ماتياس" أنها كانت لشبونة. وجلستُ على مقعد في مؤخرة غرفة رطبة ألتحف بشال أبي، حيث كانت هناك أمتعة

وموازين حديدية كبيرة. ودق جرس بطيء يعلن ساعة القداس؛ ومرت جوقة من الجنود أمام الباب، يحملون أسلحتهم على بزاتهم الزيتية. وحمل أحد الرجال حقائبنا، ودخلنا عربة صغيرة، وخلدتُ إلى النوم على كتف السيد "ماتياس". وعندما وضعني على الأرض، كنَّا في فناء كئيب، مرصوف بالحصى الصغيرة، تحيطه مقاعد مطلية باللون الأسود. وعلى السلالم، همست فتاة سمينة لرجل يرتدي حلة قرمزية، والذي كان يحمل بين ذراعيه صندوقًا لتحصيل العشور.

صعد السيد "ماتياس" السلم وهو يتحدث إلى "فيسنسيا"، خادمة الخالة "باتروسينيو" وهو يأخذ بيدي بحنان. في غرفة مبطَّنة بالورق الداكن، وجدنا سيدة هيفاء القوام، وتتشح السواد، وتلبس سلسلة من الذهب على صدرها، ويتدلى من عنقها منديل أرجواني، وعلى رأسها طرحة كئيبة، وعلى هذه الخلفية ارتدت نظارتها القديمة، وعلى الحائط من خلفها تظهر صورة سيدة الأحزان، تنظر إليَّ والسيوف تخترق صدرها.

- إنها السيدة "تيتي".

قالها السيد "ماتياس".

من الضروري أن تحب "تيتي" كثيراً.. ولا بدَّ من طاعتها على الدوام!

وانحنت علي بوجهها الشاحب الجاف ببطء وصعوبة، وأحسست بقبلة غامضة باردة برود الحجر، ثم وقفت غاضبة:

- ما هذا يا "فيسنسيا"! يا للهول! أظنُّ أنهم وضعوا الزيت في شعره!

نظرت إليها وفرائصي ترتعد، وأنا أتمتم:

- نعم، "تيتي".

ثم تباهى السيد "ماتياس" بعبقريتي، وحكمتي في العربة، والطريقة المهذبة التي شربت بها حسائي على طاولة النزل.

- حسنًا.

قالتها "تيتي" بصوتٍ جافٍ.

- هذا ما كان ينقصنا، أن يتصرف بطريقة سيئة وهو يعرف ما أقوم به من أجله.. اذهبي يا "فيسنسيا"، وخذيه معكِ للداخل.. واغسلي له هذا الغمص الذي حول عينيه، واسأليه إذا كان يعرف أن يشير بيديه علامة الصليب..

قبَّلني السيد "ماتياس" قبلتين متعجلتين، وأخذتني "فيسنسيا" إلى المطبخ.

في الليل ألبسوني بدلة مخملية. وأخذتني "فيسنسيا" من يدي بكل جد وثيابي نظيفة، وأدخلتني غرفة علقت فيها ستائر حريرية قرمزية، وكانت أرجل الطاولات ذهبية تشبه أعمدة المذبح.

جلست الخالة وسط الأريكة، وهي ترتدي حريرًا أسود، مزينة بالدانتيل، وأصابعها تلمع بالخواتم، وعلى كرسيين مذَّهبين أيضًا جلس بجانبها اثنان من رجال الكنيسة يتحادثان. كان أحدهما مبتسمًا وسعيدًا، له شعر أبيض مجعَّد، وفتح ذراعيه لي بطريقة أبوية. أمَّا الآخر فكان قمحيًّا حزينًا، وتمتم فقط "مساء الخير". ومن المنضدة، حيث كان يقلّب صفحات كتاب كبير من الصور المطبوعة، حيَّاني رجل صغير، ذو وجه حليق وأوداج ضخمة، بحيث جعلت العدسات الكبيرة تنزلق من فوق أنفه.

وأعطاني كل واحد منهم قبلة ببطء. ثم سألني الكاهن الحزين عن اسمي، أخبرته أن اسمي هو "تيوديريكو". ثم نصحني القس الآخر بحب وابتسامة أظهرت أسنانه اللامعة بفصل المقاطع عن بعضها فأقول: "تي-و-دي-ري-كو"، ثم وجدوا أنني أشبه أمي في عينيها. تنهدتْ "تيتي"، ثم شكرت الرب على

أنني لم أشبه أبي في شيء. وأغلق الرجل ذو القلادات الكبيرة الكتاب، وطوى نظارته، وتساءل بخجل إذا كنت أشتاق إلى موطني "فيانا"؛ فهمست خجلًا:

- نعم، "تيتي".

ثم اقترب كبير الكهنة وأقدمهم مني، وأوصاني بالخوف من الله، والهدوء في البيت، والطاعة الدائمة لـ"تيتي".

- "تيوديريكو" لن يسبب مشكلات لـ"تيتي".. لا بدَّ من قول نعم دائمًا لـ"تيتي".

كررت، وأنا مطأطئ الرأس:

- نعم، "تيتي".

أمرتني "تيتي" بصرامة أن أخرِج إصبعي من فمي. ثم أمرتني بأن أعود إلى المطبخ، حيث كانت "فيسنسيا" هناك، وأن أذهب للمطبخ دائمًا عبر الممر.

- وعندما تمرُ أمام المصلى، وتجده مضاءً والستارة الخضراء مفرودة، اركع وأشِر بعلامة الصليب.

لم أشِر بعلامة الصليب.. لكنني فتحتُ الستارة، وأذهلني مصلَّى "تيتي" كثيرًا. كان كل شيء مغطًّى بالحرير الأرجواني، واللوحات الزيتية في إطارات مذهبة، بما فيها لوحات "آلام الرب"؛ وكانت ستارة المذبح تتدلى على سجَّاد أرض المصلَّى.. وكانت تماثيل القديسات المصنوعة من العاج والخشب ذات الهالات البرَّاقة مُحاطة بغابة من زهور البنفسج والكاميليا الحمراء.

كان ضوء الشموع يضفي ضياءً على صينيتين ثمينتين من الفضة، تتكئان على الجدار، مع دروع مقدسة، وصليب من الخشب الأسود تحت مظلة، أمَّا تمثال الرب يسوع المسيح فكان مشرقًا يتلألأ.. كان من الذهب الخالص.

تسللتُ ببطء إلى وسادة مخملية خضراء وُضعت أمام المذبح، وقد تركت ركبتا "تيتي" الورعتان تجويفًا مميزًا فيها، ورفعتُ عيني السوداوين الجميلتين إلى السيد المسيح على الصليب. وفكرتُ أن الملائكة والقديسين والسيدة العذراء ورب الجميع، في السماء، يجب أن يكونوا هكذا، من الذهب، ومرصعين بالأحجار الكريمة، وأن سطوعهم هو ضوء النهار، وأن النجوم هي النقاط الأكثر حيويةً من المعدن الثمين، يخترق ضوؤها الحجب السوداء، التي ألقاها الليل عليهم ليناموا، وسط دعوات البشر الورعة.

بعد أن احتسيت الشاي، ذهبت "فيسنسيا" بي لتضعني في حجرة صغيرة بجوار غرفتها، وجعلتني أركع في قميصي، وجمعت يديَّ معًا، ورفعت وجهي إلى السماء، ورددت "أبانا الذي..." وجعلتني أرددها من أجل شفاء "تيتي"، وكي تستريح أمي في قبرها، ولروح قائد كان من الأخيار، كان خيِّرًا، وغنيًّا جدًّا، واسمه "جودينيو".

عندما بلغتُ التاسعة من عمري، أمرت "تيتي" بصنع قمصان لي، وبدلة من القماش الأسود، وألحقتني بمدرسة داخلية في مدرسة "الأزيدوريين"، وكانت حينئذ في "سانتا إيزابيل". في الأسابيع القليلة الأولى ارتبطتُ عاطفيًّا بصبي يُدعى "كريسبم". كان يكبرني، وكان ابن العائلة صاحبة شركة "Teles & Crispim " وشركاه، التي كانت تمتلك مصنع الغزل في "بامبوليا". وكان "كريسبم" يساعد في قداس يوم الأحد. وكان عندما يركع على ركبتيه بشعره الأشقر الطويل يبدو كأنه ملاك في رقته، وفي بعض الأحيان اعتاد أن يمسك بي في الممر ويطبع على وجهي، الذي كان ناعمًا كوجه البنات، قبلات حارة.. وفي الليل، في غرفة الدراسة، على المنضدة حيث كنا نتصفح القواميس، كان يمرر لي وريقات مكتوبة بالقلم الرصاص يقول لي فيها إني أنا معبوده ويعدني بصناديق من أقلام الحبر.

كـان يـوم الخمـيس يومًـا غـير مـريح لي؛ إذ كنـا نغسـل فيـه أقـدامنا.. وكـان الأب "سوارس" الحكيم يأتينا ثلاث مرات أسبوعيًّا والمسـواك في فمـه يسـتجوبنا في العقيـدة ويخبرنا عن حياة الرب: "حسنًا، ثم أخذوه وجـرُّوه إلى قصر "قيافـا""[6]. وقـال أحـدُهم وهو جالس على طرف المقعد، وكان هو "قيافا" نفسه: مرحبًا، تحرّك يا هـذا! تحـرّك... ألا تريد! هيًّا، يا عنيد!". كان أحد القضاة يهوديًّا والآخران أسوأ منـه. والآن يحـكى أنـه هناك، في بقعة قبيحة جدًّا من "يهودية"، توجد شجرة كلها مـن الشـوك، تقشـعر مـن رؤيتها الأبدان.

ثم يدُّق جرس الفسحة؛ فنغلق الكتاب في حركة سريعة موحدة. كان فنـاء اللعـب كئيبًا، وتنبعث منه روائح كريهة بسبب المراحيض المجاورة. وكانـت التسـلية الوحيـدة لأكبرنا سنًا أن يأخذوا أعقاب السجائر ويدخنوا سرًا ما بقي منها في حجرة الموسيقى في الطابق الأرضي، حيث كـان السـيد "كـافينتي" العجـوز معلِّـم الـرقص بحذائـه الممـزق وشعره المموج، يعلمنا رقص "المازوركا"[7] أيام الآحاد.

كانت "فيسنسيا" تأتي كل شهر، مرتدية معطفهـا وطرحتهـا لتأخـذني بعـد القـداس لقضاء يوم الأحد مع "تيتي".. وكان "إيزيدورو جونير" يفحص أظافري وأذنيَّ دائمًا قبـل أن أغادر. ومرات عدة، كان يغسل رأسي بالصابون في غضب في الحوض، ويقول بصوت خفيض: "يا حقير". ثم يوصلني إلى الباب وكان يلاعبني؛ فقـد كـان يعـاملني كصـديقه الصغير العزيـز، وكـان يبعـث بـأحر السـلامات إلى خـالتي السـيدة "باتروسـينيو داس نيفيس".

كنا نعيش في ساحة "سانتانا"، وعند ذهابنا للمنزل كنا نتوقـف عنـد دكـان للصـور المطبوعـة، وأقـف أمـام صـورة امـرأة شـقراء مغريـة. صـدرُها عـارٍ، وتضـجع

(6)- يوسف بـن قيافـا أو الاسـم الأكـثر تـداولًا قيافـا. وهـو حسـب الكتـاب المقـدس مـن أعضـاء السنهدرين ومن الذين شاركوا في محاكمة يسوع. توفي سنة 36م. ويكيبديا، المترجم

(7)- رقصة ذات ثلاثة أشواط، نشأت في بولندا، المترجم

على جلد نمر وتمسك بأصابعها، التي كانت أرق من أصابع "كريسبم"، سلسلة ثقيلة من اللؤلؤ. كان ذلك العري يجعلني أفكر في زوجة البارون الإنجليزي. وفي تلك الرائحة التي كانت تنبعث من ممر النُزُل فتقضّ مضجعي، وكنت أشمها مرة أخرى تفوح من الملابس الحريرية للسيدات اللاتي يذهبن لقداس الأحد في ذلك الشارع المشمس، وهن في غاية الأناقة والجد.

أجد "تيتي" في المنزل فتمد لي يدها لأقبلها. كل صباح، كنت أقلِّبُ صفحات مجلدات "بانوراما العالم" في حجرتها، حيث الأريكة ذات القماش القطني ودولاب الخشب الأسود وصور مطبوعة ملونة تمثِّل مقاطع من حياة الزهد لقديسها المفضل، القدِّيس "يوسف"، وكانت "تيتي" تجلس مرتدية وشاحًا أرجوانيًّا على رأسها، وتجلس عند النافذة المحاطة بالزجاج، وقدماها ملفوفتان في بطانية، تفحص بجد دفتر حسابات كبير. وعندما تدق الساعة الثالثة كانت تطوي الدفتر، وتسألني، والمنديل ما زال على وجهها، عن العقيدة، وأنا أذكر ركائز العقيدة وأرتِّل الوصايا العشر، وأنظر للأرض وأشمُّ رائحتها الحلوة الحامضة كرائحة التبغ الخام ورائحة حركتها ونشاطها. وفي مساء أيام الآحاد، يأتي رجلان من رجال الدين لتناول العشاء معنا. أحدهما ذو شعر مجعَّد ويُدعى الأب "كاسيميرو"، وهو مدير أعمال "تيتي". وكان يعانقني مبتهجًا. ويدعوني لتصريف الأفعال اللاتينية، ثم يثني عليَّ ويقول إنني "موهوب". ويثني الرجلُ الآخر على مدرسة "الإزيدوريين"، ويقول عنها إنها مؤسسة تعليمية محترفة، حيث لم يوجد مثلها ولا حتى في بلجيكا. كان اسمه الأب "بينيرو". وفي كل مرة كان يأتي فيها كان يبدو أكثر سمارًا، وأكثر حزنًا. وكلما مرَّ أمام المرآة، يخرج لسانه وينسى أن يُدخله أو أن يتفحصه، ويبقى مشدوهًا ومنزعجًا. وعلى العشاء، أحب الأب "كاسيميرو" أن يرى شهيتي:

- هل تريد بعضًا من لحم البتلو المطبوخ؟ إن الأولاد لا بدَّ أن يكونوا مبتهجين وأن يأكلوا جيدًا!

ويقول الأب "بينيرو"، وهو يتحسس معدته:

- إنها سنين السعادة! ذلك العمر الذي يقدر الإنسان فيه أن يأكل من البتلو ويستزيد!

ثم يتحدث مع "تيتي" عن الأمراض.. أمَّا الأب "كاسيميرو"، فكان صحيحًا، يربط المنديل حول عنقه، ويملأ طبقه وكأسه، ثم يبتسم، وعلى وجهه علامات التقوى.

وعندما تبعث مصابيح الغاز بضوئها من بين الأشجار في الساحة، كانت "فيسنسيا" تضع شالها القديم المنقوش بمربعات الشطرنج، وتأخذني إلى المدرسة. في هذا الوقت، من أيام الآحاد، أتى رجل ذو وجه حليق وعقود متدلية، وهو السيد "جوزيه جوستينو" أمين جمعية "القديس يوسف"، ومحامي "تيتي" في مكتب توثيق "ساو باولو".. وفي الفناء، وبعد أن خلع عنه معطفه، وداعبني في ذقني، سأل عن صحة السيدة "باتروسينيو" (تيتي) وصعد. أغلقنا نحن البوابة الثقيلة، وتنفستُ بأسى، فقد كان هذا البيت يحزنني بستائره الحمراء، وصور القديسين التي لا تُعد ولا تُحصى، ورائحة مقصورة الصلاة.

وفي الطريق، حكت لي "فيسنسيا" عن "تيتي"، وأنها أحضرتها منذ ست سنوات من الملجأ، وعلمتُ أنها تعاني أمراض الكبد، وأن "تيتي" لديها الكثير من المال في صرة من الحرير الأخضر، وأن القائد "جودينيو"، خالها وخال أمي ترك لها ثروة تزيد على مائتي "كونتو" عبارة عن عقارات، وحُجج، ومزرعة "موشتيرو" في سهل "فيانا"، وفضيات وأحجار كريمة من الهند.. يا لها من ثرية الخالة "تيتي"! وفهمت لماذا كان لا بدَّ من أن أكون حسُن الخُلُق دائمًا؛ لأحوز رضاء "تيتي" دائمًا!

وعلى باب المدرسة تقول لي "فيسنسيا": "وداعًا يا حبيبي" وتعطيني قبلة كبيرة.. في كثير من الأحيان، في الليل، كنت أفكر فيها وأنا أعانق الوسادة، وفي ذراعيها البيضاوين كالحليب التي تشمر عنهما فتظهران ممتلئتين، وهكذا وُلد بداخلي شغف وحب تجاه "فيسنسيا".

وذات يوم، وصفني أحد الصبية، وكان في وجهه زغب، بأنني كالمرأة الثرثارة. دعوته للعراك في المراحيض، ولطختُ وجهه بالدماء بلكمة قوية. تملّكني الخوف، فأشعلت سيجارة، ثم أخرى.. ترك "كريسبم" المدرسة؛ وكنت أريد أن أتعلم المبارزة بالسيف.. واختفى حبي الكبير تجاه "فيسنسيا" يومًا ما بشكل لا يصدَّق، كزهرة تسقط منك في الطريق.

ومرت السنوات، وعشية عيد الميلاد أشعلتُ مبخرة في قاعة الطعام. ارتديتُ معطفي المبطن بالقطن والمزيَّن بطوق من صوف الحملان، ثم حلقت طيور السنونو على سطح البيت.. وفي مصلّى "تيتي"، وبدلًا من زهور الكاميليا، وضعتُ أول قطفة من زهور القرنفل الأحمر عند أقدام السيد المسيح الذهبية، ثم جاء وقت حمامات البحر، وأرسل الأب "كاسيميرو" لـ"تيتي" عنقودًا من العنب من مزرعته في "توريس"، وبدأت أنا في دراسة البلاغة.

ذات يوم، أخبرني مدير أعمالنا الطيِّب أنني لن أعود إلى الدراسة في مدرسة الـ"إزيدوروين" ثانية، وأنني سوف أكمل دراستي في "كويمبرا"، في منزل الدكتور "روشو"، مدرِّس اللاهوت في الجامعة.. وفصّلوا لي ملابس بيضاء. وأعطتني "تيتي" ورقة بها صلوات أقرؤها يوميًّا؛ وهي صلوات للقديس "لويس جونزاجا"، راعي الشباب الدارسين، كي يحتفظ جسدي بنضارة العفة،

ويكمن في نفسي الخوف من الرب.. وأخذني الأب "كاسيميرو" إلى المدينة الجميلة؛ حيث ترقد "مينيرفا"[8].

كرهتُ الدكتور "روشو"، وعانيتُ في بيته شظفَ العيش وقسوة الحياة؛ وكم سعدت سعادة لا تُوصف عندما كنت في السنة الأولى لدراسة القانون، وعرفت بموت ذلك الكنسي البائس من الجمرة الخبيثة، ثم انتقلت إلى سكن "الأشرار" الممتع، وجربت دون اعتدال كل أنواع الاستقلال، وانغمستُ بقوة في متع الحياة.. ولم أكرر بعدها قط صلاة القديس "لويس جونزاجا"، ولا ركعتُ على ركبتيَّ أمام الصور المقدسة التي تلبس هالة حول الرقبة.. وشربتُ حتى الثمالة في الحانات، وتأكدت من متانة بنيتي عندما لكمتُ حارس مقهى "تروني" لكمةً أدمت وجهه؛ أكلتُ الحلوى اللذيذة مع الأحبة في ساحة "إرفا"، وتجولتُ تحت ضوء القمر، وصرختُ مرددًا أغاني "الفادو".. وكنتُ أشرب المخدرات، وعندما ظهرت لحيتي كثيفة سوداء، اتخذت بفخر لقب "رابوزو" (وهو يعني الثعلب).

وكنت أكتب لـ"تيتي" خطابًا كل أسبوعين، بخط جميل يمتلئ بالتواضع والتقوى؛ إذ كنت أحكي لها عن قسوة الدراسة، وعن عفتي وحيائي، وعن انتظام صلواتي وكثرة صيامي، وعن الخطب التي تغذي روحي، وعن الراحة التي أشعر بها أمام يسوع كل مساء، وفي الكاتدرائية، وعن عبادة الأيام التسعة التي تطيب بها نفسي في "سانتا كروز" في أيام الإجازات. أمَّا أشهر الصيف في لشبونة فكانت مؤلمة. لم يكن بإمكاني الخروج من البيت ولا حتى لأحلق شعري، دون أن أتوسل إلى "تيتي" للحصول على إذن وأنا ذليل.. لم أجرؤ على التدخين مع القهوة.. كان يجب عليَّ الجلوس منطويًا كالعذارى، وفي الليل وقبل أن أخلد للنوم، كان عليَّ أن أصلي مع المرأة العجوز على المسبحة في المصلى.. وقد سئمت نفسي بسبب هذه العبادات الكريهة!

---

(8)- من أشهر آثار جامعة كويمبرا تمثال مينرفا ذو السلالم الشهيرة، وهو يزين الجزء القديم من الجامعة، ويعد رمزًا لها. المترجم

سألتني "تيتي" ذات مرة:

- هل اعتدت هناك في أيام دراستك على الصلاة بالمسبحة؟

فأجبتها وأنا أبتسم بخسة:

- يا للهول! لم أعد أستطيع النوم دون أن أصلي على مسبحتي.

وفي أيام الآحاد عدنا لمواصلة العادات القديمة، وقد صار الأب "بينيرو" يشتكي من القلب وأصبح حزينًا، ويشتكي كذلك قليلًا من المثانة.. وكان هناك نديم آخر، وهو صديق قديم للقائد "جودينيو"، وهو زائر مخلص لعائلة "نيفيس"، اسمه "مارجريد"، الذي كان مفوضًا في "فيانا"، ثم قاضيًا في "مانجوالدي".. ضاق صدره على وفاة شقيقه "هابيل"، الذي كان سكرتير الهيئة البطريركية، وكان الرجل قد تقاعد بعد أن تعب من الأوراق، وعاش في الكسل، يقرأ الصحف ويعيش في مبنى خاص به في ميدان "فيجيرا".. ولأنه كان يعرف أبي، وكثيرًا ما رافقه إلى الدير؛ فقد كان يعاملني باحترام ويخاطبني بـ"حضرتك".

كان رجلًا ممتلئًا وهادئًا، وكان أصلع الرأس، لكن وجهه كان مفعمًا بالحيوية، ويعلوه حاجبان متصلان كثيفان لونهما في سواد الفحم.. ونادرًا ما كان يدخل غرفة "تيتي" دون أن يطلق خبرًا مروعًا فور دخوله من الباب.. "إذًا، ألا تعرفون؟ فقد اشتعلت النيران المروعة هناك!".. ولم يكن يدخّن في غليونه سوى مرة واحدة؛ لكن "مارجريد" الطيب ألـّفَ من جديد مأساتين بسبب الحزن، ولذلك كان دائم المبالغة وإثارة الدهشة، وكان يقول: "ما من أحد مثلي يتلذذ بعظمة...".

وكلما أرهب الكهنة "تيتي"، كان يأخذ نفسًا من النشوق بأنفه.

كنتُ أستريح للدكتور "مارجريد"؛ فقد كان رفيق أبي في "فيانا" وكثيرًا ما كان يستمع لغنائه، وعزفه على الجيتار، وغنائه سيرة الكونت "أوردونيو".. وكان يمضي أوقاتًا كثيرة عصر كل يوم معه في أمسيات شعرية على ضفاف النهر في مزرعة الدير عندما كانت أمي تصنع أغصان للزينة من الشمع والقماش في ظل شجر الألدر.. وأرسل لها اللوز عندما ولِدتُ، في الليل، في يوم جمعة الآلام، وعلاوة على ذلك، حتى في وجودي، كان يمتدح فطنتي علنًا أمام "تيتي"، ورجاحة عقلي في كل الأمور:

- إن ابننا "تيوديريكو دى باتروسينيو"، هو فتى يسِّر قلب أي خالة.

صاحبة السعادة، سيدتي الثرية، إن لديك الآن "تليماخوس"! ويحمرُ وجهي خجلًا، وتواضعًا.

وصرت أتنزه معه في ميدان "روسيو"[9]، وفي أحد أيام شهر أغسطس التقيتُ بقريب لنا لم يكن بيننا وبينه اتصال، وهو ابن عم القائد "جودينيو".. وقدمه لي د. "مارجريد" قائلًا فقط: "إنه "شافير"، ابن عمك، وهو شاب عنده من الكثير من المواهب".. كان رجلًا هزيلًا له شارب أشقر، وكان أنيقًا مجاملًا. بدّدَ ثلاثين كونتا، كان قد ورثهم عن والده، صاحب مصنع للحبال في القنطرة، وكان القائد "جودينيو"، قبل أشهر من وفاته بسبب التهاب رئوي، قد أمر له براتب يُصرف من أعمال الخير في وزارة العدل، وقدرُه عشرون ألف ريال في الشهر، ويعيش "شافير" الآن مع امرأة إسبانية تدعى "كارمن"، وثلاثة أطفال، في بيت متواضع بشارع "الإيمان".. ذهبت إليه في يوم أحد، فلم أجد هناك تقريبًا أي أثاث غير حوض لغسيل الوجه عالقًا على قش مقعد مكسور.. أمَّا "شافير" فيبصق كل صباح دمًا من فمه.. و"كارمن" قد شحبَ لونُها وهي تلبس قبقاب وخرقة فوق فستانها الذي ملأته بقع النبيذ، وتتخبط في حجرتها حاملة طفلًا ملفوفًا في خرقة

---

(9) ميدان في وسط العاصمة لشبونة يقصده المتنزهون من السياح والبرتغاليين، يتوسطه عمود عليه تمثال للملك بدرو الرابع. ويكيبديا، المترجم

بالية ورأسه مليء بالجروح.. وعلى الفور، أخذني "شافير" إلى عالم بعيد عن الخالة "باتروسيينيو"، ورفع الكلفة بيني وبينه. كان كل أمله، حيال هذا البؤس القاتم، في الخالة "باتروسينيو"! فقد كانت خادمة يسوع، وهي تملك العديد من الأملاك، ولن تترك فردًا من عائلة "جودينيو" يفنى هناك في ذلك الكوخ، دون ملابس، ودون تبغ، وأطفاله حوله، يتضورون جوعًا، ويبكون من أجل كسرة خبز.. هل يشق على الخالة "باتروسينيو" أن تجعل له راتبًا، كما فعلت الدولة بالفعل، قدرُه عشرون ألف ريال؟

- يجب عليك أن تتحدث معها، "تيوديريكو"، يجب أن تقول لها: "انظري إلى أولئك الأطفال.. إنهم لا يملكون حتى جوارب تقيهم برد الشتاء".. تعالَ هنا يا "رودريجو"، أخبر العم "تيوديريكو" ماذا تناولتَ في غداء اليوم؟ قطعة خبز من البارحة! دون زبد، ولا أي إدام! تلك هي حياتنا يا "تيوديريكو"! انظر إلى شظف العيش هنا، يا فتى!

شعرتُ بالتعاطف معهم، ووعدتُ بالتحدث إلى "تيتي".

أتحدث إلى "تيتي"! لن أجرؤ على إخبارها بأنني أعرف "شافير" وأنني دخلت هذا الكوخ النجس حيث كانت هناك امرأة إسبانية هزيلة تعيش معه في الخطيئة. وحتى لا يلحظوا رعبي الظاهر من "تيتي"، لم أعد أتجول في شارع "الإيمان".. وفي منتصف سبتمبر، وهو يوم ميلاد السيدة العذراء عرفت من الدكتور "باروسو" أن "شافير" ابن عمي، قد أوشك على الموت، وقال إنه يريد أن يحادثني سرًا. ذهبتُ إلى هناك في عصر ذلك اليوم، يملؤني الضيق. وكانت رائحة الحمى تفوح من عند السلالم.. كانت "كارمن" في المطبخ، تتنهد ومعها امرأة إسبانية، نحيفة، ترتدي غطاء رأس أسود، وفستانًا كئيبًا من الساتان بلون الكرز. وكان الصغار مستلقين على الأرض، يتضورون جوعًا بعدما

استيقظوا. وفي غرفة النوم يقبع "شافير"، يلتحف بطانية، بجوار حوض الوجه الذي امتلأ ببصاق دامٍ، والسعال لا يتوقف.

- أهذا أنت يا فتى؟

- ما الخطب يا "شافير"؟

وعبَّر بقولٍ فاحش إنه صار تعيسًا. واستلقى على ظهره، وبدا بريق جاف في عينيه، تحدث معي عن "تيتي"، وأنه كان قد كتب لها رسالة جميلة، ليستعطف قلبها. لكن تلك الوحش لم تستجب، وأنه ينتوي الآن أن يرسل إلى جريدة الأخبار اليومية إعلانًا، يطلب فيه صدقة، وأنه سوف يوقعه "شافير جودينيو، ابن عم القائد الثري ج. جودينيو".. كان يريد أن يرى ما إذا كانت "باتروسينيو داس نيفيس" ستترك قريبًا لها، من عائلة "جودينيو" يتوسل الصدقات علانيةً على صفحات الجرائد.

- لكن يجب عليك مساعدتي يا فتى؛ فعندما تقرأ هي الإعلان، أخبرها بهذا البؤس! حاول أن توقظ فيها النخوة. أخبرها أنه من العار رؤية أحد الأقارب، من "آل جودينيو"، يموت بسبب تخلي أقاربه عنه. قل لها إنه ينتهي بالفعل. انظر، إذا كنت اليوم أستطيع أن أشرب حساءً، فهو لأن هذه الفتاة، "لوليتا"، التي تخدم في بيت "بينتا بيشيجوزا" وهو بيت للدعارة، قد جلبت لنا أربعة كورونا.. أترى ما وصل إليه حالنا؟

ونهضتُ متأثرًا:

- اعتمد عليَّ، "شافير".

- انظر، إذا كان معك خمسون سنتًا تزيد على حاجتك فأعطها لـ"كارمن".

أعطيتها النقود، وخرجتُ عاقدًا العزم على أن أفاتح "تيتي" رسميًّا نيابة عن "آل جودينيو" وباسم المسيح! وبعد تناول طعام الغداء في يوم آخر، وكانت

"تيتي" تضع المسواك في فمها، وتطالع ببطء صحيفة الأخبار. وسرعان ما رأت إعلان "شافير"، لأنها ظلت لوقتٍ طويلٍ تحدِّق في ركن من أركان الصفحة الثالثة حيث كان يستجدي بطريقة مؤلمة، ومخجلة وبشعة. ثم تخيلتُ عيون "شافير" وهي تحدق فيَّ من أعماق كوخه وكذا وجه "كارمن" الشاحب تغرقه الدموع، وأيدي الأطفال البؤساء النحيلة تمتد طلبًا لكسرة من الخبز.. إن هؤلاء البؤساء تتعلق أرواحهم بالكلمات التي سأقولها الآن لـ"تيتي".. كلمات قوية ومؤثرة تكون لهم كطوق النجاة.. كلمات يمكن أن ترسل إليهم أول قطع من اللحم يأكلونها في هذا الصيف البائس، وما إن فتحت شفتي حتى رأيت "تيتي"، متكئة في كرسيها، تبتسم ابتسامة شرسة:

- فليتحمَّل.. هذا هو ما يحدث لأولئك الذين لا يخافون الله، ويبحثون عن السكارى من النساء. لم يكن ليفني ثروته كلها لو لم يفعل. إن الرجل الذي يسير وراء النساء لا بدَّ أن تضيعه النساء. انتهى الأمر. لم يكن الله ليغفر له حتى أغفر له أنا، هل سيعاني! فليعاني، فقد عانى يسوع المسيح أيضًا!

خفضتُ رأسي، وأنا أغمغم:

- ومع ذلك فنحن لم نعانِ بما فيه الكفاية. إن "تيتي" على حق. لو لم يجرِ وراء النساء!

ثم نهضتُ وشكرت الرب. وذهبتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ على نفسي، كنت أرتجف، وما زلتُ أشعر بالتهديد والوعيد، الذي لوحت به "تيتي": "ينتهى الرجال عندما يلهثون وراء التنانير". أنا أيضًا قد لهثت وراء التنانير، في "كويمبرا"، في بارات "إرفا"! وهناك، في حقيبتي ما زلت أحتفظ بالدليل على خطيئتي، صورة "تيريزا". تلك الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا، وشريط الحرير، ورسالة منها رقيقة تقول فيها إنني "حبيب روحها". وطلبت مني فيها ثمانية عشر بنسًا! ووضعتُ كل هذا في سترة من القماش وأخطت عليها، خوفًا من

حملات "تيتي" التفتيشية المستمرة على ملابسي الداخلية. ولكنها كانت هناك، في صندوق احتفظت بمفتاحه، داخل سترة، محشوة بالداخل ممَّا يجعلها صلبة كالكرتون الذي يحشو الملابس، لكن أصابع "تيتي" المرتابة يمكن أن تجسها في أي يوم... وأذهب أنا للتو في خبر كان!

وفتحتُ الصندوق ببطء، وفككت حياكة سترة القماش، ثم نزعتُ رسالة "تيريزا" اللذيذة، وفككتُ الشريط الذي ما زال يحتفظ برائحة بشرتها، وصورتها مرتدية طرحة من القماش. وعلى أرض الشرفة، أحرقتُ كل شيء دون رحمة، كل الذكريات اللطيفة، وكل ملامح الوجوه. وقذفت بشكل محموم إلى خارج الشرفة رماد عواطفي. لم أكن أجرؤ هذا الأسبوع على العودة إلى شارع الإيمان. ثم في يوم من الأيام عندما كانت السماء تمطر قليلًا، ذهبتُ إلى هناك، عند الغروب، منطويًا تحت مظلتي. وقال لي أحد الجيران، وهو يراني أراقب النوافذ السوداء المظلمة للكوخ، إن "شافير"، الرجل البائس، قد ذهب إلى المستشفى على نقَّالة. نزلتُ حزينًا على سلالم الرصيف الضيقة. وفي هذا الشفق الرطب، بعد أن ارتطمتُ بمظلة أخرى، سمعت فجأة أحدهم ينادي فرحًا باسمي الذي كانوا ينادونني به في "كويمبرا" وهو "رابوزو". كان "سيلفيريو"، الذي كنا نلقبه "رينشاو". كان زميلي، ورفيقي في منازل السوء.. كان قد قضى هذا الشهر في "ألينتيجو"، مع عمه الغني الشهير، البارون "ألكونشيل"، والآن عاد من جديد كي يرى "إرنستينا"، فتاة شقراء، تعيش في "ساليتر"، في منزل وردي تزينه المزهريات على الشرفة.

- هل تريد أن تأتي معي هنا قليلًا، أيها الثعلب؟ هناك فتاة جميلة أخرى، إنها "أديليا"، ألا تعرف "أديليا"؟ والآن، أيها الشيطان، تعالَ لترى "أديليا".. إنها أنثى بحق!

كان اليوم يوم أحد، ليلة حفل "تيتي". وكان من المفترض أن آوي إلى الفراش بعد تلاوة الصلوات في الساعة الثامنة. هرشت لحيتي، مترددًا. كان "رينشاو" قد حكى لي عن بياض ذراعي "أديليا"، فوجدت نفسي أسير بجانبه وأنا أرتدي قفَّازي الأسود. وذهبنا وقد حملنا علبة من الحلوى وزجاجة من خمر "ماديرا" المعتَّق، فوجدنا "إرنستينا" وهي تخيط رقعة مطاطية في حذاء عملها. أمَّا "أديليا"، فكانت مستلقاة على الأريكة في قميص نوم وتنورة بيضاء وصندلها ملقى على السجادة، وتدخن سيجارة رفيعة؛ فجلستُ إلى جوارها، تختلج مشاعري ولا أعرف ماذا أقول وماذا أفعل، كانت مظلتي بين ركبتي. وعندما ركض "سيلفيريو" و"إرنستينا" إلى المطبخ يحضن أحدهما الآخر ليجلبا كؤوسًا لشرب الخمر، عندها فقط تجرأت أن أسأل "أديليا" متشجعًا:

- ومن أين تكون الفتاة؟

كانت من "لاميجو".. عدتُ، مرة أخرى أتلعثم، وقلت فقط إنه من المحزن أن الطقس كان ممطرًا. طلبت مني سيجارة أخرى، بأدب، وخاطبتني قائلة:

- أيها الرجل النبيل.

أنا أقدِّر هذا الأدب. انكشفت الأكمام الطويلة من ثوبها، وانزلقت مسفرة عن ذراعين بيضاوين ناعمتين.. حتى الموت نفسه لا بدَّ وأن يكون مبتهجًا بينهما. وأعطيتها بنفسي طبق الحلوى الذي حضّرته "إرنستينا".. أرادت أن تعرف اسمي. كان لها ابن أخت يدعى أيضًا "تيوديريكو"؛ وكان هذا هو الخيط الرفيع المتين الذي وضع قلبها داخل قلبي.

- لماذا لا يضع الفارس المظلة جانبًا؟

قالتها ضاحكة.. جعل التوهج الحار لأسنانها الصغيرة زهرة العشق تتفتح في داخلي.

- لن يخرجني شيء من هنا، ولا حتى لحظة.

وأخذتْ تدغدغ رقبتي بيدها ببطء. شربتُ بفرح، وشربت حتى بقية الخمر الـذي تركته في كأسها. وغنت "إرنستينا"، بشاعرية، مقطوعة من "الفادو"، ثـم جلسـت عـلى ركبتي "رينشاو". ثمَّ تحولت "أديليا" ناحيتي بهدوء، وجذبتني نحوها، فالتقت شفتاها بشفتي في قبلة عميقة يملؤها الإحساس هزت كياني كلـه. وفي تلـك اللحظـة الجميلـة، بدأت الساعة المزعجة ساخرة تدق العاشرة، وعقاربها تدور عـلى مينـا السـاعة كوجـه القمر تتجسس علينا من فوق رخامة وضعت على منضدة من خشب الماهوجني، بـين مزهريتين خاليتين من الزهور. يا للهول! كان هذا هو وقت تناول الشاي مـع "تيتـي"! فنهضتُ مذعورًا، وانطلقتُ حتى دون أن أفتح المظلة، أجوب الأزقـة المظلمـة التـي لا نهاية لها والتي تؤدي إلى ساحة "سـانتانا"! وفي المنـزل، لم أخلـع حتـى حـذائي الموحـل. ذهبتُ مباشرة إلى الصالة. ورأيتها على البعد، تجلس على أريكتها، فقلت وأنا أتلعثم:

- "تيتي".

لكنها كانت تصرخ بالفعل، وكان وجهها مصفرًا من الغضب، وتلوِّح بقبضتها:

- لا أسمح بالفوضى في منزلي! من يريد أن يعيش هنا لا بـدَّ وأن يوجـد في السـاعة التي أحددُها! أمَّا الفوضى التي اعتدتها هناك، في "كويمبرا"، فلن أسـمح بهـا مـا دمـتُ حيَّة! ومن لا يعجبه كلامي فالشارع موجود!

وبعد هذه الطلقات من التوبيخ من السيدة "باتروسـيينيو"، نكـث الأب "بينـيرو"، وكتَّاب العدل رؤوسهم، وبدا عليهم الكدر. وسحب الدكتور "مارجريد" ساعته الذهبية ونظر فيها حتى يعرف الذنب الذي جنيتـُه. وتدخَّل "كاسيميرو" الطيب بصفته كـاهن ومدير أعمالها، بأسلوب مؤثر ولطيف:

- إن السيدة "باتروسينيو" على حق؛ فهي تحب النظام في البيت؛ ولكن ربما كان ابننا "تيوديريكو" قد تأخَّر قليلًا في مقهى "مارتن"، ليسمع كلامًا عن الدراسات والملخصات.

فصرختُ بمرارة:

- ولا حتى ذلك أيها الأب "كاسيميرو"! أنا لم أذهب إلى "مارتن"! هل تعرف أين كنت؟ في الدير! نعم، لقد وجدتُ زميلًا لي من الطلاب وكان يبحث هناك عن أخته؛ فاليوم كان عطلة، وقد ذهبت أخته لقضاء اليوم مع عمتها، وهي من أخوات الدير.. وصرنا ننتظر، وأخذنا نتجول في الفناء.. فأخته سوف تتزوج، وأخذ يحكي لي عن العريس وعن جهاز العروس وعن حماس الفتاة للزواج.. وأنا أتحين الفرصة للهرب منه، ولكن الصبي كان ثرثارًا، فهو ابن أخ البارون "دي ألكونشيل"، وأخذ يرغي ويزبد عن أخته، وعن حبيبها وعن الخطابات.

كانت الخالة "باتروسينيو" تستمع غاضبة:

- انظر إلى هذا الحديث! ما هذه الحماقة! يا له من حديث غير لائق بفناء بيت الدين! اسكت، قد فقدتَ إيمانك، ويجب أن تخجل! لا بدَّ أن تفهم أنه في مرة أخرى لو جئت متأخرًا فلن تدخل هذا البيت! وستبقى في الشارع، مثل الكلب.

ثم مد الدكتور "مارجريد" يده للتهدئة وبث السلام:

- كل شيء واضح! كان "تيوديريكو" متهورًا، لكن المكان الذي كان فيه كان محترمًا. وأنا أعرف البارون "ألكونشيل". هو رجل عظيم الخطر، فهو واحد من أغنى أغنياء "ألينتيجو". ربما حتى أحد أغنى رجال البرتغال.. بل قل هو الأغنى على الإطلاق!.. حتى في الخارج لن يكون هناك ثروة من الأطيان تتجاوز ثروته ولا تقارن بها. إن ثروته من الخنازير أو من الفلين فقط تبلغ مئات بل ملايين الكونتات!

ثم نهضتْ وكان صوتها القوي يؤز كصوت مناشير الذهب. أمَّا "كاسيميرو" الطيب فهمس برفق وهو جانبي:

- خذ الشاي، "تيوديريكو"، اشرب كوبك، واعلم أن الخالة لا تتمنى لك سوى الخير.

تناولت بيد مرتعشة كوب الشاي؛ وأخذت أقلب السكر خائر القوى، فكرت في أن أغادر إلى الأبد منزل تلك المرأة العجوز البشعة، التي أهانتني أمام القضاء والكنيسة دون أن تحسب حسابًا للحيتي التي بدأت تنمو غزيرة وتضفي عليَّ احترامًا بلونها الأسود.

ولكن في أيام الآحاد، كان الشاي يقدم على أطباق الفضة الخاصة بالقائد "جودينيو"، ورأيتها وهي تتألق أمامي بحجمها الضخم.. كان إبريق الشاي الكبير، المنتهي بمنقار بطة؛ ووعاء السكر الذي كان جناحه على شكل ثعبان الكوبرا المتحفِّزة؛ أمَّا وعاء المسواك اللطيف فكان على شكل ثور يعدو تحت أحماله. كان كل ذلك ملكًا لـ"تيتي".. يا لها من ثرية! "فلا بدَّ أن تحسن التصرف لتحوز رضاء تيتي"!

وفي وقت لاحق، عندما دخلتْ المصلَّى لتصلي بالمسبحة، كنتُ قد سبقتها بالفعل، أجرجر نفسي، وأخذت أئن، وأضرب على صدري، وأتوسل للمسيح الذهبي أن يغفر لي إساءتي إلى "تيتي".

وفي أحد الأيام وصلتُ أخيرًا إلى لشبونة، ومعي شهادة الليسانس في أنبوبة من الصفيح. فحصتها "تيتي" بإجلال، وقد اشتمت فيها رائحة الكنيسة بسبب الخطوط التي كُتبت باللاتينية، والشرائط الحمراء الأنيقة، والختم داخل الوعاء الخاص به. وقالت:

- هذا جيد، قد صرت أستاذًا الآن. كل ذلك بفضل ربنا عليك، اذهب، ولا تنسه.

هرعتُ إلى المصلى، وما زالت اللفافة في يدي، لأشكر السيد المسيح الذهبي على درجة الليسانس العظيمة.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كنتُ أقف أمام المرآة، أحلق لحيتي، التي كانت الآن مكتملة سوداء، دخل عليَّ الأب "كاسيميرو" الغرفة، مبتسمًا وهو يفرك يديه.

- يا لها من أخبار سارة أتيت بها إلينا، يا سيادة الأستاذ "تيوديريكو"!

وبعد أن دللني كعادته، بأن ربت على ظهري برفق، كشف لي مدير الأعمال المبارك أن "تيتي"، مسرورة مني، وقررت أن تشتري لي حصانًا حتى يتسنى لي التنزه في مناحي لشبونة للاستمتاع.

- حصان! حقًّا أيها الأب "كاسيميرو"! حصان!

- وإلى جانب ذلك، فهي لا تريد لابن أختها، الذي صار رجلًا مثقفًا، أن يتعرض لإحراج بسبب عدم وجود نقود معه عندما يذهب ليحتفل بالسيدة العذراء في "روزاريو"، ولذا فقد جعلت لك راتبًا شهريًّا مقداره ثلاث عملات ذهبية.

احتضنتُ الأب "كاسيميرو" بحرارة. وأردت أن أعرف ما إذا كانت نية "تيتي" الحانية هي ألا يكون لدي أي شيء آخر يشغلني، فضلًا عن ركوب الخيل في لشبونة ورمي النرد في احتفال السيدة العذراء.

- انظر، "تيوديريكو"، يبدو لي أن "تيتي" لا تريد أن يكون لديك أي مهمة أخرى سوى أن تخاف الله.. وما أود أن أخبرك به هو أنه سيكون لديك وقت جيد للاستمتاع.. والآن، اذهب إلى هناك لتشكرها، وقل لها أي شيء على سبيل التدليل.

في غرفة صغيرة، حيث تشرق الجدران بأعمال البطريرك التقي القديس يوسف، كانت "تيتي" جالسة في زاوية من الأريكة المبطنة بالقطن، وكانت تسبح وهي ترتدي شالًا من الحرير حول كتفيها.

- "تيتي"..

همستُ خجلًا.

- جئت إلى هنا لأشكرك..

- حسنًا، صاحبك الرب.

ثم قبَّلت طرف شالها بإخلاص. أعجبها ذلك. وذهبت في صحبة الرب. ومنذ ذلك الحين، بدأت أستمتع بحياتي كابن أخت للسيدة "باتروسينيو داس نيفيس". في الساعة الثامنة، كنت أرتدي الملابس السوداء وأذهب مع "تيتي" إلى كنيسة "سانتانا" للاستماع إلى قداس الأب "بينيرو". وبعد الغداء، بعد طلب الإذن من "تيتي"، وبعد صلاة "تبارك الرب" ثلاث مرات في المصلى ضد الإغراءات، كنت أمتطي جوادي مرتديًا سروالًا خفيفًا. ودائمًا ما كانت "تيتي" تكلِّفني ببعض المهام الخيرية: كأن أذهب إلى القديس "دومينيك"، وأصلي صلاة من أجل شهداء اليابان القديسين الثلاثة، أو أن أدخل الكنيسة القديمة، وأن أواسي قلب يسوع الأقدس. وكنت خائفًا جدًّا من غضبها حتى إنني لم أتقاعس يومًا عن هذه الرسائل العطوفة التي ترسلها إلى بيت الرب. ولكنها كانت اللحظة الكئيبة من اليوم بالنسبة لي؛ ففي بعض الأحيان، عند مغادرة بوابة الكنيسة متخفيًا، كنتُ أقابل بعض زملائي من الطلاب الجمهوريين، الذين رافقوني في "كويمبرا"، في وقت العصر في الموكب لنسخر من رجل يرتدي قبعة لها شوشة خضراء.

- هذا أنت يا "ثعلب"!

وكنت أنكرهم، وأنا أشعر بالضيق:

- يا للعجب! لم يكن ينقص شيء آخر! انظر من يكرِّس نفسه للخدمة هنا... ماذا!

- جئتُ هنا بسبب فتاة... وداعًا، لدي فرس في انتظاري.

كنت أمتطي مرتديًا قفازًا أسود، وساقي مثبتة على السرج، وزر صغير من الكاميليا على صدري، وكنت أسير على مهل مختالًا حتى سهل "لوريتو" عند "قوس العلم"، وكنت أستمتع صباحًا في صالة بليارد "مونتانا".

وقبل العشاء، أرتدي القبقاب وأذهب للمصلى مع "تيتي"، كنتُ أصلي صلاة الساعة التاسعة للقديس يوسف، مساعد يسوع، وحارس مريم والبطريرك الأكثر حبًا. وعلى مائدة الطعام المزينة فقط بأطباق شراب حول طبق من الشعرية كنت أخبر "تيتي" عن جولاتي مستمتعًا بين الكنائس وأي المذابح كانت مضاءة اليوم. وأراها تستمع باهتمام، وهي في مكانها الذي اعتادت عليه بين النافذتين، حيث تعلوها صورة لقداسة البابا بيوس التاسع تملأ الحائط الأخضر، وتحتها، يتدلى المنظار القديم، باقيًا من متعلقات القائد "جودينيو". وبعد تناول القهوة، كانت "تيتي" تشبك ذراعيها ببطء. وتخفي وجهها الناعس الثقيل في ظل منديلها الأرجواني. وذهبتُ لألبس حذائي؛ فقد سمحت لي بالخروج للتنزه حتى التاسعة والنصف، ركضتُ حتى نهاية شارع "مادالينا"، عند طرف ميدان الشهداء، وجلستُ منطويًا متحفظًا، واتكأت على الحائط، كما لو كان المصباح المضيء هناك هو عين تيتي التي تنظر إليَّ بلا هوادة، وحدقتُ بشراهة في السلم المؤدي إلى بيت "أديليا".. نعم، بيت "أديليا"، لأنني لم أنسَ قط، منذ أخذني "رينشاو" إلى "ساليترى". القبلة التي أعطتني إياها، صافية وشاعرية، على الأريكة. في "كويمبرا" حاولت أن أكتب لها شعرًا. وكان حبها يملأ قلبي حينئذٍ، وكنت في السنة الأخيرة للجامعة، وكنا ندرس فيها القانون الكنسي. كانت كزنبقة رائعة. لم ترها عين قط. ملأت حياتي عطرًا. وما إن فرضت لي "تيتي" راتبًا شهريًّا حتى انطلقتُ وأنا أشعر بالانتصار إلى "ساليترى". كانت الزهور ما زالت هناك على النافذة، لكن "أديليا" لم تعد هناك. ساعدني "رينشاو" بأن اصطحبني حتى الطابق الأول بالقرب من

ميدان الشهداء، حيث تعيش الآن تحت رعاية "إلوتيريو سيرا". صاحب شركة "سيرا بريتو وشركاه"، ولهم محل يبيع الأقمشة والملابس في "كونسيساو" القديمة. بعثت لها برسالة ملتهبة وجادة؛ حيث بدأتها بالاحترام قائلًا:

- سيدتي!

فأجابتني بكرامة:

- يمكن للفارس أن يأتي هنا عند الظهر.

أخذتُ لها علبة من رقائق الشيكولاتة، مربوطة بشريط من الحرير الأزرق. وأحسستُ وأنا أتقدم على سجاد الصالة الجديدة باختلاج مشاعري. إن البياض اللامع لستائر الشبابيك ينبئ عن طراوة تنورتها، والخطوط المستقيمة لأثاث بيتها تنبئ عن استقامة مشاعرها. دخلتُ، وقد بدت عليها بوادر البرد. كانت ترتدي شالًا أحمر على كتفيها. وتذكرتني كصديق "رينشاو". تحدثت عن "إرنستينا"، بعنف، واصفة إيَّاها بـ"القذرة". وصوتها يتهدج، وأنفها يرشح، ما ولَّد عندي رغبة في أن أواسيها بين ذراعي، في يوم طويل من الدفء والنعاس، تحت الغطاء، في الشفق الناعم الذي يسود غرفتها. ثم أرادت أن تعرف إذا كنتُ موظفًا أو أعملُ بالتجارة.. فأخبرتها بكل فخر بثروة "تيتي"، وأملاكها، وأموالها. قلتُ لها، وأصابعها الغضة تتشابك بأصابعي:

- إذا ماتت "تيتي" الآن فسأعطي فتاتي منزلًا جميلًا.

همست وهي تغمرني كلي بنظرات عذبة من عينها السوداء:

- يا رجل! إذا حصلتَ على النقود فلن تهتم بي بعد ذلك!

نزلتُ بركبتي على الأرض، متذبذبًا، وسندت صدري على ركبتيها، فصرتُ كمن يمشي على أربع. فتحت شالها. وأحاطتني بحنانها. وساعتها، عندما حل المساء، بينما "إلوتيريو" يلعب القمار في نادي شارع "كارمو" الجديد، كنتُ

أحتفل مع "أديليا" في غرفتها حفلة العمر الملتهبة. وقدمتُ لها زوجًا من الأحذية كانت المفضلة إلى قلبها. وعند التاسعة والنصف، لفَّت نفسها في عجالة في روب وكانت شعثاء، حافية القدمين، ورافقتني للسلم الخلفي، وكانت تطبع على شفتيَّ في كل درجة من درجات السلم قبلة بطيئة مفعمة بالأشواق.

- وداعًا، "أديليا".

- انتبه لحالك يا صغيري!

وسرتُ أعبر ساحة سانتانا ببطء وأنا أجترّ متعتي. ومر الصيف، بهدوء. وحملت رياح الخريف الأولى طيور السنونو وأوراق الشجر من ساحة "سانتانا". وفي أكتوبر التالي، فجأة، أصبحت حياتي أسهل وأكثر رغدًا. كانت "تيتي" قد أمرتهم بصنع معطف لي وارتديته أول مرة بإذنها، عندما ذهبتُ للاستماع إلى القديس "كارلوس بوليوتو".. في أوبرا أوصى بها الدكتور "مارجريد"، قائلًا عنها: "إنها مفعمة بالمشاعر الدينية ومليئة بالدروس الراقية". ذهبتُ معه، بالقفازات البيضاء، والثياب المطرزة. ثم، في اليوم التالي، ساعة الغداء، أخبرتُ "تيتي" بالتفاصيل المحببة إليها، والمشاهير الذين أطيح بهم، والأغاني، والسيدات الثريات في البلكونات، والفساتين المخملية الجميلة للملكة.

- أتعرفين يا "تيتي" من جاء ليحادثني؟ بارون "ألكونشيل"، ذلك الرجل الغني، عم ذلك الصبي الذي كان زميلي. جاء ليشد على يدي. وقضى معي برهة من الوقت في الصالون. كان يعاملني باحترام كبير.

أحبت "تيتي" هذا الاحترام. ثم، أبديت أسفي، كرجل أخلاق جريح، واشتكيت من فستان عار لسيدة مغرورة تظهر صدرها وذراعيها. تُظهر كل هذا اللحم الفتَّان دون وازع من دين، إن هذا لبعدٌ عن الاستقامة، وإثارةٌ لغضب الكنيسة.

- يا إلهي، يا له من عار! صدقيني، كنت مشمئزًا!

وأعجبتْ "تيتي" بهذا الاشمئزاز.

وبعد بضعة أيام، وبعد تناولنا القهوة، ذهبتُ إلى المصلَّى وكنت لا أزال مرتديًا القبقاب، لأطلب من المسيح الذهبي الجريح طلبًا صغيرًا، فقالت "تيتي" بنعومة، وكانت ذراعاها مطويتين، والوشاح يظل وجهها:

- لا بأس إذا كنت تريد أن تتجول اليوم في "سان كارلوس"، وهناك عندما يروق لك الاستمتاع بشيء من الموسيقى فافعل. قد أذنتُ لك. الآن بعد أن صرت رجلًا، وتريد حرية أكثر. لا يهمني إذا كنت تود البقاء حتى الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف. على أية حال، أريد في هذا الوقت أن تكون أبواب البيت قد أغلقت بالفعل، وكل شيء جاهز لبدء صلاة التسابيح.

لم ترَ عينيَّ اللامعتين بزهو الانتصار. وهمستُ متذمرًا، وأنا فخور بإيماني وحبي للتقوى:

- هناك مسبحتي، "تيتي"، هناك مسبحتي الغالية. ما كنت لأستبدلها ولا بأعظم أوقات المرح. ولا حتى بدعوة لتناول الشاي مع الملك في القصر!

وركضتُ، وأنا أهذي، ولبست معطفي. وكانت هذه بداية الحرية التي طالما اشتقتُ إليها، وتقتُ إلى أن أخوض غمارها. انحنيتُ أمام "تيتي". وقلبي يذوب أمام تمثال المسيح، مُرحبًا بالحرية، فعندما يسافر "إلوتيريو سيرا" إلى باريس، لشراء بضاعته، سيترك "أديليا" وحيدة، حرة، جميلة. أكثر مرحًا، وأكثر إثارة!

نعم، بالتأكيد، لقد اكتسبتُ ثقة الخالة بالالتزام بالمواعيد، والطاعة، والهدوء والتقوى! لكن ما دفعها إلى تمديد ساعات الاستجمام المستقيمة بسخاء هكذا، كان (كما أخبرني سرًا الأب "كاسيميرو") هو اليقين بأنني "تصرفتُ وفق تعاليم الدين، ولا ألهث وراء التنورات".

لأنه بالنسبة للخالة "باتروسينيو"، فإن جميع التصرفات البشرية التي تتم خارج بوابات الكنيسة ما هي إلا جري وراء سراويل أو لهث وراء التنانير. وكانت هذه الغرائز الطبيعية الحلوة بغيضة إليها على حد سواء. فسواء في شبابها أو نضجها أو عندما ذبلت مثل عود القش لم يسبق لها أن مس جلدها الشاحب سوى شوارب القائد "جودينيو"، الأبوية الرمادية؛ تتلو باستمرار أمام المسيح العاري الصلوات على وقتها، ترنو إلى الحب الإلهي. وتسلل إليها شيئًا فشيئًا حقد وغيرة مريرة من جميع أشكال وكل نعم الحب الإنساني. ولم تكتفِ بذم الحب كشيء دنيوي؛ لكن السيدة "باتروسينيو داس نيفيس" كانت تستقبحه، وتصفه بأنه شيء قذر. ولو حبَّ شابُ يافع حبًا جادًا لأسمته "حماقة"! وعندما تعرف بأمر سيدة لها ابن يسعل أو يرشح، تقول: "ما أقذره". كانت تظن أن الطبيعة أخطأت بشدة لأنها خلقت جنسين. ورغم ثرائها وحبها للترف فإنها لم تستأجر خادمًا يومًا. "حتى لا تحتك في المطبخ والممرات التنانير مع السراويل". وعلى الرغم من أن الشيب قد دب في شعر "فيسنسيا"، تلك الطباخة الكهلة التي تتلعثم كثيرًا، وبرغم سقوط أسنان الخادمة الأخرى وتدعى "إوسيبيا"، فإنها تقلب باستمرار في صناديقهما، وحتى في قش المراتب بحثًا عن صورة رجل أو خطاب من رجل، أو أثر رجل، أو حتى رائحة رجل.

إن جميع أنواع التسلية للفتيات: كنزهة لطيفة مع السيدات على الحمير، أو وردة ندية تمسك بها بين أطراف أصابعها، أو رقصة مشتركة في يوم عيد الفصح العظيم، أو أي نوع من أنواع البهجة الأخرى حتى ولو كانت أكثر براءة كانت بالنسبة لـ"تيتي" مجرد فسق، ومليئة بالأوساخ، ومضيعة للوقت. ولم يجرؤ أصدقاء البيت المطيعون على ذكر القصص المؤثرة التي يقرؤونها في الجرائد، وتظهر فيها لواعج الحب؛ لأن ذلك كان يجرحها وكأنك تكشفُ عن عوراتها.

لقد صرخت يومًا غاضبة من ذلك الكنسي التعيس: الأب "بينيرو" والشرر يتطاير من عينيها، لما سمعته يخبرها عن خادمة ألقت ابنها في المراحيض في فرنسا، قائلة: "أب "بينيرو"! احترم وجودي من فضلك! فقذارة الزنا أبشع من قذارة المراحيض!".

لكنها بنفسها كانت تذكِّرنا دائمًا بحماقات وخطايا الجسد، وتنتقدها وتظهر كرهها لها. ثم رمت كرة الخيط على المنضدة، ورشقت الإبرة بغضب في وسطها كما لو كانت تطعن بهذه الحركة قلوب أولئك الرجال التي لا تكل ولا تمل لتجعلها تموت إلى الأبد.

وكل يوم تقريبًا، وهي تجز على أسنانها، تكرر أنه إذا كان هناك شخص من أهلها، يأكل من خيرها، ويسير وراء النساء، أو يترك نفسه للرذيلة فإن مصيره الشارع، يُلقى مع القاذورات كالكلاب. لذا كان شغلي الشاغل من الآن أن أحتاط حتى لا تبقى في ملابسي أو على بشرتي رائحة "أديليا" اللذيذة، فكنت أضع في معطفي قطعًا من البخور الصغيرة. وقبل أن أتسلق درج سلم المنزل الكئيب، كنت أتسلل بمهارة إلى المستودع المهجور في نهاية الفناء، أحرق على الجزء العلوي من برميل فارغ قطعة من البخور المبارك؛ وأمكث برهة هناك أعرّض معطفي ولحيتي لرائحته، ثم أصعد. وكان من دواعي سروري رؤية "تيتي" بعدها تشمشم، وتقول في رضاء:

- يا إلهي، يا لها من رائحة كنسية جميلة!

فأهمس متواضعًا:

- إنها رائحتي، "تيتي".

وبالإضافة إلى ذلك، وكي أصل إلى إقناع أفضل "لعدم اكتراثي بالنساء"، ألقيتُ يومًا في مدخل الممر خطابًا مختومًا كما لو كان مفقودًا، وكلي ثقة بأن

الخالة "باتروسينيو" "المتدينة" ستفتحه بنهم شديد. وفتحته، وأعجبها. فقد كتبته بأسلوب نبيل لطالب زميلي من "أرايولوس" أحثه فيه على حسن الخلق، وجاء فيه: "أعلم أنني خاصمت "سيمويس"، طالب الفلسفة، لأنه دعاني للذهاب معه إلى بيت غير شريف. وأنا لا أسمح بهذه الجرائم. أتذكر كذلك عندما كنا في "كويمبرا" وكنتُ أبغض مثل هذه الترهات. ويبدو لي أن من يمارسها يكون كالنقانق على النار، ويوشك أن يقع في المهالك وفي جحيم الشيطان، حفظك الله! والآن، فلن يقع صديقك في واحدة من هذه الترهات. إمضاء: الثعلب".

قرأت "تيتي"، وأعجبها ذلك. والآن أود أن أضع معطفي، وأخبرها بأنني سأستمع إلى عظة، أقبل أصابعها النحيلة بلطف. وأركض إلى ميدان الشهداء، إلى غرفة "أديليا"، لأغرق في سعادة الخطيئة الأبدية. هناك، في ضوء مصباح الصالة الخافت الذي كان يتسلل عبر الباب الزجاجي، كانت ستائر الكتّان الخفيفة والتنانير المعلقة تبدو كأنها سحاب أبيض في السماء؛ وفاقت رائحة بودرة الأرز - التي تستخدمها في الزينة - حلاوة ورائحة نرجس الصوفية؛ كنتُ في الجنة، وكأني القديس "تيوديريكو". وعلى أكتاف حبيبتي العارية تدلت خصل شعرها الأسود، قوية ومتينة كذيل فرس في الحروب. وفي إحدى تلك الليالي، وكنت خارجًا من محل حلويات "روسيو"، وكنتُ أشتري علبة من حلوى البيض لأحملها إلى حبيبتي "أديليا"، التقيت بالسيد "مارجريد"، وبعد عناقه الأبوي، قال لي إنه ذاهب إلى سان كارلوس ليرى "النبي".

- وأنت، أراك تلبس معطفك، بالطبع ستأتي معنا.

وتقطعت بي السبل. فقد كنتُ أرتدي معطفي بالفعل، وكنت قد أخبرت "تيتي" بأني ذاهب لأستمتع بأوبرا "النبي" التي تدعو للفضيلة كأي معزوفة مقدسة للكنيسة.. والآن كان عليَّ أن أعاني مع "النبي" وأنا أجلس على كرسي خشن وتلامس كتفي كتف عالم كهنوتي بدلًا من التمتع على مرتبة المحبة، وأنا

أشاهد معبودتي في قميص نومها تأكل حلوى البيض التي أحضرتها. وغمغمت وأنا مهزوم:

- نعم، بالطبع، كنتُ في طريقي إلى أوبرا "النبي"، يقولون إنه عمل موسيقي رائع.. وسوف يروق "تيتي" حقًّا أن أذهب.

وصعدتُ حزينًا شارع "ألكرمو" الجديد إلى جوار الأستاذ "مارجريد" وبيدي علبة حلوى البيض التى صارت بلا فائدة. واتخذنا مقاعدنا، وفي البهو المضيء ذي الحوائط البيضاء المذهبة، أخذت أفكر وأنا مشتاق لغرفة "أديليا" خافتة الأضواء، وفي تنانيرها المتناثرة، وإذا بسيدة ناضجة شقراء ترتدي فستانًا خريفيًّا من الحرير بلون القش من قاعة مجاورة تنظر إليَّ عند كل عزف شجي للجيتار بعينين ملونتين ساحرتين. سألت على الفور الأستاذ "مارجريد" إن كان يعرف تلك السيدة: "لأني اعتدتُ رؤيتها أيام الجمع في كنيسة النعمة، تزور رب الخطوات وكلها إيمان وحماس".

- إن الرجل الذي يجلس خلفنا هو نائب الكونت، واسمه "سوتو سانتوس"، وهي إمَّا زوجته، "فيسكونديسا دي سوتو سانتوس"، أو أخت زوجته "فيسكونديسا دي فيلار- أوفيليو...".

وعند خروجنا، رأينا السيدة نفسها تنتظر عربتها عند البوابة، ملفوفة في عباءة بيضاء يزينها برواز أنيق من الريش. بدت رأسها لي أكثر لطفًا، وهي لا تقدر على الدوران، خاملة وشاحبة، على وسادة الحب. وذيل فستانها بلون القش كان يتحرك على الأرض، كان رائعًا. كانت زوجة نائب الكونت بحق. ومرة أخرى، راحت تسترق النظر إلي بعينها الملونة الخطيرة. وكانت الليلة مليئة بالنجوم. وأخذتُ أفكر وأنا أسير هبوطًا بجانب الأستاذ "مارجريد" أنه عندما تؤول كل ثروة "تيتي" إليَّ، وأصيرُ شهيرًا فإنه يمكنني حينها أن أتعرف على زوجة نائب الكونت أو أختها، ولن يكون ذلك وهي ترتدي فستانها ولكن في

حجرة نومي مستلقاة على مفرش أبيض كبير بعد أن تخلع عنها الحرير الذي بلون القش، تتلألأ فقط ببريق جسدها العارِ، وتلوذ بأحضاني.. يا لها من لحظة جميلة ليست ككل الأوقات تلك التي ستموت فيها "تيتي"!

- هل تريد أن تصحبني لتناول كوب من الشاي في مقهى "مارتينو"؟

سألني الأستاذ "مارجريد" عندما وصلنا إلى ميدان "روسيو"؟

- هل جربت خبز "مارتينو" المحمص بالزبد من قبل.. إنه أفضل خبز محمص في لشبونة.

في "مارتينو"، كان الجو قد صار هادئًا. كانت مصابيح الغاز ناعسة بين المرايا الباهتة، وكان هناك شاب حزين على طاولة خلفية، وقد أسند رأسه على قبضتي يده، وأمامه شرابه. طلب "مارجريد" الشاي، ولما رآني أنظر إلى عقارب الساعة بقلق أخبرني أنني سأصل إلى المنزل قبل وقت تناول الشاي المقدس مع "تيتي"؛ فقلت له:

- إن "تيتي" لا تكترث إذا رجعتُ متأخرًا، فهي الآن، والحمد لله، تثق بي أكثر من ذي قبل.

- وأنت تستحق ذلك. انزل على إرادتها، وكن مطيعًا، تكسب صداقتها شيئًا فشيئًا، كما أخبرني "كاسيميرو".

ثم تذكرتُ المودة القديمة التي ربطت الأستاذ "مارجريد" بالأب "كاسيميرو"، وكيل أعمال الخالة "باتروسينيو" وأمين سرها الغيور. واغتنمتُ هذه الفرصة، فتنهدتُ قليلًا ثم فتحتُ قلبي للقاضي، وفضفضتُ معه كما لو كان قسًا للاعتراف.

- هذا صحيح، لقد اتخذت مني "تيتي" صديقًا.. لكن تخيل معاليك يا دكتور "مارجريد"، أن مستقبلي يقلقني أحيانًا. أتعرف، لقد فكرتُ في الذهاب

إلى مسابقة لتعيين الملحقين. حتى إنني سألتُ عما إذا كان من الصعب التعيين كمخلص جمركي. لأن "تيتي" غنية، غنية جدًّا. وأنا ابن أختها، والوريث الوحيد، لكن...

ونظرت بفارغ الصبر إلى دكتور "مارجريد"، الذي ربما عرف شيئًا من وصية "تيتي" عن طريق الأب "كاسيميرو".. وبدا الصمت الذي خيَّم عليه، ويداه مطويتان على الطاولة، خطيرًا ولا ينبئ بخير. وفي تلك اللحظة أحضر الخادم صينية الشاي، مبتسمًا، وهنَّأ القاضي لرؤيته قد شفي من البرد.

- خبز محمص لذيذ!

همس الدكتور.

- خبز ممتاز!

تنهدت بأدب.

من وقت لآخر كان الدكتور "مارجريد" يهرش خده. ثم مسح وجهه وأصابعه. وبدأ يمضغ ببطء، بلطف، وتواضع. وجازفتُ بكلمة خجولة أخرى:

- هل صحيح أن "تيتي" تعتبرني صديقًا...

- نعم تعدُّك صديقها.

تحدث القاضي وفمه مملوء.

- وأنت قريبها الوحيد.. ولكن الأمر غير ذلك، "تيوديريكو"؛ فلديك منافس آخر.

- إذًا أحطمه!

صرختُ بشكل عفوي، والشرر يتطاير من عينيَّ، وخبطتُ بيدي على رخام الطاولة. رفع الصبي الحزين في الخلفية وجهه عن الشراب الذي أمامه. وانتقد الدكتور "مارجريد" موقفي العنيف بشدة:

- طريقة التعبير هذه لا تليق برجل نبيل، أو فتى ثري. على كل حال، لن تحطِّم أحدًا "تيوديريكو"، فمنافسك ليس إلا السيد يسوع المسيح!

ربنا يسوع المسيح؟ وأدركت فقط عندما أوضح الفقيه، بعدما هدأ بالفعل، وقال لي إن "تيتي"، حتى في السنة الأخيرة من دراستي، كانت تنوي أن تجعل ثروتها من أطيان وعقارات لجمعيات دينية تعطف عليها ولكهنة من ملتها. وهمستُ:

- إذًا فقد ضعتُ!

وقعت عيناي بالصدفة على الفتى الحزين الجالس على البعد. وبدا لي أنه يشبهني كما لو كان أخي، بل كان هو أنا، "تيوديريكو"، بعدما حُرمت من الميراث، بائس، بحذاء رث، وأنا آتي إلى هنا لأجتر آلامي طوال الليل، والشراب أمامي.

لكن الدكتور "مارجريد" أنهى الخبز المحمص بالسمن. ومدد ساقيّه بسلاسة، وأخذ يواسيني، بلطف وفطنة، والمسواك في فمه.

- لم يضِع كلُ شيء، "تيوديريكو". لا أظن أن كل شيء ضاع.. من الممكن أن تكون خالتك قد غيَّرت رأيها.. أنت فتى محترم، دللها، اقرأ لها الجريدة، صلِ على المسبحة معها. كل هذا سيؤثر عليها. ومن الضروري أن تعرف أن منافسك قوي!

تأوهت:

- شيء ممتاز!

- ليس فقط قويًا - يجب أن أضيف - بل ويستحق كل الاحترام. إن يسوع المسيح عانى من أجلنا، إنه دين الدولة، لا يوجد غيره من يمكن أن نحني رؤوسنا له. انظر، هل تريد رأيي؟ حسنًا، فهذا رأيي بصراحة ودون خجل، ليكون بمثابة دليل لك. سوف ترث كل شيء، إذا اقتنعت خالتك وسيدتي "باتروسينيو"، بأن ترك ثروتها لك مثل تركها إلى الكنيسة الأم المقدسة.

ودفع القاضي ثمن الشاي، بشهامة، ثم، في الشارع، التحف معطفه وقال لي بهدوء:

- بصراحة، ما رأيك بالخبز المحمص؟

- لا يوجد في لشبونة كلها أفضل منه، دكتور "مارجريد".

فسلَّم عليَّ بمودة، وافترقنا عند منتصف الليل كما أعلنتها ساعة "كارمو" القديمة. وسرتُ بخطى وئيدة في شارع "بالما" الجديد، شعرتُ حينها بمرارة شديدة، فقد تبيَّن لى بوضوح شديد خطأ حياتي؛ لأنه حتى ذلك الوقت، كان تديني الذي كنت أسعى به لإرضاء "تيتي" ونيل ثروتها عاديًّا، ولم يكن مغالى فيه قط. ماذا يهم "تيتي" في أن أتمتم بالأذكار على المسبحة في حضور عذراء "روزاريو"؟ أو أمام العذراء في كل تجلياتها، وكيف يؤثر ذلك فيها. ينبغي عليَّ أن أُظهر بذكاء روحًا تحترق في نيران الحب المباركة، وجسدًا هزيلًا، تائبًا، يئن من ارتداء الخيش الخشن. عندئذ يمكن أن تقتنع بي "تيتي" وتقول: "إنه مثالي. هذا هو من يستحق ثروتي"، بل وتتعجب يومًا وهي منتشية، ويداها مبسوطتان: "وقديس أيضًا!".

نعم! يجب أن أكون جزءًا من تلك الأشياء الكنسية، وأن أغمر نفسي فيها بحيث يصعب على "تيتي"، شيئًا فشيئًا، أن تميز بيني وبين تلك المجموعة الزنخة من الصلبان والتماثيل وكتب الأدعية التى يقرؤون منها الصلوات، وملابس القساوسة، والمشاعل، وقطع القماش التي بها صور القديسين، وجريد النخيل المزين بالورود، وسواري الأعلام، التي تمثل بالنسبة لها فحوى الدين والسبيل إلى الجنة. وأن آخذ صوتي من همس طلاسم القداس المبارك، وأن يبدو لها معطفي الأسود مغطًى بالنجوم، يضوي كستار من النعيم.. ساعتها من المؤكد أن توصي لي بثروتها، وهي واثقة أنها إنما توصي للمسيح ولكنيستها الأم العطوف!

أنا الآن كلي عزم وإصرار على عدم السماح للمسيح ابن مـريم، بـأن يسـتولي عـلى ثـروة القائـد "جودينيـو". ألم يكتـف الـرب بكنـوزه التـي لا تُعـد ولا تُـحصى! فهـذه كاتدرائيات رخامية ظليلة تطغى على الأرض وتضفي عليها طابع الحزن؛ وتلـك عقـود مسجلة وأوراق هبات يوقعها باستمرار المؤمنون الأتقياء باسمه.. وتلك لوحات ذهبية تضعها الدول عند رجليه تملؤها النقوش والإهداءات؛ وجواهر ثمينـة وأقـداح معدنيـة مقدسة وأزرار الماس التي يرتديها على قميصـه في كنيسـة النعمـة؟ ومـا زال بعـد كـل ذلك ينظر من عليائه بعيون شرهة لإبريـق الشـاي الـفضي، وحفنـة مـن العقـارات في "بايشا"، فليكن! لنتنافس على تلك الممتلكات البائسة الزائلة يا يسوع يـا ابـن النجَّـار، ولتظهر لـ"تيتي" الطعنة التي نالت منك بعد ظهر أحد الأيام في مدينة بربرية في آسيا، وسوف أنافسك أنا، من أعبد هذا الجرح، وسط الكثير من الضوضاء والكثير من الأبهة، بحيث لا تميز "تيتي" بينك أنت يا من ضحيت بنفسك حتى نحب بعضنا أكثر وبينـي أنا، أو أفضل الموت لأني لم أعرف كيف أحبك بما يكفي!

هكذا فكرتُ، وناظري إلى السماء، أسيرُ في هدوء شارع "لازارو". عنـدما وصـلت إلى البيت، شعرتُ أن "تيتي" كانت في المصلى وحدها، تصلي. تسللت إلى غرفتي، يتملكني الخوف؛ خلعتُ حذائي ومعطفي، ونكشت شعري، وألقيـت بـنفسي عـلى ركبتـي عـلى الأرض، وذهبتُ على هذا النحـو، أزحـف في الممـر، أئـن، أنتحـب، وأضرب بيـدي عـلى صدري، أبتهل للمسيح، ربي.

وعندما سَمِعَتْ هذه الآهات الحزينة وهذه الابتهالات المكتومة في صـمت المنـزل، أطلت "تيتي" من باب المصلَّى منزعجة، وقالت:

- ما هذا يا "تيوديريكو"، ماذا دهاك يا بني؟

سقطتُ على الأرض باكيًا وأغمى عليَّ من فرط الحب الإلهي.

- عـذرًا، "تيتـي". كنـت في المسرح مـع الـدكتور "مارجريـد"، وشربنـا الشـاي معًـا، وتحدثنا عنك "تيتي". وفي طريق عودتي إلى البيـت، في شـارع النخيـل الجديـد، بـدأت أفكر في الموت، والخلاص لنفسي، وفي كل ما عاناه ربنـا مـن أجلنـا، وانتـابتني رغبـة في البكاء. على أية حال، "تيتـي"، مـن فضـلك، اسـمحي لي بالبقـاء هنـا قلـيلًا، وحـدي في المصلَّى، كي أستريح.

أشعلتْ بإجلال، صامتة ومنبهرة شموع المذبح واحدة تلـو الأخـرى، حتـى وصلـت عند صورة القديس يوسف، المقرب من نفسها، حتى يكون هو أول من يستقبل دفعة غير منتظمة من صلوات الاستغاثة الملتهبة التي تثقل قلبي المـليء بالأشـواق. سـمحت لي بالدخول، زاحفًا. ثم، انسحبت في صمت، وأغلقت الستار بحرص.

وبقيتُ هناك، جالسًا على مقعد "تيتي"، أفرك ركبتي، وأتنهد بصوت عـال، وأفكـر في زوجة "كونت سوتو سـانتوس" وأختهـا، وفي القـبلات الشرهـة التـي سـأطبعها عـلى هاتين الكتفين الممتلئتين أنوثة المثيرتين إذا ما تمكنتُ منها ولو لحظـة، حتـى لـو كانـت هنا، في المصلَّى، عند قدم يسوع الذهبية، عند مخلصي!

ثم صححت إيماني، وجعلته يصـل لحـد الكـمال؛ فسـمك الـبكلا الـذي نأكلـه أيـام الجمع لا تعتبر تضحية كافية في تلـك الأيـام أمـام "تيتـي"؛ فكنـت أشرب، عـلى سـبيل الزهد، كوبًا من الماء وآكل كسرة من الخبز. أمَّا سمك البكلا فأكله بالليل، مـع صلصـة البصل، مع شرائح اللحم على الطريقة الإنجليزية في منـزل حبيبتـي "أديليـا". ولم يكـن هناك في خزانة ملابسي، في هذا الشتاء القاسي، سوى معطف قديم، لكني كنت فخـورًا أن يكون عندي صديري أحمر كأخ في جمعية رب الصلوات، والـزي الرمـادي لجمعيـة سان فراسيسكو.

وعلى خزانة الأدراج كـان هنـاك مصباح دائـم البريـق، أمـام نقـش حجـري ملـون بصورة العـذراء ربـة الحمايـة "باتروسـينيو"؛ وكنـت أضـع الـورود في كـوب كـل يـوم، حتــى أعطِّــر الجــو مــن حولهــا. كانــت "تيتــي" تفــتِّش أدراجــي، وكانــت تطيــل

النظر في صورة شفيعتها التي سُميت على اسمها، وتذهب دون أن تعرف هل الوردة التي أضعها وهذا القنديل الذي أوقده كانا للقديسة أم بطريقة غير مباشرة لها هي.

وعلقتُ على الجدران صور القديسين الأكثر تميزًا كمعرض لصور أجدادنا الروحيين، الذين أحذوا حذوهم دائمًا في تطبيق الفضائل الصعبة. ولم يبقَ هناك قديس في السماء، مهما كان مغمورًا، لم أقدم له باقة عطرة من الزهور مع الصلوات. وكنت أنا الذي عرفت "تيتي" بالقديس "تليسفرو"، والقديسة "سكونديا" والقديس "أنطونيو أسترونكونيو" المبارك، والقديسة "ريستيتوتا"، والقديسة "أومبلينا" زميلة القديس "برنارد"، والحبيبة اللطيفة النبيلة القديسة "بازيليكا" التي نحتفل بها مع القديس "هيباثيو" في يوم حافل من شهر أغسطس عندما يتم شحن الشموع إلى مدينة "الطلايا".

كان نشاطي الديني مثيرًا للعجب! كنت أذهب للصلوات الصباحية والمسائية. لم تفتني قط صلاة في كنيسة صغيرة كانت أو كبيرة، حيث يُعبد قلب يسوع الأقدس. في جميع معارض القربان المقدس كنتُ هناك. كنتُ أشارك علنًا في ترميم كل الأماكن المقدسة. أمَّا المرات التي صليت فيها صلاة الساعة التاسعة على المسبحة فهي تضارع نجوم السماء عددًا. أمَّا أسبوع الآلام فكان من المناسبات المفضلة لديَّ.

كانت هناك أيام ألهث فيها في الشوارع دون راحة، كنت أذهب لحضور صلاة السابعة صباحًا في "سانتانا"، وإلى قداس التاسعة في كنيسة "القديس يوسف"، وقداس الظهر في كنيسة "أوليفيرنيا" الصغيرة. كنتُ أستريحُ لحظات على ناصية الطريق، وكتيب الصلوات تحت إبطي، أدخن سيجارة في عجلة من أمري. ثم أطير إلى القربان المقدس في أبرشية "سانتا أنجراسيا"، أو إلى صلاة

التسـابيح في ديـر "سـانتا جوانـا"، أو نعمـة السر في مقصـورة العـذراء، أو صـلوات الاستغاثة، أو صلاة التساعيات لجراح المسيح في كنيسته مع عزف الموسيقى.

ثـم أركـب الحنطـور المتواضـع كي أزور، عشـوائيًّا وبسرعـة، الشـهداء، والقـديس "دومينجـو"، وكنيسـة "ديـر المواسـاة"، ثـم كنيسـة راهبـات الزيـارة، أو كنيسـة "مونتسـيرات"، وإلى صـلوات المحبـة، وتمجيـد قـبر النعمـة، في كنـائس "الفلامـنج" و"ألبرتاس" و"الريشة"، و"أراتو" والكاتدرائية.. وفي الليل، كنت أصل إلى منـزل "أديليـا" منهكًا، متعبًا وملقى في ركن الأريكة، وهي تهزني من كتفي وتصرخ بغضب:

- أفق يا أبله!

ويل لي! جاء اليوم الذي تناديني فيه "أديليا" بالأبله، وكنت حينها ألهـث في خدمـة الرب ولم أقوَ على أن أساعدها أن تفك سترتها، كان ذلك يهون طالما كنت ألتهم ظهرها بشفتي النهمتين، لكنها عشية أعياد القديس "أنطونيو" السعيدة عند أول ظهور لأعواد الريحان نادتني يا "قرادة" ودفعتني بعيدًا عنها، وكنت في الشهر الخامس من التزامـي الديني.

بدأت "أديليا" تظهر شاردة الذهن، وفي بعض الأحيان، عندما أتحدث إليها، لم تكن تجيب إلا إجابة واحدة هي: "نعم" وكانت نظراتها شاردة ومهـزوزة، وكـان ذلـك يـؤلم قلبي. ثم جاء اليوم الذي توقفت فيه عن إعطائي أفضل دعابة أحبهـا، وهـي أن تقبـل أذني بحنان وعمق.

صحيح أنها كانت لا تزال حانية. كانت تطوي معطفي كما تفعل أم مع ولدها. وما زالت تناديني باللذيذ، وما زالت ترافقني على السلم بقميص نومها، وكانت عند انتهاء الحضن الدافئ تتنهد تنهدًا بطيئًا كان بالنسبة لي أبلغُ دليـل عـلى شـغفها بي؛ لكنهـا لم تعد تقبلني في أذني.

وعندما دخلتُ عليها مشتاقًا وجدتها ترتدي ملابسها، وتمشط شعرها، ناعمة، ترتعش وحول عينيها دوائر سوداء. مدت لي يدها بجفاء وهي تتثاءب وتمسك الكمان بكسل، وبينما أنا أجلس في زاوية أدخن سيجارًا في صمت منتظرًا أن تفتح باب الحجرة الزجاجي الذي يرى السماء، كانت تلك "الأديليا" المنزوعة الإنسانية تتمدد على أريكتها، بعدما خلعت نعلها، وتقرض الأوتار وتتمتم بين آهات طويلة أغاني شوق غريبة.

في غمرة من العطف عليها، كنت سأركع على حافة صدرها عندما نطقت بالكلمة الصعبة، الكلمة الصادمة:

- ابقَ مكانك يا قرادة!

وكانت تضن عليَّ بحنانها دائمًا، وترفض قائلة: "لا أستطيع، عندي حموضة"، وتقول: "وداعًا، عندي ألم في الخاصرة".

وخرجت أتجه إلى ساحة "سانتانا" مسلوبًا، في شدة البؤس، أبكي في ظلام روحي على الأيام التي لا توصف عندما كانت تناديني بالأبله!

وفي ليلة من ليالي شهر يوليو، وكانت ليلة ناعمة مثل المخمل الأسود ومرصعة بالنجوم، وصلتُ مبكرًا إلى منزلها، فوجدتُ الباب مفتوحًا. وقد ملأ مصباح النفط المعلق في الصالون السلم بالضياء، ولمحتُ "أديليا" في تنورتها البيضاء، تتحدث إلى شاب ذي شارب أصفر، يرتدي عباءة طويلة على الطريقة الإسبانية. اندهشتْ لرؤيتي، وانقبض هو كذلك عندما رآني، ضخمًا ملتحيًا وعصاي في يدي. ثم قدمته لي "أديليا"، وهي تبتسم، دون اكتراث على أنه "ابن أختي أديلينو". وأنه ابن أختها "ريكاردينا" التي تعيش في "فيزو"، وشقيق "تيوديريكو" الصغير. خلعتُ قبعتي، وقبضت بيدي الكبيرة المخلصة الأصابع الهاربة للسيد "أديلينو":

- سعدتُ جدًّا بمعرفتك أيها الفارس. آمل أن تكون أمك بخير.

في تلك الليلة كانت "أديليا" متألقة، وعادت تناديني "يا أبله" مرة أخرى، وقبلت أذني من جديد. وكان هذا الأسبوع كله لذيذًا كما لو كنا عريسين، كان الصيف ملتهبًا؛ وكانت صلوات الساعة التاسعة في كنيسة سان "جواكيم" قد اقتربت.

غادرتُ المنزل في الساعة الهادئة التي كانت تروى فيها الشوارع، وكنتُ أسعد من تلك الطيور التي تغرد على أشجار ساحة "سانتانا". في الغرفة الصغيرة الساطعة، التي كانت كل مقاعدها مغطاة بالحرير الأبيض، رأيتُ "أديليا" في قميص نومها، ندية من أثر الاستحمام، تفوح منها رائحة ماء الكولونيا، والقرنفل الأحمر الجميل الذي بيدها؛ وبعد وقت الصباح الحار، لم يكن هناك شيء أكثر أفضل من غذائنا في المطبخ، تحت نسيم الهواء القادم من النافذة، ونحن نتأمل الأفنية الخضراء الصغيرة، والسراويل الرخيصة تجف على الحبال، وبينما نحن متعانقان في عصر يوم من هذه الأيام طلبت مني ثمانية جنيهات.

ثمانية جنيهات! وصرت أفكر وأنا أهبط طريق "مادالينا" ليلًا، فيمن يمكن أن يقرضني دون فوائد ولا تبكيت.

كان "كاسيميرو" الطيب في "توريس"، كما أن صديقي الغني "رينشاو" كان في باريس.. وفكرتُ بالفعل في الأب "بينيرو"، الذي كنتُ أواسيه دائمًا في آلام كليتيه عندما رأيته يزوغ منطويًا ومستترًا في أحد هذه الأزقة القذرة، حيث تسكن الغانيات.. إنه "جوزيه جوستينو"، إنه السكرتير الورع في جمعية إخوان القديس يوسف، إنه كاتب عدل "تيتي" الفاضل.

صرخت فيه: "مساء الخير، "جوستنينو"!" وعدت إلى ساحة "سانتانا"، هادئًا، أتخيَّل المتعة عندما تقبِّلُني "أديلينيا" في الحال وأنا أبتسم وأعطيها في يدها ثماني عملات ذهبية. وفي اليوم التالي، في وقت مبكر، ركضت إلى مكتب

"جوستينو"، في "ساو باولو"، وقصصت عليه قصة حزينة حدثت لواحد من زملائي الطلّاب، أصابه السل. ذلك البائس، الذي تكوَّم على منصة نقّالة إلى دار ضيافة نتنة عند ميدان الشهداء.

- إنها مصيبة يا "جوستينو"! لا يجد حتى مالًا للحساء. أنا يمكن أن أساعده؛ ولكن بماذا، بحق الجحيم، فأنا مفلس.. أنا أصحبه وأعمل كل ما أستطيع من أجله؛ أقرأ عليه الصلوات، وتمارين الحياة المسيحية. جئت الليلة الماضية من عنده هناك.. و... أصدقك القول يا "جوستينو"، لم أعد أرغب في أن أمشي في تلك الشوارع، في وقت متأخر جدًّا.. يا للهول! ما هذه الشوارع التي مُلئت بالفحشاء، والفجور كذلك! ناهيك عن مداخل السلالم، أتعرف؟بالأمس، أدركتُ أنك كنت تسير مرعوبًا. أنا أيضًا.. كنت هذا الصباح لحسن الحظ في مصلى "تيتي" للصلاة من أجل زملائي الطلّاب، وطلب المساعدة من الرب، وأن يعطيني بعض المال وأذهب، وكأنني على ما يبدو سمعت صوتًا من فوق الصليب يقول: "تفاهم مع "جوستينو"؛ تحدَّث مع "جوستينو" الصغير فسوف يعطيك ثمانية جنيهات للصبي.." وبقيتُ ممتنًا جدًّا لربنا! لذلك، فقد جئت إليك "جوستينو" بأمر منه، منه هو.

استمَعَ إليَّ "جوستينو"، ووجهه أبيض كأطواقه، وأخذ يقرقع أصابعه بأسف. ثم، امتدت يده، في صمت، بالعملات واحدة تلو الأخرى، وبهذا أكون قد وفيت إلى حبيبتي "أديليا".

وانطلقتُ ذاهبًا من فوري إلى جنتي.

وبعدها بأيام، كنت في حديقة "مونتانا"، أستمتع بشرب عصير الليمون،عندما جاء الخادم ليخبرني أن فتاة خمرية شابة، ترتدي شالًا، تنتظرني بالخارج، كانت السيدة "ماريانا".. يا الله القدوس! إن "ماريانا" هي خادمة "أديليا". وركضتُ أرتجف، فحبيبتي كانت تعاني ألمًا بغيضًا في خاصرتها

البيضاء. حتى إنني فكرت في قراءة تسابيح الظهورات الثمانية عشر لسيدتنا "لـوردس" عليهـا، التـي تعتبرهـا "تيتـي" الأكـثر فعاليـة في حـالات الألم الحـاد أو لتهدئـة الثـيران الجامحة.

- هل هناك أية أخبار، "ماريانا"؟

قادتني إلى فناء حيث شممت رائحة سيئة. وبعد ذلك، خلعت عنهـا شـالها فبـدت عيناها حمراوين، ولا يـزال صـوتها أجـش جـراء المشـاجرة مـع "أديليـا"، وقالـت إنهـا ستخبرني بأشياء محرجة، وبذيئة، وقذرة. "أديليـا" تخـدعني! لم يكـن السـيد "أديلينـو" ابن أختها. إنه عشيقها، وقوَّادها. كنت ريـثما أغـادر يـدخل هـو، وتتعلـق "أديليـا" في رقبته بشغف. ثم تصفني بالقرادة، والمتطرف، والتيس، ثم تبصق على صورتي.

كانت الجنيهات الثمانية إذًا من أجل أن يشتري "أديلينو" بدلة الصيف. وما يتبقى منها يكفي كي تذهب معه إلى مولد بلـدة "بـيلن"، في عربـة خيـل مكشـوفة، ومعهـما الجيتار. كانت "أديليـا" تعشـقه في هزلـه وفي غضـبه. تقلِّـم أظـافره، وكانـت تنهـداتها عندما يتأخر عنها تذكرنِّي بصوت الغزلان وسط الأحراش السـاخنة في شـهر مـايو! هـل أشك؟ هل أحتاج إلى دليل؟ فليكن ذلك في تلـك الليلـة، في وقـت متـأخر، بعـد سـاعة، سوف أطرق باب "أديليا"!

واتكـأتُ عـلى الحـائط غاضـبًا، لم أكـن أدري مـا إذا كانـت الرائحـة الكريهـة التـي خنقتني كانت من الزاوية المظلمة في الفناء، أم من قذارة الكلام الذي يخـرج مـن فـم "ماريانا"، كأنها من مجاري مكسورة.. جففت عرقي، وأنا أغمغم، وعلى وشك الإغماء:

- حسنًا "ماريانا"، شكرًا لك؛ سوف أرى، بارك الـلـه فيك.

وصلتُ إلى البيت يملؤني الحزن، وتعلو وجهي الكآبة ما حدا بـ"تيتـي" أن تسـألني، بابتسامة عمَّا إذا كنت قد "وقعت تحت الفرس".

- تحت الفرس؟ لا، "تيتي"، إنه الإيمان! كنت في كنيسة النعمة.

- ولماذا أتيت منزعجًا، ولا تقوى ساقاك على حملك.. ألم يكن الرب طيبًا معك اليوم؟

- آه، يا "تيتي"، بل كان هائلًا! لكني لا أعرف لماذا بدا لي حزينًا، حزينًا جدًّا.. حتى إنني قلت للأب "أوجينيو": "إن الرب اليوم يبدو غير راضٍ!" فردّ عليَّ: "ماذا تنتظر منه يا صديقي؟ بعدما رأى كل هذه النذالة". انظري "تيتي" لما يراه الرب منا، إنه يرى الكثير من الجحود، والكثير من الباطل، والكثير من الخيانة!

زمجرتُ غاضبًا؛ وقبضت يدي كما لو كنتُ سأنتقم بها من الغدر البشري المنتشر.. لكني تمالكتُ نفسي، وزررت سترتي الضيقة بهدوء، وتنهدت بعمق.

- هذا صحيح، يا "تيتي".. لقد تأثرتُ كثيرًا بحزن الرب لدرجة أنني خارت قواي قليلًا.. وقد شعرتُ باستياء كبير؛ فهناك طالب زميل، حالته سيئة جدًّا، وبائس، وطريح الفراش..

ومرة أخرى، فعلت كما فعلت مع "جوستينو" (مستغلًا حكاية "شافير" وشارع الإيمان).

- لقد وضعت طالبًا زميلًا لي ممددًا في سقيفة عفنة. بين القيء دمًا وبين قلة الطعام.. يا له من بائس، "تيتي"، وأي بؤس! لقد كان شابًا يافعًا، يحترم كل ما هو مقدَّس، وكان يكتب مقالات رائعة في جريدة الأمة!

إنها النقم، همست الخالة "باتروسينيو"، وهي تهز الإبر التي تصنع بها الجوارب اعتراضًا.

- صحيح، إنها النقم، "تيتي". بما أنه ليس لديه عائلة وأهل البيت مهملون، فقررنا نحن - زملاءه - أن نتبادل الخدمة له كالممرضين. وجاء دوري

اليوم. لذا أريد أن تسمحي لي "تيتي" بالبقاء خارج البيت قرب الثانية صباحًا.. ثم يأتي شاب آخر، عنده خبرة كبيرة، فهو نائب.

وسمحت الخالة "باتروسينيو"، بل إنها عرضت أن تطلب من بطريرك كنيسة القديس يوسف التحضير لوفاة مهيبة ومريحة لزميلي الطالب.

- هذا معروف منك كبير يا "تيتي"! إنه يُدعى "ماسيرا".

إنه "ماسيرا الأحول". كي يعرفه القديس يوسف.

وظللت طوال الليل هائمًا على وجهي في المدينة الهادئة تحت ضوء قمر شهر يوليو.. ترافقني في كل شارع من شوارعها صورتان شفَّافتان تهيمان: إحداهما في قميص نوم وأخرى بالعباءة الإسبانية، تتعانقان، وتقبِّلان بعضهما بعضًا بنهم، ثم يهزآن مني ويناديانِي "أيها المتطرف". وصلت ميدان "روسيو" عندما دقت الساعة على ساعة "كارمو". كنت أدخن سيجارًا، مترددًا، تحت الأشجار. ثم عدت إلى منزل "أديليا"، ببطء وخوف. وفي نافذة غرفتها رأيتُ ضوءًا ضعيفًا وناعسًا.

أمسكت بالمزلاج الثقيل كي أطرق الباب، ولكني ترددت مرعوبًا من أن يتأكد ما جئت لأتبينه، ويصير أكيدًا، وغير قابل للإصلاح.. يا إلهي! ربما تكون "ماريانا" بدافع الانتقام افترت على "أديليا"! أنها كانت تدعوني البارحة "لذيذ"، بحماس شديد! أليس من الحكمة بل والمنفعة أن أصدقها، وأن أسامحها في ذلة عابرة ارتكبتها مع "أديلينو"، وأن أستمر في تلقِّي قبلاتها بأنانية في أذني؟

ولكن مجرد التفكير في أنها تقبِّل أيضًا السيد "أديلينو" في أذنه وأنه كان يتأوه مثلما أفعل أنا، أهاج في رأسي رغبة جامحة في قتلها باللكمات وأنا أحتقرها، هنا،

على هذه السلالم التي طالما شهدت وداعنا العذب مرات ومرات. وطرقت على الباب بقبضة بغيضة كما لو كنت أضرب صدرها الهش ناكر الجميل.

سمعتُ أحدًا يغلق النافذة المفتوحة، وظهرت في قميصها، وشعرها الجميل منكوشًا:

- من هذا الفظ؟

- إنه أنا، افتحي.

عرفتني، واختفى الضوء في الداخل. ومع خفوت الضوء بالداخل خفتت روحي أيضًا، وبقيتْ في ظلام، باردة وخاوية إلى الأبد. وشعرت بالأسى والوحدة، أني صرت أرمل، دون عمل، ودون وطن. ورأيت من منتصف الشارع النوافذ المظلمة، وهمستُ: "آه، إني سأنفجر!".

وظهر قميص "أديليا" مرة أخرى على الشرفة.

- لا أستطيع أن أفتح؛ فقد تعشيت في وقت متأخر وأنا نعسانة!

- افتحي!

صرختُ، وأنا أرفع ذراعي بيأس.

- افتحي وإلا فلن أعود ثانية!

- إذًا، مع السلامة، وسلامي للخالة.

- ابقي هنا، يا حقيرة!

بعد أن قذفتها بالسباب بصرخات عنيفة، نزلت إلى الشارع بعنف شديد وتماسك شديد. لكني سقطتُ على ناصية الشارع من الألم، أمام بوابة منزل، أنتحب، وأبكي بجنون.

ومرت أيام الصيف الحزينة ثقيلة على قلبي. وبعد أن أخبرتُ "تيتي" أني سأكتب مقالين سوف أخصصهما "لتقويم بأعياد واحتفالات دينية مباركة"

لعام 1878، كنت أغلق على نفسي الغرفة كل صباح، في حين كانت شرفتي تسبح في أشعة الشمس الصيفية. وهناك، كنت أجرجر حذائي على الأرض الرطبة، وأجتر وسط تنهداتي ذكرياتي مع "أديليا"، أو أتأمل أمام المرآة الجزء الأملس من أذني الذي كانت تقبِّلني فيه، ثم أسمع صوت الشبَّاك الزجاجي وأذكر غدرها، وصراخها الفاحش وهي تقول "مع السلامة" ثم ألكم الوسادة، وأنا أعاني الضياع واليأس، لكمات لم أستطع أن أوجهها لصدر السيد "أديلينو" النحيف.

وعند العصر، عند هبوب النسائم، ذهبتُ لأتنزه عند السفح. لكن كل نافذة مفتوحة لنسيم العصر وكل ستارة مطوية كانت تذكرني بأوقاتنا الحميمة في غرفة نوم "أديليا". في زوج بسيط من الجوارب معروض في فاترينة أحد المتاجر، كنت أرى جمال ساقيها. كل ما هو مشرق كان يذكرني بنظراتها. وحتى أيس كريم الفراولة في محل "مارتينيو" كان يذكرني بحلاوة طعم قبلاتها على شفتي.

في المساء، وبعد الشاي، كنت ألجأ إلى المصلى، كحصن مقدَّس، وعيناي غارقتان في جسم يسوع الذهبي مسمَّر على صليبه الجميل من الخشب الأسود. ولكن ما يلبث توهج المعدن الثمين أن يتضاءل تدريجيًّا، ليأخذ لونًا أغمق كلون اللحم الدافئ النابض ونحول جسد المسيح الحزين الذي يبرز العظم منه، ويستدير في أشكال جميلة مليئة بالقدسية؛ من خلال تاج الشوك، كانت تتدحرج الحلقات الشفافة من الشعر المجعد الأسود. وعلى الصدر، عند الجرحين، كنت أرى ثديي امرأة رائعين منتصبين وثابتين، مع برعم وردة صغير عند طرفه. فيُخيل إليَّ أنها هي حبيبتي "أديليا"، وهي على الصليب، عارية، مختالة، مبتسمة، منتصرة، وهي تدنس المذبح، بذراعيها المفتوحتين لي!

لم أرَ في ذلك إغراء الشيطان. بل بدا لي ذلك كنعمة من الرب. حتى إنني بدأت أخلط شكاوى حبي مع نصوص صلواتي. ربما تكون السماء ممتنة؛

وربما يرغب هؤلاء القديسون - الذين لا يُحصون عددًا، والذين طالما أغدقت عليهم صلواتي وتسابيحي - في مكافأة لطفي معهم بأن يعوضوني عن تلك الدعابات التي سرقها مني ذلك الرجل ذو العباءة الإسبانية. وضعتُ زهورًا أكثر على خزانة الأدراج أمام القديسة "باتروسينيو"، وقصصت عليها آلام قلبي. ومن خلف الزجاج الشفَّاف لمقصورتها، وعينيها المسدلتين الحزينتين، كانت واثقة من عذاب جسدي. وفي كل ليلة، عندما أرتدي سروالي، قبل أن أذهب إلى السرير، كنت أبوح لها بسري بحرقة وألم.

- يا سيدتي العزيزة "باتروسينيو"، اجعلي "أديليا" تعجب بي مرة أخرى!

ثم استعملت طرُق "تيتي" مع القديسين من أصدقائها، أحب القديسين إليها القديس يوسف الغفور، والقديس لويس جونزاجا، الرحيم بالشباب. طلبت منهم التماسًا لحاجة معينة لي سرية وطاهرة تمامًا. وكانت تطل عليَّ من وراء ستارة المصلى فتراني أستمتع بالنظر إلى سيدة جامدة، وأنا راكع، والمسبحة في يدي أبتهل إلى القديسين المباركين كي تقبلني في أذني مرة أخرى.

وذات ليلة، ذهبتُ مبكرًا لأرى ما إذا كانت السماء قد استجابت لصلواتي القيمة أم لا. وصلت إلى باب "أديليا". وطرقته، وأنا أرتجف، طرقة ضعيفة، فأطل عليَّ السيد "أديلينو" من النافذة بدون سترة.

- إنه أنا سيد "أديلينو".

همست بسرعة وخلعت قبعتي، كنت أرغب في التحدث إلى "أديلينا".

نطق باسمي على مضض في داخل الحجرة، أظن أنه قال "المتطرف". ومن الأعماق، بين الستائر، حيث كنت أرى شعرها أشعث وجميلًا، صرخت "أديلينا" في غضب:

- ارمِ دلوًا من المياه القذرة على رأسه!

ولذت بالفرار.

في نهاية شهر سبتمبر، وصل "رينشاو" من باريس. وفي مساء يوم أحد عند عودتي من صلاة اليوم التاسع القديس "كايتانو"، دخلتُ مقهى "مارتينو" فوجدته محاطًا بالشباب، يقص عليهم بصوت عالٍ قصص الحب وجرأته اللطيفة في باريس. جذبت، حزينًا، كرسيًا وصرت أستمع إلى "رينشاو". وأدهش "رينشاو" الحضور بحدوة فرس من حجر الروبي في رابطة العنق، وعدسة نظر معلقة في شريط عريض، ووردة صفراء على صدره، عندما كان يرسم ملامح شخصيته المهيبة من بين سحب الدخان الصادر من سيجاره:

- ذات ليلة في كافيه "دى لابيه"، بينما كنت أتناول الطعام مع "كورا" و"فالتيس" ومعنا فتى أنيق جدًّا، أمير...

وما رآه "رينشاو"! وما تمتع به "رينشاو"! كانت تحبه كونتيسة إيطالية، منتشية من عائلة البابا، واسمها "بوبوت"، وحملته إلى الشانزليزيه في عربتها.

- كان نيشان عائلتها القديم عبارة عن مفتاحين متقاطعين. وكنا نتناول العشاء في مطاعم مضاءة بقناديل من الذهب، والخدم يقدمون لنا سجق مارسيليا ويناودوني باحترام "سيدي الكونت". أمَّا القصر، فيمتلئ بمصابيح الغاز بين الأشجار، و"باولينا" تغني بذراعين عاريتين.

- لقد تكشفت لي الحقيقة، وعظمة الحضارة.

- هل رأيت "فيكتور هوجو"؟

سأل شابًا يرتدي نظارة سوداء، وهو يقرض أظافره.

- لا، لم يكن يظهر مطلقًا في الأحياء الأنيقة!

وسيطرت على روحي دون توقف طوال هذا الأسبوع فكرة رؤية باريس الفاتنة المليئة بالوعود الناعمة. وكان آخر ما يشغلني هو هذه الشهوات الجسدية ومباهج الفخر التي ملأت "رينشاو".. كان يهمني فقط مغادرة

لشبونة، حيث الكنائس والمتاجر ونهرها الصافي وسماؤها الواضحة تذكرني فقط بـ"أديليا"، والرجل السخيف في عباءته الإسبانية، والقبلة في أذني التي سأفتقدها إلى الأبد.. آه! لو تفتح لي "تيتي" كيسها الحريري الأخضر، وتدعني أغوص في أعماقه بيدي، أجمع ما شئت من الذهب، وأذهب إلى باريس!

لكن بالنسبة للسيدة "باتروسينيو" كانت باريس مدينة مقززة، مليئة بالأكاذيب، كلها فواحش. حيث يعيش أناس بلا قديسين، أيديهم ملطخة بدماء رجال الدين، فهم على الدوام، سواء تحت ضوء الشمس أو في ضوء مصابيح الغاز، يرتكبون الآثام. كيف أجرؤ على إبداء رغبتي الآثمة لـ"تيتي" في زيارة هذا المكان القذر القابع في الظلام الأخلاقي؟

وفي يوم الأحد التالي، كنت أتناول طعام العشاء في ساحة "سانتانا" مع الأصدقاء المقربين، وجرى بيننا حديث، بينما كنا نتناول الطبيخ، عن عالم زميل للأب "كاسيميرو" والذي ترك مؤخرًا سكون زنزانته في دير "فاراتوجو" وانتقل للخدمة في حفل صاخب إلى كاتدرائية "لاميجو" الصاخبة. لم يتفهم "كاسيميرو" المتواضع هذا الطموح لنيل شرف كنسي، مرصع بأحجار رثة. وبالنسبة له، كانت الحياة الكنسية الكاملة هي أن تبلغ الستينيات، وأنت بكامل صحتك وتعيش هادئًا، ودون حنين ولا خوف، وأن تأكل أرز الفرن الذي تطهوه السيدة "باتروسينيو داس نيفيس".

- لأني، اسمحوا لي أن أقول لكم، يا سيدتي المحترمة، إن الأرز الذي آكله هنا هو تحفة.. ويبدو لي أن وجود مثل هذا الأرز في حياتي ووجود أصدقاء يقدرونه هو أكبر طموح وأفضل شيء لأرواح الصالحين.

وهكذا، إذا جئنا للحديث عن الطموحات الصحيحة التي، دون أن نغضب الرب، يمكن أن تمس شغاف قلب كل منا. كان طموح كاتب العدل "جوستينو"

هو مزرعة صغيرة في "مينيو"، تملؤها الورود وكروم العنب، حيث يمكن أن يقضي شيخوخته، مسترخيًا في هدوء.

قالت "تيتي":

- انظر يا "جوستينو"، شيء واحد يجب أن تتوق إليه وهو قداسك في كنيسة "الحمل" القديمة.. فعندما يعتاد الناس على حضور قداس معين فلا يوجد قداس آخر عوضًا عنه. فبالنسبة إليَّ مثلًا، إذا أبعدوني عن قداس "سانتانا" أشعر أنني سأذبل.

كان الأب "بينيرو" هو الذي يقيم ذلك القداس؛ فوضعت "تيتي" له، حانية، جناح دجاجة آخر في الطبق؛ وكشف الأب "بينيرو" أيضًا عن الطموح الذي يراوده. وكان عاليًا ومقدسًا. فكان يريد أن يرى البابا المرسوم على هذا العرش القوي المثمر، الذي كان "ليون العاشر" يملؤه بهاءً.

- هذا فقط إذا كان لديه ما يحسن به!

هتفت "تيتي"، ولكن الأب الأقدس، نائب الرب، إذا بقي على حاله في زنزانته، فسيكون ولاؤه للكايفاس[10] ولليهود!

وأخذت رشفة من الماء الفاتر الخاص بها، وانحنت في عزلة روحانية لتصلي "صلاة السلام عليك يا مريم" التي كانت دائمًا ما تصليها لأجل صحة البابا وخلاصه من الأسر. وحاول الدكتور "مارجريد" أن يهون عليها وقال إنه لا يظن أن البابا ينام على القش؛ فقد أكد المسافرون المطلعون أن الأب الأقدس يمكن أن يمتلك عربة إذا أراد.

- ليس هذا كل شيء. هو أبعد ما يكون عن الكمال من ينافس ذلك الذي يرتدي التاج البابوي، لكن عربة، يا إلهي، إن ذلك يعد من الإسراف المتناهي.

---

(10)- جماعة أسسها أنطونيو بنتو دي سووزا إى كاسترو (1843-1898) في ساو باولو بالبرازيل للدفاع عن العبيد وحقهم في التحرر.

http://historiapensante.blogspot.com/2011/10/os-caifases.html، المترجم

ثم ابتسم الأب "كاسيميرو"، وتساءل (بعد أن عبَّر كل منهم عن طموحاته) عن طموح العالم البارز الدكتور "مارجريد".

- أخبرها يا دكتور "مارجريد"، أخبرها عن طموحك!

وصمت الجميع متأثرين. أمَّا هو فابتسم، في هدوء:

- اسمحي لي أولًا سعادة السيدة "باتروسينيو"، سيدتي، أن أتذوق هذا اللسان المطبوخ، الذي يصحبنا والذي يبدو لي أنه سيكون لذيذًا.

وبعد تلك المقدمة، اعترف القاضي المبجَّل بأنه يريد أن يكون عضوًا في المجلس الملكي. ليس من أجل نيل الشرف، ولا لرفاهية الزيِّ؛ ولكن للدفاع عن مبادئ السلطة المقدسة.

- من أجل ذلك فقط.

أضاف متحمسًا:

- لأني أتمنى أيضًا، قبل وفاتي، أن أعطي، إذا سمحت لي حضرتكم سيدة "باتروسينيو" بالتعبير، ضربة بالنبوت قاتلة ضد الإلحاد والفوضى. وأنا أقدر على ذلك!

أعلنوا جميعًا بحرارة أن الدكتور "مارجريد" يستحق أن يخوض هذه المعارك الاجتماعية. وشكرهم بشدة. ثم نظر إليَّ بوجهه المهيب المفعم بالحيوية:

- وولدنا "تيوديريكو"؟ لم يخبرنا حتى الآن عن طموحاته.

احمر وجهي خجلًا، ثم عادت باريس تتلألأ في أعماق نفسي، حيث القناديل الذهبية، والكونتيسات أبناء عمومة الباباوات، والرغاوي التي تطفو على كؤوس الشمبانيا. كنتُ مفتونًا، ثملًا، وأسكن كل الآلام، ولكني نظرت إلى أسفل، وأكدت لهم أن طموحي فقط هو الصلاة على مسبحتي بجوار "تيتي"، فتلك هي منفعتي وتلك هى راحتي.

لكن الدكتور "مارجريد" أصر وهو يرتب الملاعق والشوك الفضية، على أنه لا يبعدني عن الله، ولا يعد جحودًا لـ"تيتي"، أن يشتهي شاب ذكي، صحيح، وفارس حاصل على الليسانس مثلي أي شيء يطمح إليه.

- شهوة!

صرختُ حينها، وكلي عزم كمن يشد القوس ويستعد لإطلاق السهم:

- دكتور "مارجريد"، كم أحب أن أرى باريس.

- أيتها الصلبان!

صاحت السيدة "باتروسينيو"، مرعوبة:

- تذهب إلى باريس!

- لرؤية الكنائس، "تيتي"!

- ليس عليك الذهاب بعيدًا إلى هذا الحد كي ترى كنائس جميلة.

قالت مقاطعة كلامي:

- وهناك حفلات الجيتار، والقدوس محاط بأشكال النعيم، وهناك المسيرات الفخمة في الشوارع، والأصوات العذبة، والاحترام، والتماثيل التي تسر الناظرين! ليس هناك بلد يرقى لمستوى البرتغاليين في ذلك!

صمتُّ مشدوهًا، وأشاد الدكتور المستنير "مارجريد" بوطنية "تيتي" الكنسية. بالتأكيد، لا يمكن أن تجد هناك بلدًا يُعبَد فيه الرب بالإخلاص الذي يُعبد به هنا.

- لا، سيدتي، كي أهنأ بتذوق أشياء عظيمة من ديننا المقدس، لو كان عندي وقت فراغ، فلن أذهب إلى باريس. هل تعرفين حضرتكم إلى أين كنت سأذهب سيدتي "ماريا دو باتروسيينيو"؟

قال الأب "بينيرو":

- لو كنت في مكان ابننا الأستاذ لهرولتُ إلى روما.

- مرحى أب "بينييرو"، مرحى يا سيدتي العزيزة!

مرحى؟ لم يكن الأب "بينييرو" ولا "تيتي" يدركان أن هناك ما يفوق روما البابوية! ثم رفع د. "مارجريد" حاجبيه الكثيفين الأسودين كخشب الأبنوس:

- أمَّا أنا فكنت لأذهب إلى الأرض المقدسة، سيدة "باتروسينيو"، كنت لأذهب إلى فلسطين، سيدتي! كنت سأرى القدس والأردن! وكنت أقف للحظة واحدة على منطقة "جاجولثا" مثل الكاتب الفرنسي "شاتوبريان" وقبعتي في يدي، أتأمل، لأنهل، ولأقول "السلام عليك!" وكنت سأدوِّن ملاحظاتي، سيدتي، وكنت سأنشر انطباعاتي التاريخية. عرفتم أين كنت سأذهب سعادتكم.. كنت ذاهبًا إلى تل "صهيون"!

تم تقديم اللحم المشوي؛ وكان هناك تحفُّظ يخيم على المائدة حول هذا الاقتراح بزيارة الأرض المقدسة حيث عانى الرب. ورأيتُ نفسي هناك، بعيدًا في شبه الجزيرة العربية، بعد رحلة تستغرق أيامًا متعبة كثيرة على ظهر جمل، لأرى كومة من الأنقاض حول صليب. ونهر مشؤوم يجري بين أشجار الزيتون. وسماء صامتة كئيبة تظلل المكان مثل قبو القبور. هكذا خُيِّلت إليَّ القدس.

- رحلة جميلة! همس "كاسيميرو" وهو مستغرق في التفكير.

تمتم الأب "بينيرو"، بصوت منخفض، كما لو كان يصلي صلاة:

- ناهيك عن أن ربنا يسوع المسيح يقدِّر كثيرًا مثل هذه الزيارات إلى قبره المقدس ويجازي عليها.

قال "جوستينو":

- إن من يذهب إلى هناك تُغفر خطاياه.. أليس هذا صحيحًا، "بينيرو"؟ قرأتُ شيئًا من هذا القبيل في "بانوراما".. وتأتي من هناك مطهّر من كل ذنب!

أعطى الأب "بينيرو" (وهو يرفض القرنبيط مشمئزًا إذ كان يعدُّه غير قابل للهضم) توضيحًا. أي شخص يذهب إلى الأرض المقدسة في رحلة دينية سيستلم من يد بطريرك القدس صك المغفرة التامة على رخام القبر المقدس، بعد أن يقدم القرابين المعتادة.

وأضاف رجل الدين المطلع:

- ليس فقط بالنسبة إليه، كما سمعتُ، ولكن أيضًا بالنسبة إلى عضو يحبه من العائلة، شرط أن يكون تقيًّا وأن تمنعه ظروفه من القيام بالرحلة، على أن يدفع ضعف القرابين المعتادة.

صاح الدكتور "مارجريد" الملهم وهو يضربني بقوة على ظهري:

- حتى بالنسبة إلى "تيتي" الطيبة، "تيتي" المعشوقة، "تيتي" التي كانت كالملاك، الفاضلة الكريمة!

وكرر الأب "بينيرو" كلامه:

- على أن تدفع ضعف القرابين المعتادة!

لم تنبس "تيتي" ببنت شفة. كانت نظارتها، تتنقل بين الكاهن والقاضي، بدت عيناها تتسعان بشكل غريب، وبدتا متوهجتين أكثر مع اختمار الفكرة داخلها؛ وعاد الدم قليلًا إلى وجهها الشاحب. ثم قدمت الأرز الحلو. وصلينا شكرًا للنعم.

في وقت لاحق في غرفتي، شعرت بحزن شديد وأنا أخلع ملابسي؛ فلن تسمح لي "تيتي" أبدًا بزيارة أرض فرنسا المدنسة. وسوف أقبع هنا في لشبونة هذه

التى صار كل شيء فيها عذابًا بالنسبة لي، وأكثر الشوارع ضجيجًا صار يوحش عزلة قلبي، وحتى نقاء سماء الصيف الصافية أصبح يذكرني بقصيدة الغدر لتلك التي كانت، بالنسبة لي نجمة وكانت ملكة الجمال.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، على العشاء، بدت لي "تيتي" أكثر صرامة، تتمتع بالصحة، معمرة، ولسنوات عديدة قادمة ستظل صاحبة كيس النقود الحريري الأخضر، وثروة القائد "جودينيو".. يا ويلي! كم من الوقت يجب أن أصلي مع تلك العجوز البغيضة، وأنا ممسك بالمسبحة المملة، كم من الوقت يجب أن أقبل قدمي رب الخطوات، التي اتسخت من أثر قبلات السيدة النبيلة، وأن أصلي الصلاة التساعية، وأن أركع على ركبتي أمام تمثال معبود نحيف ومليء بالجروح؟ يا لها من حياة مريرة! ولم يعد لدي تعزية تهون عليَّ خدمة يسوع الشاقة، كذراعي "أديليا" الناعمتين.

في الصباح، امتطيتُ فرسي، وبسرعة ذهبت لمعرفة ما إذا كان لـ"تيتي" أي رسالة تقوى للقديس "روكي"، لأنه كان يوم المعجزة بالنسبة لها. وفي الصالون الصغير المخصص لأمجاد القديس يوسف، وجدت "تيتي"، على زاوية من الأريكة، وقد سقط الشال من مدينة الـ"تونكيم" الواقعة في جنوب فيتنام من فوق كتفيها. تفحَّص دفتر حساباتها الكبير المفتوح على ركبتيها. وبهدوء، طاويًا يديه خلف ظهره، كان "كاسيميرو" الطيب يحملق في الزهور التي على السجادة.

- تعالَ هنا، اقترب!

وتقدمت ببطء وظهري مقوس.

- استمع إلى الأخبار! إنك جوهرة، تحترم المسنين، وتستحق كل شيء من الله ومن السيدة خالتك. تعالَ هنا، أقبل حتى أعانقك!

ابتسمت وأنا قلق.. وطوت "تيتي" دفترها.

- "تيوديريكو"!

بدأت كلامها وطوت ذراعيها:

- "تيوديريكو"! كنت أتشاور هنا مع الأب "كاسيميرو"، وقررت أن يـذهب شـخص ينتمي إليَّ، ويكون من لحمي ودمي للحج إلى الأراضي المقدسة.

- يا لسعدك!

صاح "كاسيميرو" مبتهجًا.

هكذا، واصلت "تيتي":

- مفهوم، ولتعلم أنك ذاهب إلى القـدس وجميـع الأمـاكن المقدسـة. ولا يجـب أن تشكرني؛ فإنه من دواعي سروري، ولتكريم قبر يسوع المسيح، لأنني لا يمكن أن أذهب هناك.. ولأني، والحمد لله، لا ينقصني شيء، فسوف تقوم أنـت بالرحلـة ومعـك جميـع وسائل الراحة. وحتى لا يساورك شك في ذلك، وحتى نسرع في نيل رضاء ربنا، سـتغادر هذا الشهر... حسنًا، اذهب الآن فإني أريد أن أتحدث إلى الأب "كاسيميرو".. شكرًا لـك، أنا لا أريد أي شيء من القديس روكي، لقد تفاهمنا معًا.

وتمتمتُ:

- شكرًا جزيلًا "تيتي"، وداعًا، أيها الأب "كاسيميرو".

وواصلتُ السير في البهو، مذهولًا.

وجريت في غرفتي إلى المرآة أتأمَّل – مندهشًا - هـذا الوجـه وهـذه اللحيـة والتـي سرعان ما يهبط عليها تراب القدس.. حتى يتعفر سريري بالجير والتراب.

- يا لها من ضربة فظيعة!

أذهب إلى القدس! وأين هي القـدس؟ بحثـتُ عـن الصـندوق الـذي يحتـوي عـلى مـذكراتي ومـلابسي القديمـة. أخـذت الأطلـس، وفتحتـه عـلى خزانـة الأدراج أمـام

سيدة الرعاية "باتروسينيو"، وبدأت أبحث عن القدس هناك ناحية الأرض التي يعيش عليها الكفَّار، حيث تسير القوافل المشبوهة، وحيث يعد الماء القليل في الآبار هدية ثمينة من الرب.

وأحس أصبعي المتجول على صفحة الكتاب بالضجر من طول الرحلة. وتوقفت عند حافة نهر ملتوية، خمنت أنه كان نهر الأردن المبارك، لكنه كان نهر الدانوب.. وفجأة ظهر اسم أورشليم، أسود، في فلاة بيضاء منعزلة، دون أسماء، دون خطوط، كلها رمال، عارية، مطلة على البحر.. كانت هي القدس.. يا إلهي! ما أبعدها، ما أسوأها، ما أحزنها!

ولكني بعد ذلك بدأت أعتبر أنه من أجل الوصول إلى هذه الأرض المباركة، سيكون لزامًا عليَّ أن أعبر مناطق جميلة وأنثوية ومليئة بالبهجة؛ فسأمر أولًا على الأندلس الجميلة، أرض ماريا المقدسة، المعطرة بزهور البرتقال، حيث النساء التي ما إن تضعن القرنفل في شعورهن، وتلبسن الشال القرمزي حتى تروضن قلوب أكثر الرجال تمردًا، "مباركة نعمتك!"، ثم تتلوها نابولي بشوارعها الداكنة الدافئة والتي تعمرها أيقونات العذراء، ورائحة النساء، مثل ممر يمتلئ ببيوت الدعارة. ثم تأتي بعد ذلك اليونان؛ التي تطل عليَّ من منبر الخطابة فتبدو لي دائمًا كبستان مقدس للأمجاد حيث تطل المثلثات التي تزين واجهة المعابد، وحيث تبرز من الأماكن الظليلة التي يسمع فيها هديل الحمائم بلون الضوء ولون الورد، تقدم شفتيها للجميع، وثدييها الخالدين في دلالهما إمَّا لعنة وإمَّا نعمة.

لم تعد فينوس تعيش في اليونان؛ لكن النساء حافظن هناك على روعة شكلهن وسحر خلاعتهن. يا إلهي! يا لكثرة ما يمكن أن أتمتع به! وغمر روحي وميض متوهج، وصرختُ وأنا ألكم الأطلس بيدي لكمة هزت السيدة العفيفة ربة الرعاية وكل النجوم التي في تاجها:

- يا إلهي، سوف أشعر بالامتلاء!

نعم، الامتلاء! وخوفًا من أن تتراجع "تيتي"، لبخلها بالذهب، أو عدم ثقتها في تقواي وأن تنبذ فكرة هذا الحج الذي يعدني بالكثير من المتع، قررتُ تحويله إلى أمر إلهي خارق؛ فذهبت إلى المصلى ونكشت شعري، كما لو كانت نفثة إلهية.. وأسرعت إلى غرفة "تيتي" مذعورًا وذراعي ترتجفان في الهواء.

- يا "تيتي"! ألا تريدين أن تعرفي؟ كنت الآن في المصلى أصلي صلاة الشكر، وخُيِّل إليَّ فجأة أني سمعت صوت الرب، من فوق الصليب، وقال لي بصوت خفيض، ودون أن يتحرك: "تفعل حسنًا، "تيوديريكو"، أنا راضٍ عن زيارتك لقبري المقدس.. وأنا سعيد جدًّا بخالتك.. فهي من أوليائي!".

شبكت يديها معًا يغمرها لهيب الشوق:

- الحمد لاسمك المقدس.. أحقًّا قال ذلك؟ آه، كأن ربنا يعلم أنني أبتعثك إلى هناك لتكريمه.. الحمد مرة أخرى لاسمه المقدس! الحمد لله في الأرض والسماوات! هيَّا يا بني، اذهب وصلِ.. لا تكلّ ولا تملّ!

وذهبت أتمتم "السلام عليكِ يا مريم"؛ فركضت إلى الباب وقالت بعاطفة تتدفق:

- وانظر، "تيوديريكو" هناك يجب أن تلبس البياض زيادة في الاحترام.. ربما تحتاج إلى المزيد من السراويل.. اطلب يا بني وأوصي، فإنه بفضل سيدة التسابيح عندي أملاك، وأريد منك أن تذهب في ثوب من الحشمة، وأن تظهر بمظهر جيد هناك عند قبر الرب!

وفعلتُ، وبعد أن اشتريتُ دليلًا للشرق وخوذة الفلين، استعلمت عن أفضل طريق ممتع للوصول إلى القدس مع "بنيامين ساروزا وشركاه"، وهو يهودي داهية، كان يذهب كل عام إلى المغرب لشراء الثيران. ورسم لي بنيامين على ورقة صغيرة خط سيري العظيم.

كنت سأركب البحر في "مالقة"، على باخرة من شركة "جادلي"، والتي ستأخذني عبر جبل طارق، ومرورًا بمالطا، في بحر دائم الزرقة، إلى أرض مصر القديمة. وهناك أنعم بالراحة في مدينة الإسكندرية المرحة. ثم في مركب الشام، الذي يسير بمحاذاة ساحل سوريا المبارك، أنزل في "يافا"، حيث بساتين النخيل الخضراء. ومن هناك، أسير في طريق معبّد على ظهر فرس جميلة لمدة يوم وليلة حتى تظهر لي أسوار القدس السوداء بين التلال الحزينة!

- أيها الشيطان، "بنيامين".. يبدو لي أني سأقضي وقتًا كبيرًا في البحر، أيامًا كثيرة على ظهر المركب. ولن تتركني ولو حتى وقتًا قليلًا في إسبانيا؟ يا فتى، إني أريد أن أروِّح عن نفسي.

- روِّح عن نفسك في الإسكندرية، فلديك كل شيء هناك. لديك البليارد، لديك النساء الرخيصات، لديك صالات القمار، لديك بنات الليل.. كل ما تشتهيه، وهناك تستطيع أن تروِّح عن نفسك!

وفي هذه الأثناء، كان خبر رحلتي المقدسة قد انتشر بالفعل في مقهى "مونتانا" ومتجر التبغ في "بريتو". وذات صباح، قرأت وقد انتفخت أوداجي فخرًا في مجلة الأخبار هذه الخطوط الشرفية: "يرحل قريبًا لزيارة القدس، وجميع الأماكن المقدسة حيث عانى من أجلنا المخلّص، صديقنا "تيوديريكو رابوزو"، ابن شقيقة سعادة "باتروسينيو داس نيفس"، الثرية صاحبة الأملاك، ومثال الفضائل المسيحية".. واختفت "تيتي" لتضع الصحيفة في المصلى، تحت قاعدة تمثال القديس يوسف؛ أمَّا أنا فانتشيت عندما تخيلت تنهدات "أديليا" (القارئة الدائمة للصحيفة) لرؤيتي أسعى للتخلص منها، محمَّلٌ بالذهب متجهًا لتلك الأراضي المسلمة، حيث في كل خطوة ألتقي بواحدة من الحريم، وأنا تفوح مني رائحة الورد بين شجر الجميز.

عشية الرحيل، في غرفة الدمشقيات، شعرت بالسمو والمهابة، فقد كان "جوستينو" ينظر إليَّ كأنه يتأمل في شخصية تاريخية.

- صديقنا "تيوديريكو"، يا لها من رحلة! ويا لروعة ما سيقال عنها!

وهمس الأب "بينيرو" بورع:

- لقد كان ذلك بإلهام من الرب! ويا لروعة أثرُ ذلك على صحتك!

ثم عرضت خوذة الفلين؛ فنالت إعجاب الجميع. أمَّا صاحبنا "كاسيميرو"، وبعد أن هرش ذقنه بعناية، لاحظ أنه ربما سيعطيني المزيد من الجدية أن أرتدي قبعة طويلة.

وجاءت "تيتي" مهمومة:

- تذكر ما أخبرتك به! أظن أنه لا يليق بك ارتداء الخوذة في المدينة التي مات فيها الرب.

- آه يا "تيتي"، لكنني أخبرتك! هي فقط من أجل الصحراء! في القدس من الطبيعي أن أرتدي في كل تلك الأماكن المقدسة القبعة.

وأكد الدكتور "مارجريد":

- إنه دائمًا رجل أكثر من نبيل.

وأراد أن يعرف الأب "بينيرو" إذا ما كنت قد احتطت وأخذت معي بعض الأدوية في حالة حدوث مرض معوي في هذه البراري التي ذُكرت في الكتاب المقدس.

- نعم أخذت كل شيء.. أعطاني بنجامين القائمة، حتى بذور الكتان وبذور العطاس.

بدأت ساعة القاعة تدق بسرعة العاشرة. كان يجب أن أستيقظ مبكرًا وكان دكتور "مارجريد" قد تحرك بالفعل وربط حول رقبته منديل الحرير.. ثم، قبل الأحضان، سألت أصدقائي المخلصين عمَّا أرادوا أن أحضر لهم "تذكارًا" من تلك الأراضي البعيدة التي عاش فيها الرب. أراد الأب "بينيرو" قنينة من ماء نهر الأردن.

أمَّا "جوستينو" فقد طلب بالفعل حزمة من التبغ التركي، أمَّا أمام "تيتي" فطلب غصنًا من الزيتون فقط، من "جبل الزيتون". أمَّا الدكتور "مارجريد" فقد اكتفى بطلب صورة جيدة لقبر يسوع المسيح، ليضعها في برواز.

وبعد أن دونت في القائمة هذه الطلبات الورعة وما زالت الصرّة مفتوحة.. التفتُّ إلى "تيتي"، مبتسمًا وحنونًا ومتواضعًا.

- ومن أجلي..

قالت من وسط الأريكة كما لو كانت أمام المذبح، مشرئبة في فستان الأحد الحريري:

- أريدك أن تؤدي هذه الرحلة بكل تفانٍ، دون أن تترك حجرًا دون تقبيل، وألا تفوتك صلاة، وألا تترك مكانًا دون أن تؤدي فيه صلاة، إمَّا صلاة المسبحة وإمَّا صلاة الإكليل.. بالإضافة إلى ذلك، أرجو أن تحافظ على صحتك أيضًا.

كنت ذاهبًا لأطبع على يدها البرّاقة بالخواتم قبلة عرفان بالجميل. لكنها أوقفتني بإصرار وجفاف:

- حتى الآن كان عندك عزم؛ فلم تخالف المبادئ، ولم تسلم نفسك للآثام.. لهذا السبب ستكافأ برؤية أشجار الزيتون التي سال عندها دم الرب، وبأن تشرب من نهر الأردن. ولكن إذا عرفتُ أنك في هذه الرحلة كانت لديك أفكار سيئة، أو ارتكبت ذنبًا، أو كنت تلهث خلف النساء، فمن المؤكد أنه على الرغم من أنك الشخص الوحيد من دمي، وأنك قمتَ بزيارة القدس، وتمتعت بالتجليات، فإنك ستُلقى في الشارع، دون قرش واحد، مثل الكلب!

وحنيت رأسي، مرعوبًا. وواصلت "تيتي"، بعد أن مست كيس النقود بشفتيها، كلامها بمزيد من السلطة، وعاطفة متنامية، ووضعته داخل حمالة صدرها الملساء فأصدر صوتًا كحشرجة تخرج من صدر إنسان:

- والآن أريد أن أقول لك، لصالحك، شيئًا واحدًا فقط!

ووقف الجميع، وأدركنا سريعًا أن "تيتي" كانت على وشك أن تنطق بكلمة عليا. في ساعة الوداع هذه، وهي محاطة بكهنتها، وبقضاتها، كانت السيدة "باتروسينيو داس نيفيس" على وشك كشف دافعها الحميم لإرسالي هناك، كابن أخت حاجًّا، إلى مدينة القدس.

وأخيرًا كنت سأعرف، على وجه اليقين كما لو كانت تكتب لي على ورقة، ما هو أحق شيء بحفاوتي سواء كنت يقظًا أو نائمًا في أرض الإنجيل!

- ها هي!

أعلنت "تيتي".

- إذا كنت تفهم أنني أستحق شيئًا، لما أنجزته من أجلك، منذ أن ماتت أمك، سواء بتعليمك، أو بكسوتك، أو بإعطائك فرسًا تتنزه بها، أو بأن اعتنيت بروحك، فأحضر لي من هذه الأماكن المقدسة أثرًا مقدسًا. بقايا معجزة، أحتفظ بها دائمًا في معاناتي وأشفي بها مرضي.

وللمرة الأولى، بعد خمسين عامًا من الجفاف، فرت دمعة قصيرة على وجه "تيتي" تحت نظارتها الكئيبة.

وتوجه الدكتور "مارجريد" لي منتشيًا:

- "تيوديريكو"، ما أحببك إلى قلب "تيتي"! ابحث جيدًا في هذه الأطلال، وانبش تلك القبور! حتى تحضر لـ"تيتي" أثرًا مقدسًا!

وصحت بإصرار:

- "تيتي"، لك وعد الثعلب بأني سأحضر أثرًا مقدسًا عظيمًا!

من خلال الغرفة الدمشقية المطرزة الصارمة، فاضت، صاخبة ومؤثرة، عواطف قلوبنا. وجدت نفسي مع شفاه "جوستينو"، التي لا تزال ناعمة من أثر الخبز المحمص بالسمن عليها، تلتصق بلحيتي.

⌘⌘⌘

وفي وقت مبكر من صباح يوم الأحد، السادس من سبتمبر، وهو يوم القديسة "ليبانيا"، ذهبت ببطء أدق باب غرفة نوم "تيتي"، وكانت ما زلت نائمة على سريرها العفيف. وسمعت، على السجادة، صوت حذائها الناعم يقترب. وفتح الباب بهدوء. وكانت طبعًا بقميص النوم، مدت لي يدها الخشنة الشاحبة، من خلال فتحة الباب، ورائحة السعوط تخرج منها. داخلتني رغبة في عضها، لكني قبلتها برفق؛ فهمست "تيتي":

- وداعًا يا فتى.. أخبر الرب عن أشواقي الكبيرة إليه!

هبطت السلم، وارتديت قبعتي بالفعل، وتأبطت دليلي إلى الشرق، ومن خلفي وقفت تنتحب.

وملأت حقيبتي الجلدية الجديدة والقماشية المحشوة كرسي العربة ذات الحصانين، وكانت طيور السنونو المتأخرة ما زالت على أسطح المنازل تغني؛ ودقت أجراس كنيسة "سانتانا" معلنة عن بدء القداس.. بينما تسللت أشعة الشمس من ناحية الشرق، قادمة من فلسطين لمقابلتي، فغمرت وجهي، الودود المبتسم، مثل مداعبة الرب.

أغلقت باب العربة، وشددت عودي ثم صرخت:

- انطلق يا حوذي!

واختلطت رائحة الريحان العبقة بدخان سيجاري، هكذا تركت بوابة خالتي في الطريق إلى القدس!

أيام لا تُنسى في أرض مصر

البحث عن الكنز

وافق يوم الأحد، يوم القديس "جيروم" عندما وطئت قدماي اللاتينية أخيرًا جزءًا من أرض الشرق، رصيف الإسكندرية.. تلك الأرض المليئة بالشهوات الحسية والمشاعر الدينية؛ شكرت الرب على الرحلة الموفقة.. وصاح زميل الرحلة الشهير "توبسيوس"، وهو دكتور ألماني في جامعة "بون"، وعضو في "المعهد الإمبراطوري للحفريات التاريخية"، بصوت جهوري كما لو كان في تظاهُرة، وهو يفرد مظلته الخضراء الكبيرة:

- مصر! يا مصر! عليك مني السلام يا سمراء! وليرضَ عني إلهك "بتاح"، إله الآداب، إله التاريخ، ومصدر إلهام الفنانين، والأعمال الأصيلة!

وسط هذا الطنين العلمي، شعرتُ بنفسي غارقًا في نسيم دافئ مثل النسيم الذي يهُبُّ من المدافئ. أحسستُ برائحة خشب الصندل والورد تتسرب إلى نفسي بهدوء. وعلى الرصيف الذي يعُج بالحركة، جلس بين بالات الصوف موظفُ الجمارك في زي مبتذل وقذر. لكن الحمائم البيضاء، كانت تحلِّق في الأفق حول المآذن البيضاء. كانت السماء صافية. وعلى البعد، رأينا قصرًا مشيدًا على شط الماء تحيطه أشجار النخيل السامقة. ومن خلفه تمتد رمال ليبيا القديمة، يتصاعد منها غبار ساخن، يتمايل حرًا ولونه بني كلون الأسد.

أحببت هذه الأرض الكسولة، والحالمة، والوضيئة. واستعنت بالآلهة وأنا أقفز إلى الحنطور المبطن بالقطيفة، والذي كان سينقلنا إلى فندق "الأهرامات"، تمامًا كما فعل دكتور جامعة بون المستنير، وهتفتُ:

- مصر! يا مصر! عليك مني السلام يا سمراء! وليرض عني إلهك...

- لا! بل قل سيد "رابوزو": لترضي عني يا "إيزيس"، أيتها البقرة المحبوبة!

قالها ذلك العالم "الجليل" وهو يبتسم، ويتشبث بمعطفي.

لم أفهم، ولكن فعلت. كنت قد التقيت "توبسيوس" في مالطا في صباح مشرق، وكان يشتري باقة من زهور البنفسج من بائعة ورد كانت عيناها ناعستين كعيون المسلمات.. كان يسير وهو يقيس بدقة مستخدمًا مظلته كأداة لقياس الجدران العسكرية والرهبانية لقصر "السيد الأكبر" بمدينة "فاليتا" عاصمة مالطا. مقتنعًا بأنه كان واجبًا روحانيًّا وعلميًّا، في أراضي الشرق المليئة بعبق التاريخ. وصار يقيس أبعاد كل أثر يراه من العصور القديمة. وضعتُ منديلي وأخذت أتبعه باهتمام، ملازمًا له كظله على الحجارة المهجورة. رمقني "توبسيوس" بنظرة من فوق نظارته الذهبية، يملؤه الشك والغيرة؛ لكنه اطمئن، بالتأكيد لما رأى ملامح وجهي وعلامات الثراء، ورأى قفازي الذي يفوح منه عطر المسك، وغصن البنفسج

الذي أربطه بأناقة على شعري الطويل، الناعم بلون الذرة وفوقه قلنسوة من الحرير الأسود. وحييتُه بخوذتي الفلينية، وتعارفنا. قلتُ له اسمي، وبلدي، والدوافع المقدسة التي جاءت بي إلى القدس. أخبرني أنه وُلد في ألمانيا المجيدة. وأنه ذاهب إلى "يهودية"، ثم إلى "الجليل"، في رحلة علمية، لجمع الملاحظات لعمله الهائل، تاريخ "آل هيرودس". لكنه سيتأخر في الإسكندرية لجمع مادة علمية لكتاب ضخم آخر، وهو تاريخ البطالمة.. لأن هاتين العائلتين المضطربتين، وهما "آل هيرودس" والبطالمة، كانتا ملكية تاريخية للعالم "توبسيوس".

- إذا كان طريقنا واحدًا فيمكننا مشاركة غرفة واحدة دكتور "توبسيوس"!

فوافق متوددًا، وكان ممشوق القوام نحيفًا طويل الأرجل، يلبس جاكيت قصيرًا لامعًا يعج بالمخطوطات:

- حسنًا، سيد "رابوزو"! سيوفر ذلك علينا الكثير!

بدا صديقي المثقّف وكأنه بجعة، مختفيًا في ياقته، وخصلة شعره منكوشة، وأنفه حاد وعلى طرفه استقرت نظاراته الذهبية. أمَّا ملابسه فكانت عبارة عن سترة باهتة مثيرة للضحك ومليئة بالحروف. ولأن حيويتي كانت تبجل فكره فقد صحبته لتناول كأس من الجعة.

كان حب العلم عند هذا الشاب موهبة وراثية؛ فجده لأمه هو "شلوك" عالم الطبيعة، الذي ألف مجلدًا من ثمانية أجزاء عن التعبير السيميائي (تعبيرات الوجه) عند السحالي والذي أدهش به ألمانيا. وعمه، "توبسيوس" الكبير، عالم المصريات الشهير الذي أملى وهو في السابعة والسبعين من عمره، على كرسي متحرك، جزءًا جزءًا حتى أتم هذا الكتاب اللطيف السهل عن "موجز عن التوحيد ونظرية الخلق في مصر القديمة" وهو كتاب مهم يبحث في العلاقة بين المعبود بتاح والمعبود "إيمحتب" مع آلهة الأقاليم.

ومن بين هذه الأسرة من العلماء المميزين ظل والد "توبسيوس" للأسف حبيسًا في شرنقته في مدينة ميونخ. ولكن رفيقي، استأنف التقليد الأسري، ففي سن الثانية والعشرين كان قد نشر تسعة عشر مقالًا في جريدة أسبوعية عن الحفريات التاريخية، وهي مسألة حيوية لدراسة الحضارة، لحائط من الطوب شيده الملك "بي سب كمي"، من الأسرة الحادية والعشرين، حول معبد رمسيس الثاني، في مدينة "تانيس" الأسطورية. ويبرز رأي "توبسيوس" حول هذا الحائط في الأوساط العلمية بألمانيا واضحًا وضوح الشمس.

وتبقى الذكريات عن "توبسيوس"، بعضها مهم وبعضها أقل أهمية سواءً أكانت فوق أمواج بحر "صور" الهائجة، أو في شوارع القدس الملتهبة؛ أو ونحن نائمان جنبًا إلى جنب في الخيمة بجانب أطلال "أريحا"، أو في شوارع "الجليل" الخضراء، وجدته دائمًا على علم، خدومًا وصبورًا ورصينًا. وكنت نادرًا ما أفهم عباراته الرنانة، بليغة الصياغة؛ فكانت برّاقة كالميداليات الذهبية. ولكني كنت أحترمه كما لو كنتُ أمام باب معبد موصَّد، لأني كنت أعرف أنه بداخل هذا المعبد المظلم أفكار نقية تملأ المكان بالضياء.

في بعض الأحيان كان دكتور "توبسيوس" يتفوَّه بكلمات قذرة، فكنت أعقد معه اتفاقًا لطيفًا بينه وبين فكري البسيط كدارس للقانون. وينصُ على أن يدفع لي عملة فضية كلما تفوّه بكلمة لا تليق، وكان يدين لي بست عملات فضية. لكن هذه التُرّهات الصغيرة كانت تختفي في خضم الموجة الغزيرة من المعرفة التاريخية، التي فاضت على روحي. شيء واحد لم يعجبني فيه - بصرف النظر عن حشرجة صوته كالمثقفين - وهو أنه اعتاد استخدام فرشاة أسناني.

كان أيضًا لا يطيق نقدًا لوطنه؛ فدائمًا ما يرفع أنفه ويمتدح ألمانيا، والدة الشعوب الروحية. ثم يهددني بأسلحتها التي لا تقاوم. ألمانيا العليمة! ألمانيا القديرة! فهي تحكم معسكرًا واسعًا متشعبًا من الكتب العلمية، حيث تدير

وتتحكم في الميتافيزيقا المسلحة! أمَّا أنا، فكنت شجاعًا ولا أحب هذا التفاخر. لذلك عندما قدَّموا لنا دفترًا في فندق "الأهرامات" لنسجل فيه أسماءنا وأسماء بلادنا، كتب صديقي الدكتور "توبسيوس" اسمه وتبعه، بغطرسة بجملة كتبها بحروف كبيرة ومتراصة كما لو كان تلميذًا مستجدًا: من ألمانيا الإمبراطورية. وأخذت القلم الحبر وتذكرت "جواو دي كاسترو" ولحيته، وساحة "هرمز"، وساحة "أداماستور"، وكنيسة القديس "روكي" ونهر "التاج" وأشياء عظيمة أخرى من بلادي، وكتبت بخط كبير متعرج ولكنه مستقيم كالمسطرة: "رابوزو، برتغالي، من هناك، من وراء البحار".

وبعد قليل جاء فتى نحيف هزيل، يهمس ويتنهد كأنه أوشك على الإغماء:

- إذا احتجت إلى شيء سيدي، فقط نادِ "ألبندرينا".

كان رجلًا أرستقراطيًّا، حكى لي قصته البائسة، بينما كنتُ أفض حقيبتي. كان رجلًا تعيسًا من "ترانكوسو" في البرتغال. كان يدرس، ويؤلف نصوصًا للرثاء؛ ولا يزال يحفظ عن ظهر قلب بيوت الشعر الحزينة التي ألفها شاعرنا "سواريس دي باسوس"، لكن ما إن ماتت والدته وورث عنها أطيانًا حتى أسرع إلى لشبونة المشئومة بحثًا عن المتعة؛ وسرعان ما التقى في زقاق "كونسيساو" بامرأة إسبانية حُلوة جدًّا كحلاوة اسمها وهو "دولسي"؛ فسافر معها إلى مدريد، في غفلة من أمره.. وهناك خسر ماله في اللعب. وخانته "دولسي". وطعنه صديقُها القوّاد. وبعد أن تماثل للشفاء سافر إلى "مارسيليا". وخلال سنوات عاش هناك مشردًا، عالة على المجتمع، وحدثت له قصص بؤس لا توصف؛ فعمل خادمًا لكنيسة في روما، وعمل حلاقًا في أثينا. وفي "موربيه" حيث كان يسكن في كوخ بجانب مستنقع، عمل بصيد الأسماك من المستنقعات. ولبس العمامة وحمل القدرة السوداء على كتفه، وصار يوزع الماء في أزقة "إزمير". وكانت أرض مصر

الخصيبة تجذب اهتمامه دائمًا بطريقة لا تقاوم، فانتهى به الحال هنا، في فندق "الأهرامات"، وهو الآن حمّال أمتعة بائس.

- وإذا كان الفارس قد أحضر بعض الصحف من لشبونة، فأنا أود أن أعرف كيف تسير السياسة هناك.

فأعطيته بسخاء جميع الصحف التي كنت أطوي فيها أحذيتي. وكان صاحب الفندق يوناني من "لاسيديمونيا"، له شوارب غزيرة، وكان يتحدث شيئًا من الإسبانية. وصحبنا بنفسه بكل احترام، بمعطفه الأسود المزيَّن بالزخارف، إلى غرفة الطعام قائلًا بلهجة إسبانية:

- إنها أجمل صالات طعام الشرق أيها السادة!

كان على الطاولة عود ضخم من الزهور القرمزية، وعلى زجاجة الزيت تجمعت أسراب من الذباب بشكل مألوف. وكانت قدم الخادم تتعثر كثيرًا في جريدة "ديباتس" القديمة الملقاة على الأرض منذ الأمس والملطخة بالنبيذ، والتي سارت عليها أقدام كثيرة أخرى. أمَّا السقف فقد أضاف الدخَان المتطاير من المصابيح المعدنية سحبًا سوداء إلى السحب الوردية، حيث ترفرف الملائكة وطيور السنونو. وتحت رواق الشرفة عزف الكمان والقيثارة مقطوعة "الماندولين"، وبينما كان "توبسيوس" يعُبُّ الجعة، انتابني شعورٌ غريبٌ، بأن حبي لأرض الكسل والضياء هذه يزداد.

وبعد القهوة، أخذ صديقي العلّامة وهو يضع قلم تدوين الملاحظات في جيب الجاكيت، يبحث عن قطع أثرية وأحجار من عهد البطالمة.

ناديت "ألبندرينا" وأنا أشعل سيجارًا؛ وأعلمته عن رغبتي التي لا تحتمل تأخيرًا في أن أصلّي وأن أحب. أمَّا الصلاة فمن أجل الخالة "باتروسينيو"، التي كانت قد أوصتنى بصلاة سهمية للقديس يوسف ريثما تطأ قدماي أرض مصر

منذ رحلة هـروب العائلـة المقدسـة عـلى مـتن حـمار، وهـي أرض مقدسـة كـأرض أي كاتدرائية، وأمَّا عن الحب فكان ضروريًّا لقلبي المتلهف الملتهب.

ورفع "ألبندرينا" الستائر بهدوء، وأراني ميدانًا فسيحًا يزينه في الوسط تمثال برونزي لفارس يمتطي حصانًا برونزيًّا، وكان النسيم الحار يثير الغبار الباهـت فـوق صـهريجين جافين. وحول الميدان ارتصت المبـاني الشـاهقة الزرقـاء، يرفـرف عـلى كـل منهـا علـم موطنها، كما لو كانت قلاعًا متناحرة على أرض مهزومة.

ثم أشار الخادم البائس إلى ناصية، حيث تبيع امرأة عجوز أعواد القصب.

- وفي شارع "الراهبتين" الهادئ ستجد..

وبدأ يهمس:

- سوف تجد يدًا خشبية ثقيلة بنفسجية خشنة، معلقـة فـوق مـدخل محـل سري صغير، وفوقها مكتوب بماء الذهب على لوحـة سـوداء هـذه العبـارة: "الآنسـة مـاري، قفازات وزهور من الشمع".

كان هذا هو الملاذ الذي نصحني به الرجل. وفي نهاية الشارع، بجـوار نـافورة ميـاه بين الأشجار، كانت هناك كنيسة صغيرة، حيث تجد روحي السلوى والراحة.

- وأخبر الآنسة ماري يا سيدي أنك قادم من فندق "الأهرامات".

وضعت وردة على صـدري، وغـادرت مسرورًا. وقبـل أن أدخـل شـارع "الـراهبتين" شاهدت كنيسة صغيرة للعذراء، جاثية ببراءة تحت أشجار الموز، يحيطها صـوت الميـاه العذب. لكن البطريرك الحبيب القديس يوسف كان بالتأكيد مشغولًا في هذه السـاعة بتلقي المزيد من الصلوات السهمية، تصـدر مـن شـفاه أكـثر نـبلًا، لم أرغـب في إزعـاج القديس الطيب. ووقفت أمام اليـد الخشـبية المطليـة بـاللون البنفسـجي التـي بـدت وكأنها تنتظر هناك، ممتدة ومفتوحة، لإثارة قلبي.

دخلتُ، متأثرًا. وخلف منضدة الرخام اللامعة، بجوار مزهرية من الورود والمجنوليا، كانت تقرأ جريدة "التايمز"، مع قطة بيضاء في حضنها، لكن ما أسرني فيها عيناها الزرقاوان الشاحبتان، وكانت زرقة عينيها كلون البورسلين، بسيطة بلون السماء، لم أرَ في لشبونة مثلها بين العيون السوداء. ولكن سحرها الأعظم كان في شعرها المجعد المموج، وكأنه من الذهب، كانت خصل شعرها حلوة ورقيقة لدرجة تتمنى معها البقاء للأبد بجانبها لتداعبها بأصابعك المرتعشة. وثمة هالة مشرقة لا تُقاوم حول وجهها الممتلئ، الأبيض كالحليب الذي يتلاشى فيحل محله لون قرمزي، كان وجهها حنونًا مثيرًا.. نظرت مبتسمة، وخفضت رموشها الداكنة وسألت إذا كنت أريد قفازات من شعر الماعز أو القفازات السويدي.

تمتمتُ وأنا أضع يدي على الرخام:

- أحمل لك تحية من "ألبندرينا".

اختارت برعمًا ورديًا خجولًا من الفرع، وأعطته لي بأطراف أصابعها؛ فأخذته منها في غضب. ويبدو أن شرارة هذه المداعبة كانت ترضيها، لأن حمرة الخجل ظهرت على وجهها، وقالت لي بصوت خفيض:

- أيها الشرير الصغير!

ونسيتُ القديس يوسف وصلاته السهمية، وانضمت أيدينا كي تجرب قفازًا خفيفًا عليَّ، ولم تفترقا بعد ذلك، طيلة تلك الأسابيع التي قضيتها في مدينة البطالمة، في حفلات مسلية!

كانت من "يورك"، هذه المقاطعة البطولية من إنجلترا القديمة، حيث تنمو النساء بقوة ونضارة، مثل زهور حدائقهن الملكية. وبسبب دلالها وضحكتها الذهبية عندما أدغدغها، أعطيتها اسمًا ضحوكًا مدللًا وهو "ماريكوكيناس".

أمَّا "توبسيوس" الذي كان يقدِّرها فكان يناديها "كليوباترا". كانت تحب لحيتي السوداء الكثيفة. وحتى لا أبتعد عن حرارة تنانيرها، تخليت عن رؤية القاهرة والنيل وأبو الهول الخالد القابع على باب الصحراء، مبتسمًا للإنسانية البلهاء.

كنت قد استمتعت بصباح لا يوصف وأنا ألبس البياض كالزنبقة، استندت على شرفة "ماري"؛ وأخذت أملس على ظهر القطة بوقار. كانت صامتة. لكن ابتسامتها البسيطة بذراعيها المطويتين، أو طريقتها اللطيفة في طيّ "التايمز"، كانت تملأ قلبي بفرحة وضّاءة.

لم يكن عليها حتى أن تدعوني بـ"طفلها البرتغالي الصغير الشجاع". كان يكفي أن يتمايل صدرها فقط لأرى تلك الهزة اللطيفة، وأعرف بأنها مشتاقة لقبلاتي. ومستعد لأن أذهب أبعد من ذلك، سيرًا على الأقدام، دون راحة، حتى عند منابع النيل!

في فترة ما بعد الظهيرة، في الحنطور المبطَّن بالقطيفة كنت أتجوَّل مع عالمنا "توبسيوس" جولات بطيئة ومحببة للنفس على شاطئ ترعة المحمودية، تحت الأشجار المورقة، بموازاة أسوار حدائق الحريم، أشم رائحة المجنوليا النفَّاذة، والعطور الدافئة الأخرى التي لم أكن أعرفها. في بعض الأحيان كانت زهرة أرجوانية أو بيضاء خفيفة تقع في حضني؛ كنت أتنهد وأنا أفرك لحيتي بالوجه الناعم لمحبوبتي "ماريكوكيناس"، وهي، بحساسية، ترتعش. وفي الماء كانت ترسو القوارب الثقيلة التي تصعد أعلى النيل المقدَّس الحميد، فتربط حبالها بالقرب من أنقاض المعابد، وتبحر بمحاذاة الجزر الخضراء حيث تنام التماسيح. شيئًا فشيئًا تميل الشمس فنمشي ببطء في الظل العبق. ويلقي "توبسيوس" أبيات شعر لـ"جوته". أمَّا أشجار النخيل فكانت ترسم بسعفها أشكالًا على الشاطئ الضحل للترعة في ساعة الغروب، كما لو كانت رُسمت بنقش نحاسي على لوحة ذهبية.

كانت "ماريكوكيناس" تتناول العشاء دائمًا معنا في فندق "الأهرامات". وكان "توبسيوس" على راحته أمامها؛ فقد كان يستعرض قطوفًا من علومه

اللطيفة. كان يحكي لنا عن أوقات العصر البهيجة في مدينة البطالمة القديمة، في الترعة المؤدية إلى مدينة "كانوب". فيقول:

- كانت كلتا الضفتين تعج بالقصور والبساتين البهية. أمَّا القوارب فكانت بمظلاتها الحريرية تتمايل على أنغام عزف الأعواد. وكهنة "أوزوريس" يرقصون وهم يلبسون جلود النمور، عند بساتين البرتقال؛ وعلى الشرفات كانت سيدات الإسكندرية يفتحن الستائر ويشربن نخب فينوس الآشورية في كؤوس على شكل زهرة اللوتس. كان رغد العيش يهذب النفوس. وكان الفلاسفة أنفسهم منغمسين في متع الحياة.

وقال "توبسيوس" وهو يحرك عينيه:

- لم يوجد في المدينة كلها سوى امرأة جادة. كانت تعلِّق على أعمال "هوميروس"، كانت عمة "سينيكا".

ردت "ماريكوكيناس" مندهشة:

- واحدة فقط! ما أحلى العيش في هذه المدينة، والإبحار إلى "كانوب"، في قارب مغطى بالحرير!

صرختُ بغيرة:

- دوني!

فأقسمت أنها دون فتاها البرتغالي الصغير الشجاع لا يحلو لها العيش ولا حتى في الجنة!

فدفعت حساب الشمبانيا، راضيًا.

وهكذا مرت الأيام، سراعًا، حلوة، رخوة، مليئة بالقبلات حتى جاءت عشية كئيبة ليوم الرحيل إلى القدس.

وقال "ألبندرينا" صباح ذلك اليوم وهو يلمِّع أحذيتي:

- يجب أن تمكث هنا، سيدي، في الإسكندرية كي تروِّح عن نفسك.

آه! لو كنت أستطيع، لكن أوامر "تيتي" واجبة النفاذ! ومن أجل عيون ذهبها، وجب عليَّ أن أذهب إلى القدس الكئيبة، كي أركع أمام أشجار زيتون جافة، وأصلي صلوات ورعة في كنف أضرحة باردة.

وسألته وأنا أطوي سراويلي بأسى:

- هل سبق لك أن زرت القدس يا "ألبندرينا"؟

- لا يا سيدي، لكنني أسمع عنها، فهي أسوأ من براج؟

- يا للهول!

ثم خيَّم الصمت علينا ساعة العشاء مع "ماريكوكيناس" في غرفتي، تقطعه التنهدات. كانت الشموع حزينة كالمشاعل، وكان الخمر غائمًا كالذي يُشرب في الجنازات. أمَّا "توبسيوس" فقد كان يواسينا بشدة.

- أيتها السيدة الجميلة، أنت يا جميلة، "رابوزو" سوف يعود، فأنا متأكد أنه سوف يعود من أرض سوريا الحارة، من أرض فينوس وأرض زوجة سفر "نشيد الأنشاد" - والذي يحكي عن قصة غرام بين رجل وامرأة تُدعى "سولميت" - بلهيب في قلبه أكثر اشتعالًا وأكثر جنونًا.

أما أنا فكنت أعض على شفتي مختنقًا:

- حسنًا، أتعرفون! ما زال يمكننا أن نتجول بالحنطور عند المحمودية. سوف يستغرق ذلك منا فقط ما تستغرقه صلاة واحدة، أبانا الذي في السماوات. سيكون ذلك جيدًا لي. سأعود مثل الثور.

وبعد القهوة ذهبنا إلى الشرفة لنستريح ونتأمل، في صمتٍ، تلك الليلة الساحرة من ليالي مصر. كانت النجوم مثل سحب الضوء الكثيف التي رفعها الله في السماء، فصارت تتجول في دروب السماء.

كان الصمت مهيبًا كجلال بيت القربان المقدس. وفي الشرفات السفلى المظلمة، كانت هناك أشباح بيضاء تتحرك، مما ينبئ عن أن هناك أناسًا مثلنا كانوا يمتعون أرواحهم في صمت ببهاء النجوم، وبهذا التدين المنتشر، كحشود مشدوهة ببريق المذبح الكبير، وشعرت بحلاوة "السلام عليكِ يا مريم" تتسرب إلى شفتي بطريقة لا تقاوم.

وعلى البعد، كان البحر هادئًا. وكنت أميِّز الوهج الدافئ للنجوم على بيت صغير معزول، أبيض رومانسي بين اثنين من أشجار النخيل، على لسان من الرمال يكاد يختفي تحت الماء، وهكذا بدأت تراودني فكرة أنه بعد موت "تيتي" وبعد أن يصير ذهبها لي، أن أشتري هذا المكان المنعزل الجميل، وأن أملأه بالحرير الثمين وأن أعيش بجانب حبيبتي بائعة القفازات، وأن ألبس ثيابًا كالأتراك، وأعيش منتعشًا، وهادئًا ومتحررًا من كل هموم الحضارة. أمَّا إرضاء قلب يسوع المقدس فلن أكترث به، مثل الحروب التي يخوضها الملوك فيما بينهم، ولن أهتم بشيء في السماء إلا بالضوء الدائري الذي سينير نوافذ بيتي، ولن أهتم بشيء من الأرض إلا بالزهور المتفتحة في حديقتي كي أزيد بها فرحتي. وسوف أقضي أيامي في الكسل الذي يميز أهل الشرق، مدخنًا تبغ "لاتاكيا" النقي، وأعزف الفيولا الفرنسية، وأنهل من هذه السعادة الأبدية الكاملة، التي تغمرني بها "ماري" عندما تترك صدرها يهتز وتناديني "حبيبها البرتغالي الشجاع".

واحتضنتها عندما انتابتني رغبة برشفها. وعند أذنها البيضاء بياض الأصداف، همست بصفات يعجز عنها الوصف، قلت لها "ممتلئة"، وقلت لها "الذيذة" وكانت ترتعش، ورفعت عينيها الساحرتين إلى السحابة الذهبية، وقالت:

- يا لها من نجوم! لو شاء الرب ستكون أمواج البحر هادئة غدًا!

عندئذٍ، اختنق صدري من فرط الحزن الشديد، عندما تخيلت تلك الأمواج الطويلة التي ستحملني إلى أرض الإنجيل القاسية، بعيدًا عن حبيبتي "ماري"، وخرجت من شفتَي أصوات شاكية متهدجة في آهات منغمة.

وغنيت. وعلى الأسطح الخاملة في الإسكندرية المسلمة، أطلقت صوتًا متألمًا إلى عنان السماء. وفركت بأصابعي على السترة، عند الصدر حيث تكون الفيولا معلقة، وأطلقت آهاتي الباكية، وتغنيت متنهدًا بأغنية "الفادو" الأكثر حزنًا في التعبير عن المشاعر البرتغالية:

"تبقي هنا أنتِ ومعك روحي،

وأرحل عنكِ مصحوبًا بآهاتي،

وكل شيء حولي باسمكِ ينادي،

ومرة أخرى، هيهات أن أراكِ"..

ووقفت، يملؤني الشوق. وتساءل عالمنا "توبسيوس" عمَّا إذا كانت تلك الأبيات الجميلة من نظم "لويس دي كامويس". قلت له، بصوت باكٍ، إن هذه الأبيات سمعت بها في "الميت" للشاعر "كلسينياس". وانحنى "توبسيوس" ليكتب ملحوظة عن "كلسينياس" الشاعر الكبير. أغلقت النافذة وبعد الدخول إلى الممر رسمت متخفيًا وبسرعة علامة الصليب، ثم فككت، وللمرة الأخيرة، رباط سترة حبيبتي اللذيذة.

سريعة ومختصرة جدًّا، مرت هذه الليلة المرصعة بالنجوم في مصر!

وفي الصباح الباكر، رأيت بمرارة اليوناني قادمًا من شركة "لاسيدومونيا" ينذرنا بأن الباخرة المسماة "التمساح" دخلت الخليج وأطلقت دخانها، وعرة ومليئة بالرياح، وأنها سوف تحملنا إلى أحزان إسرائيل. كان السيد

"توبسيوس" الذي اعتاد النهوض مبكرًا، في الطابق السفلي بالفعل لتناول إفطاره من البيض ولحم الخنزير وكأس كبيرة من البيرة. أخذت فقط رشفة من القهوة، في غرفة النوم، على طرف خزانة الأدراج، دون سترة، وعيوني الحمراء غارقة تحت سحابة من الدموع. كانت حقيبتي الجلدية الصلبة تثير ضجيجًا بالممر، مغلقة ومحزومة. لكن "ألبندرينا" كان لا يزال يرص على عجل، ملابسي المتسخة في حقيبة من القماش. و"ماريكوكيناس"، تجلس يائسة على حافة السرير، تزينها قبعتة لطيفة من الخشخاش، وقد تلون تحت عينيها بلون داكن، وأخذت تتأمل هذه الكومة من الملابس، كما لو كانت قطعًا من قلبها ألقيت في الجزء السفلي من الحقيبة لترحل دون رجوع!

- تحمل الكثير من الملابس المتسخة، "تيوديريكو"!

همست وهي ممزقة:

- ابعث بها كي تُغسل في القدس، بمساعدة الرب!

وضعت أحجبة البركة في عنقي. وفي هذه الأثناء أطل "توبسيوس" على الباب وهو يدخن ويعلق مظلته على ذراعه، ويلبس في رجله "بوت" برقبة طويلة وواسعة لتحميه من بلل الرصيف عند مؤخرة السفينة، ونسخة من الإنجيل يلفها بسترة من صوف القــرْمَل.. ولما رآني دون سترة، وبخني على كسل المحبين.

وجامل "ماريا" مجاملة رقيقة، ونظارته على طرف أنفه:

- فهمت، بسبب السيدة الجميلة، فهمت! إنه لمؤلم ترك أحضان كليوباترا.. التي خسر أنطونيو روما والعالم من أجلها. أنا نفسي، رغم أني مستغرق في مهمتي، وعندي جوانب معتمة من التاريخ أريد أن ألقي الضوء عليها، فإني أحمل ذكريات جميلة لهذه الأيام في الإسكندرية. كم كانت رائعة جولاتنا عند المحمودية.. اسمحي

لي أن آخذ قفَّازاتك، سيدتي الجميلة! وإذا عدت إلى أرض البطالمة هذه، فلن أنسَ شارع "الراهبتين"، و"الآنسة ماري، قفَّازات وزهور الشمع".

- تمامًا.. أعدك بأن أرسل لك نسخة من كتابي عن تاريخ البطالمة عند اكتماله.. هناك تفاصيل مثيرة جدًّا.. عندما وقعت "كليوباترا" في حب "هيرودس" ملك "يهودية".

لكن "ألبندرينا" صاح من عند حافة السرير:

- سيدي! لا تزال هناك ملابس متسخة!

ولما بحث بين البطانيات المطوية، اكتشف قميصًا طويلًا من الدانتيل بأربطة من الحرير الخفيف. هزه ففاحت منه رائحة شيقة من البنفسج والحب.

يا ويلي! إنه قميص نوم "ماري" ولا يزال دافئًا من أثر العناق!

- إنه يخص السيدة "ماري"! هذا قميصك، حبيبتي! وأنا أربط الحمالات.

ونهضت حبيبتي بائعة القفازات، ترتجف، وقد شحب لونها، وظهرت على ملامحها عواطف شاعرية. وطوت قميصها وجذبتني من ذراعي، وأعطتني القميص بحماس شديد، كما لو كانت أودعتني قلبها بين طيَّاته.

- أعطيك هذا، "تيوديريكو"! خذه، "تيوديريكو"! إنه لا يزال مجعدًا من أثر ليلتنا! خذه كي تنام وهو بجانبك وكأنه أنا. انتظر، انتظر قليلًا، حبيبي! أريد أن أكتب لك كلمة، إهداء!

وأسرعت ناحية الطاولة حيث كنت أضع ما تبقى من الورق الذي كتبت فيه إلى "تيتي" قصص الصوم المليئة بالصلاح والتقوى في الإسكندرية، وعن الليالي التي أقضيها أنهل من الإنجيل، أمَّا أنا، والقميص المعطر بين ذراعي فأحسست بدمعتين تفران على وجنتي وعلى ذقني، أخذت أبحث بفارغ الصبر عن مكان

أخزِّن فيه تذكار الحب الثمين؛ فقد كانت الحقائب مغلقة. وكان كيس القماش مكتظًا. ولكن محبوبتي لوحت بالورقة، تملؤها الحروف التي خطتها، كبيرة، ملتهبة وصريحة كحبها: "إلى حبيبي "تيوديريكو"، البرتغالي الصغير القوي، تذكارًا لكل ما استمتعنا به".

- يا حبيبتي! وأين من المفترض أن أضعه؟ لن أحمل القميص في يدي هكذا، مكشوفًا!

كان "ألبندرينا" جاثيًا على ركبتيه يرتب كيس القماش وقد استولى عليه اليأس؛ فأخذت "ماريكوكيناس"، بإلهام دقيق، ورقة من الورق البني، والتقطت شريطًا أحمر من الأرض. وجعلت يديها الماهرتين كبائعة قفازات من القميص لفة دائرية - مريحة للعين، وأنيقة - وضعتها تحت ذراعي، بشغف ملتهب وحرص كبير.

ثم انخرطنا في همس متقد من النشيج، والقبلات الناعمة.

- "ماري"، ملاكي الحبيب!

- "تيوديريكو"، حبي!

- اكتبي لي في القدس.

- تذكَّر قطتك الجميلة.

نزلت على الدرج، مسرعًا. وانطلق بي الحنطور الذي طالما تجولنا فيه، متأبطًا ذراع "ماري"، عند بساتين المحمودية العطرة، على وقع أقدام زوج من الخيل الأبيض، يقتلعني من السعادة التي مد قلبي بجذوره فيها، تلك الجذور التي تمزقت الآن وتقطر دمًا في صدري الصامت. بدأ السيد "توبسيوس" المختفي تحت المظلة الخضراء من جديد، يتململ، ويتمتم بكلمات من الطلسمات العتيقة: "هل عرفت إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى ميناء الإسكندرية

العتيق، الـذي بنـاه أول البطالمـة لـيربط الشـاطئ بجزيـرة "فـاروس"، التـي أشـاد بهـا "هوميروس" في أشعاره!". لم أسمعه حتى، متكئًا على مقعد الحنطـور، ملوحًـا بمنـديلي المبلل بدموعي.

وكانت "ماريكوكيناس" الجميلة، عـلى بـاب الفنـدق، إلى جـوار "ألبنـدرينا"، تتـألق تحت القبعة المزهرة من الخشخاش، تلـوِّح أيضًـا بمنـديلها الأنيـق المـداعب.. وتقابـل هذان المنديلان الأبيضان في الهواء الدافئ، فباحا لبعضهما بلهيب قلبينـا. ثـم سـقطت على الوسادة القطنية، كالجثة الهامدة.

ومـا إن صـعدنا إلى "التمسـاح" حتـى أسرعـت إلى حجـرتي أجـتر آلامـي. وكـان "توبسيوس" ما زال يمسك بذراعي كي يريني مواقع من آثار البطالمة العظيمـة، وميـناء "العود الأحمد"، و"شرم الرخام" حيث كانت ترسو عليه قـوارب "كليوبـاترا". وهربـت، وتعثرت على الدرج وكدت أن أتـدحرج عـلى أخـت في جمعيـة خيريـة، كانـت تصعد السلم، خجولة، ومسبحتها في يدها. وهمست: "عذرًا يا قديستي". وأخيرًا سقطت على سريري، وارتميت باكيًا، فوق لفة الورق البنية. وكانت هي كل مـا تبقـى لي مـن هـذه المشاعر التي لا يضاهيها شيء في روعتها، في أرض مصر.

ومر يومان وليلتان قبل أن ترسو "التمساح" على شاطئ بحر "صور". وكنت أرفض زاهـدًا، ملتحفًـا غطـائي، ومحتضـنًا لفافـة "مـاري" في صـدري، البسـكويت الـذي كـان "توبسيوس" المتواضع يحضره لي. ولم أكن أعيره اهتمامًا عندما يحدثني دون ملـل عـن تلك المعلومات من قبيل أن المصريـين القـدماء كـانوا يسـمون هـذا البحـر بــ"الأخضر الكبير"، وكنت أبحث دون جدوى، في الذاكرة، عـن أجـزاء متفرقـة مـن صـلوات كنـت أسمعها من "تيتي"، لترويض الأمواج الهائجة.

وذات مساء، عند الغسق، أغمضـت عينـي، وبـدأت أشـعر وكـأني أقـف عـلى أرض صــلبة، أرض صــخرية، حيــث رائحـــة الروزمـــاري تعبـــق الأرجـــاء؛ ووجـــدت

نفسي دون أن أعرف السبب، أصعد تلة خضراء مع "أديليا" والشقراء "ماري" التي خرجت من صُرّة وضاءة نَـديّة، دون أن تربط حتى شريط قبعتها!

ثم، من خلف صخرة، ظهر لنا رجل عارٍ، ضخم، ظهر عليه السواد، وله قرنان. تتلألأ عينه، حمراء مستديرة كزجاج الفوانيس؛ وله ذيل طويل بلا نهاية، كان يزحف على الأرض زحف ثعبان غاضب على أوراق جافة. دون توخي الحذر، سار بصعوبة إلى جانبنا دون سلام. أدركت جيدًا أنه كان الشيطان. لكنني لم أشعر بانزعاج ولا خوف منه. ألقته "أديليا"، الشرهة، بنظرات غير مباشرة معجبة بقوة عضلاته. قلتُ بسخط: "خنزيرة، حتى الشيطان لم يفلت منك؟".

وهكذا سرنا، حتى وصلنا إلى قمة التل، حيث كانت نخلة تختال فوق هاوية يملؤها الصمت والظلمات. وتكشفت السماء أمامنا، في الأفق، كقطعة قماش صفراء واسعة. وعلى هذه الخلفية الزاهية بلون صفار البيض برز تل شديد السواد، وعليه ثلاثة صلبان صغيرة متراصة، رقيقة وعلى شكل واحد. ثم بصق الشيطان، وغمغم، وهو يجذبني من ذراعي: "الذي في المنتصف هو يسوع، ابن يوسف، الذي يدعونه أيضًا بالمسيح، وقد حان وقت الاستمتاع بالصعود".

وبالفعل! اقتلع الصليب الذي في المنتصف، ذلك الذي يمثل المسيح، من التلة، مثل شجيرة تقتلعها الريح، وبدأ في الصعود ببطء، وأخذ يتعاظم ويملأ السماء. وفجأة خرجت أسراب الملائكة تطير في الفضاء كي تمسك به، مسرعين مثل الحمائم عندما تتداعى إلى الحبوب. وأخذ بعضهم يسحبونه من الأعلى، بحبال طويلة من الحرير رُبطت في المنتصف؛ والبعض الآخر إلى أسفل، ونحن نشاهد جهد ذراعيه المنتفختين الزرقاوين. ومن وقت لآخر، تسيل قطرة دم كبيرة جدًّا مثل الكرز الناضج. وإذا بالملاك "ساروفيم" يجمعها في يديه ويضعها على الجزء الأعلى من السماء، حيث تبقى معلقة وتتلألأ كالنجم الساطع. وكان رجل

هرم بجلباب أبيض، لم نستطع تمييز ملامحه، في سماء ملبدة بالغيوم ونتف من اللحي الثلجية، يقود، وهو مشدود بين السحاب، مناورات الصعود، بلغة شبيهة باللاتينية هادرة كصوت مئة عربة من عربات القتال. وفجأة اختفى كل شيء. وقال الشيطان وهو ينظر إليّ مستغرقًا في التفكير:

"كل شيء انتهى، يا صديقي، إله آخر، ودين آخر، سينتشر الملل الذي لا يوصف في الأرض والسماء".

ثم أخذني الشيطان نزولًا من التل، وبدأ يحكي مبتهجًا عن الطقوس والأعياد والأديان التي ازدهرت في شبابه. بطول هذا الساحل الأخضر الكبير، من "بيبلوس" إلى "قرطاج"، ومن "أبيدوس" إلى "منف"، كانت الأرض مليئة بالآلهة. كان البعض منبهرًا من كمال جمالها، والبعض الآخر من طريقة تعقيد شجاعتها، لكن كلهم كانوا ينخرطون في حياة البشر، كي يضفوا عليها الطابع المقدس؛ فكانوا يسافرون في عربات منتصرة، وكانوا يستنشقون الزهور، ويشربون الخمور، ويفضّون بكارات العذارى الناعسات. وهذا هو السبب في حبهم هذا الحب الذي لن يعود أبدًا.. وكانت الشعوب المهاجرة يمكن أن تتخلى عن مواشيها أو أن تنسى الأنهار التي يشربون منها، لكنهم كانوا يحملون آلهتهم بحنان في أحضانهم. وسألني: " يا صديقي، ألم تذهب إلى بابل قط؟".

هناك، كانت كل النساء، سواء كنّ أبكارًا أو عقيلات، يأتين في يوم من الأيام طلبًا للبغاء في بساتين مقدسة، تكريمًا للإلهة "ميليتا". كانت الغنيات منهن يأتين في مركبات مرصّعة بالفضّة، يجرها زوج من الجاموس، ويرافقهن العبيد. أمَّا الفقيرات فكن يأتين بحبل مربوط حول رقابهن.. البعض منهن يمُدَّن سجادة على العشب، ويركعن عليها مثل الماشية الصبورة. والبعض الآخر مشدودات القوام، عرايا، بيض البشرة، يُخفين رؤوسهن في خُمُر سوداء، كن كالرخام الرائع بين جذوع شجر الحور. وكن جميعهن ينتظرن أن يقول أحدهم، وهو

يرمي عملة فضية عليهن: "باسم فينوس!" فيتبعنه في الحال، سواء كان أميرًا قادمًا من "سوسا" بتاج من اللؤلؤ، أو تاجرًا يُبحِر في الفرات في قاربه الجلدي؛ وكنّ طوال الليل في ظلام الفروع يزمجرن منتشيات من طقس السِفاح. ثم أخبرني الشيطان عن محرقة الإله الكنعاني القديم "مولوخ" للبشر، وأسرار الإلهة "فينوس" الطيبة التي كانت تروى فيها الزنابق بالدم، والجنازات النارية لـ"أدونيس".

وتوقف، ضاحكًا، وسأل: "يا صديقي، ألم تزر مصر قط؟". قلت له إنني كنت هناك والتقيت "ماريكوكيناس" هناك. فرد الشيطان بأدب:

"لم تكن "ماريكوكيناس"، بل كانت إيزيس!". عندما كانت تصل الفيضانات إلى "ممفيس"، كانت القوارب المقدسة تغطي المياه. وكانت الفرحة البطولية، تتجه إلى الشمس، تجعل الرجال مساوين للآلهة. "أوزوريس"، بقرون ثور، يضاجع "إيزيس". ووسط العزف على القيثارات النحاسية، يسمع زئير الحب للبقرة المقدسة في جميع أنحاء النيل.

ثم أخبرني الشيطان كيف أن أديان الطبيعة أشرقت، حلوة وجميلة، في اليونان.. هنا كان كل شيء أبيض، مصقولًا ونقيًّا ومضيئًا وهادئًا.

كانت التماثيل الرخامية تشع تناسقًا، وكذلك دستور المدن، وبلاغة الأكاديميات ومهارة الرياضيين؛ بين جزر "إيونيا"، التي تطفو في صمت البحر كسلال للزهور، كانت حوريات الماء تتعلق بحافة السفن للاستماع إلى قصص المسافرين؛ وكانت ربات الإلهام واقفات يغنّين في الوديان. وكان جمال "فينوس" بمثابة تجسيد لجمال اليونان.

لكن بظهور هذا النجار في "الجليل"، سرعان ما انتهى كل شيء! صار وجه الإنسان شاحبًا إلى الأبد، يملؤه التقشف. صليب داكن، يسحق الأرض، يطفئ

بهاء الورود، ينزع الطعم عن القُبلات؛ وصارت الأشكال البشعة شيئًا محببًا للإله الجديد.

ولما رأيتُ إبليس حزينًا، حاولت تهدئته: "فليكن، فالعالم ما زال به الكثير من الخيلاء، والكثير من الدعارة، والكثير من الدم، والكثير من الغضب، فلا تحزن على محرقة "مولوخ"، فلا بدَّ وأن هناك محارق لليهود!".

فقال وهو مندهش: "أنا؟ هؤلاء أو أولئك، لا يهمني أمرهم يا "رابوزو"، هم يجيئون ويروحون، أما أنا فباقٍ!" وهكذا، دون أن يلحظني أحد، وأنا أتحدث إلى الشيطان، وجدت نفسي في ميدان "سانتانا". كان الشيطان ينتزع الأوراق من فروع إحدى الأشجار، سمعت صياحًا بجانبي فجأة: "انظروا، "تيوديريكو" مع الخنزير القذر". استدرت، ورأيت "تيتي"! كانت غاضبة ورهيبة، وواقفة لتضربني بكتاب القداس! فاستيقظتُ، غارقًا في عرقي.

صاح "توبسيوس" فرحًا على باب الحجرة:

- انهض، "رابوزو"! فلسطين على مرمى البصر!

توقفتْ "التمساح". في أثناء هذا الصمت، شعرتُ بالموج يداعب جانبيها، بخفة. لماذا حلمتُ وأنا أقترب من القدس بالآلهة الزائفة، ويسوع المنتصر، والشيطان الثائر على الجميع؟ ما الوحي الأعظم الذي أعدَّه الرب لي؟

وأزحت الغطاء عني. مذهولًا، متسخًا، لكنني لم أفلت حزمة "ماري" الثمينة. تسلقتُ إلى سطح السفينة، وأنا أتدثر معطفي. وغمرني نسيم عذب قويٌ ورائعٌ ليجلب لي رائحةً الجبل ورائحة من زهر البرتقال. وصمتُ البحر، بلونه الأزرق، في نضارة الصباح. وتراءت أمام عيني الشريرة أرض فلسطين، الرملية المنخفضة. بدت لي مدينة مظلمة، تحيط بها أشجار مثمرة، تغطيها من أعلى أسهم الشمس التي تشع مثل أشعة قديس يتلألأ.

- "يافا"!

صاح "توبسيوس"، وهو يهز غليونه الخزفي:

- هناك سيد "رابوزو"، أمامك، أقدم مدينة في آسيا، وكانت قديمًا تُدعى "جيبو"، قبل الطوفان!

خلعتُ قبّعتي تحية لهذه العجوز الأزلية، المليئة بالأساطير وبالتاريخ.. لقد كان نوح البهي هنا يبني الفلك!

فتابعته بدهشة:

- اللعنة! ما كدنا نصل حتى ظهر لنا الدين وقصصه!

وبقيتُ مكشوف الرأس لأن "التمساح"، الراسية أمام الأرض المقدسة، أصبحت مثل كنيسة صغيرة مليئة بأعمال الورع والتقوى، ومر علينا كاهن من كهنة الإرساليات، في عباءة طويلة، خاشعًا يقرأ في كتاب صلواته. وكانت اثنتان من الراهبات، تتغطيان بسترتين سوداوين، تسبِّحان بأصابعهما الشاحبة على حبات مسبحتيهما.

وعلى جميع أنحاء سور السفينة الرطب، وقف الحجيج من الحبشة والكهنة اليونانيين ذوي الشعور الطويلة الخشنة من الإسكندرية، وأخذوا ينزلون إلى أرض "يافا"، ببيوتها المتراصة، تحيطها الشمس كما لو كانت تنير بيت القربان المقدس، وأخذ جرس مؤخرة المركب يدّق، وسط نسيم البحر المالح في عذوبة مباركة تذكرك بجو القداس.

ولكن عندما رأيتُ قاربًا صغيرًا وداكنًا يبحر ناحيتنا قفزتُ من سريري وارتديت خوذة الفلين، وقفازي الأسود حتى تطأ رجلاي أرض مخلصي وأنا في أبهى حلتي. ولما رجعت أنيقًا تفوح مني رائحة العطر، وجدتُ القاربَ ممتلئًا. نزلت وسط الضجيج خلف أحد الآباء الفرانسيسكان الملتحين، فوقعت مني

لفافة "ماري" المحبوبة من بين أحضاني الحانية، وتدحرجَتْ في قفزات متتالية على الدرج، حتى لمست حافة القارب. كانت على وشك الغرق في المياه المرة! صرختُ! التقطتها بخفة واحدة من الراهبات يملؤها العطف والرحمة.

وصحتُ:

- لك الشكر، سيدتي!

صرخت:

- إنها قطعة صغيرة من الملابس! في حب مريم المقدس!

فغطت نفسها بتواضع بعباءتها، وبينما ذهبتُ بعيدًا لأجلس بين "توبسيوس" والفرانسيسكاني الذي كانت تفوح منه راحة الثوم، وضعت تلك المخلوقة المباركة اللفافة في حضنها الطاهر، وأخذت تسبح فوقها بحبات المسبحة.

وصاح قبطان القارب وهو يمسك الدفة بيده:

- أفسحوا!

وكان العرب يجدفون وهم يغنون. وسطعت الشمس خلف "يافا". وأنا، متكئ على مظلتي، أفكر في الحفاوة الدينية التي حملت بها قميص "ماري"، إلى أرض العفَّة. كانت شابة، ومن بين طيات الزي الأسود الحزين بدا وجهها البيضاوي كقطعة من العاج، حيث رسمت رموشها الطويلة ظلالًا من الحزن عليه. كانت شفتاها قد فقدت كل الألوان وكل الحرارة، وأصبحت عديمة الجدوى إلى الأبد، بعد أن تخصصت في تقبيل أقدام زهرية لتمثال إله.

مقارنة بـ"ماري"، زهرة يورك الحساسة المتفتحة، التي تعطر أرجاء الإسكندرية، كانت هذه الراهبة مثل زنبقة لا تزال مغلقة وتذبل بالفعل في رطوبة كنيسة صغيرة. لا بدَّ وأنها كانت ذاهبة إلى أحد التكايا في الأرض

المقدسة. ولا بدَّ أن حياتها كانت عبارة عن جروح متتالية تعمل على تغطيتها بالخيوط والضمادات، ووجوه موتى يتوجَّب عليها تغطيتها، ولا بدَّ أن الخوف من الرب هو السبب في شحوب لونها هكذا.

وهمستُ:

- حسنًا، إنها حمقاء!

يا لها من مخلوقة ضعيفة عقيم! هل يمكن أن تكون قد لاحظت ما كان في اللفافة البنية؟ هل شمّت رائحة عطر غريب فوّاح برائحة الفانيليا ورائحة بشرتها العطرة تفوح من هناك، وتنتشر في ظلمة غطاء عباءتها؟ أو أحست بدفء السرير الهائج الذي تسرب إلى قميص النوم وهو يخرج عبر الورقة ليدفئ ركبتيها بلطف؟ من يدري! للحظة، بدا لي أن حمرة الدم ارتفعت إلى وجهها، وتحت هذه العباءة، حيث يلمع الصليب، ثار نهداها واضطربا. حتى ظننت أنني رأيت شعاعًا مارقًا مذعورًا خرج من بين رموش عينيها، بحثًا عن لحيتي السوداء الكثيفة، لكنها كانت مجرد لمحة. ومرة أخرى، أسفل غطاء رأسها، سقط وجهها في برودة الرخام المقدس. وعلى صدرها الخاشع جثم الصليب المعدني الغيور. وبجانبها، ابتسمت الراهبة الأخرى، وهي فتاة بدينة ترتدي نظَّارة، وتنظر ناحية البحر المخضر، وناحية "توبسيوس" الحكيم. ابتسامة صافية تنبعث من سلام قلبها، رسمت على ذقنها نغزة.

وما إن قفزنا على رمال فلسطين، حتى ركضتُ شاكرًا، والخوذة في يدي. فارسًا أنيقًا.

- أختي، أنا متشكر جدًّا. كانت مصيبة لو فقدت هذه اللفافة الصغيرة! إنها تخص خالتي. بعثت بها للقدس. إن "تيتي" تحترم بشدة كل ما هو مقدس، كل ما يخص الكنيسة والأعمال الخيرية.

صامتة، تحت غطاء عباءتها، أعطتني اللفافة بأطراف أصابعها الضعيفة الشفافة كأصابع سيدة الآلام. واختفت العباءتان السوداوان وسط جدران بهية من الجير الجديد، في زقاق فوق درج سلم، حيث جفت جثة كلب تحت كومة من الذباب. فتمتمت من جديد:

- حسنًا، حمقاء!

عندما أدرت رأسي، رأيت "توبسيوس"، تحت ظل شمسيته، يتحدث إلى رجل خدوم كان هو الدليل الذي سيرشدنا عبر أراضي الكتاب المقدس. كان شابًا ذا شعر داكن، وله شوارب طويلة ترفرف في مهب الريح. كان يرتدي سترة من القطيفة وأحذية ركوب بيضاء. ومقبضا مسدسين فضيين يظهران من حزام صوفي أسود، يزين بهما صدره القوي. ارتدى عمامة من الحرير الأصفر على رأسه، يتدلى طرفاها وحاشيتها إلى الخلف. كان اسمه "باولو بوت". موطنه الجبل الأسود. وكان كل ساحل سوريا يعرفه باسم "بوت المرِح". يا إلهي، يا له من فتى سعيد! كان المرحُ يطل من عينيه الزرقاوين، ومن أسنانه التي لا مثيل لها. والفرح ينبع من يديه الصاخبتين. وكانت السعادة تُسمع في وقع أقدامه المدوية على الأرض.

من "عسقلان" إلى بازارات دمشق، ومن الكرمل إلى بساتين "إنغادا" - كانوا ينادونه "بوت المرح". عرض عليَّ علبة سجائر معطرة. وكان "توبسيوس" معجبًا بمعارفه التوراتية. أمَّا أنا، وبطني تتضور جوعًا. صرختُ فيه: "يا أخ!"، وبعد أخذ وردٍ كثير، ذهبنا إلى فندق "جزافات" للتوقيع على عقدنا معه وشربنا الكثير من البيرة.

وسرعان ما نظَّم "بوت المرِح" رحلتنا إلى مدينة الرب. حمل فتى الأمتعة. كان الحوذي عربيًا، ويلبس عباءة من القماش الأزرق، وكان شديد الظرف والبهاء لدرجة أنني كنت لا أقاوم الرغبة المستمرة في ملاطفة من نظرات عينيه

السوداء. ولدواعي الرفاهية في الشرق، رافقني رجل عجوز بـدوي، مـريض بنزلـة بـرد مزمنة، يلبس عباءة من صوف الإبل مخططة باللون الرمادي، ويحمل رمحًا قويًّا صدءًا تزينه الشراشيب.

ووضعتُ في الخُرْج اللفافة التي بها قميص "ماري"؛ وركب "توبسيوس" على السرج بعد إطالة الركاب ليناسب رجليه الطويلتين، أما "بوت المرح" فقد هز سوطه في الهواء، وأطلق صرخة كصرخات الحروب الصليبية عندما قالها ريتشارد قلب الأسد: "إلى الأمام، إلى القدس كما أراد الرب!". ومشى الركب مهرولًا، والسيجار مشتعلًا في أيدينا. غادرنا "يافا" عبر بوابة السوق، عندما دقت الأجراس بلطف معلنة عن صلاة الغروب في تكية "الآباء اللاتينية".

في ضوء العصر الهادئ، امتدت الطريق بين الحدائق والبساتين والأشجار المثمرة، وأشجار البرتقال والنخيل. الأرض الموعودة، المتألقة المحبوبة. وعبر أسوار من نبات الآس العطري تنامت إلى أسماعنا موسيقى خرير الماء، وكان الهواء له حلاوة لا توصف، كما لو كان أُعد خصيصى ليتنفس منه شعب الله المختار، كانت رائحته خليطًا من أشجار الياسمين والليمون. وكان الأزيز السلمي المتصل للسواقي قد بدأ في النعاس في نهاية يوم كامل من الري، بين أشجار الرمان المزهرة. وكان هناك نسر عظيم يطير عاليًا وهادئًا على خلفية من سماء زرقاء.

وطلبًا للراحة، توقفنا عند ينبوع من الرخام الأحمر والأسود، تحت ظل الجميز حيث كان اليمام يزوم. وبجانبه نُصبت الخيام، حيث العشب كالسجاد، فُرشت عليه آنية مليئة باللبن والعنب. وحيّانا الرجلُ العجوز ذو اللحية البيضاء الذي كان عند النبع. حيًّانا باسم الله، كان نبيلًا كالبطريرك تمامًا. وكانت الجعة قد جعلتني عطشًا، فقدمت لي فتاة جميلة، مثل "راحيل" زوجة يعقوب وأم يوسف، الماء من إبريق على طريقة الكتاب المقدس، وهي مبتسمة،

وصدرها مكشوف، وقرط طويل من الذهب يداعب وجهها الخمري، وتجر خلفها خروفًا صغيرًا أبيض اللون أليفًا.

ووصلنا سهل شارون - الذي وصفه الإنجيل بأنه كان مملوءًا بالورود - عند الغروب، كانت السماء صافية ذهبية. وقطع الصمتَ صياحُ قطيع من الماعز السوداء كان يرعاها عربي عارٍ كالقديس يوحنا. وفي الأفق، لاحت لنا تلال "يهودية" المشؤومة، وقد مالت عليها الشمس حتى غرقت في بحر "صور"، وبدت لنا جميلة زرقاء تملؤها الفتنة من بعيد، مثل أوهام الخطيئة. ثم أظلم كل شيء. وظهر نجمان ساطعان سطوعًا لا نهائيًّا؛ وسارا أمامنا ناحية أسوار القدس.

كانت غرفتنا في فندق "البحر المتوسط" في القدس، سقفها مدهون بالجير الأبيض، وأرضيتها الحجرية تشبه صومعة خشنة في أحد الأديرة. ولكن بجانب النافذة كان الحائط رقيقًا، ومغطى بالفروع الزرقاء، ويفصلنا عن الحجرة المجاورة، التى جاء منها صوت شجي يدندن بأسطورة ملك "توله". وهناك، أحسست بالراحة وبالحضارة، ورأيت خزانة من خشب الماهوجني اللامع، فتحتها، كما يُفتح صندوق النفائس، لأضع به لفافتي الغالية.

اختفى السريران الحديديان الصغيران تحت طيات ستائر التل الأبيض. وفي المنتصف كانت هناك طاولة من خشب الصنوبر، حيث كان "توبسيوس" يفحص عليها خريطة فلسطين، بينما كنت مرتديًا حذائي وأتجول وأبرد أظافري. كان يوم الجمعة المقدَّس الذي يحتفل فيه المسيحيون بالشهداء الأبرار لمدينة "إيفورا".

كنا قد وصلنا بعد ظهر ذلك اليوم، تحت المطر الحزين القليل، إلى مدينة الرب. ومن وقت لآخر، كان "توبسيوس" يرفع نظارته إلى طرق "الجليل"؛ فنظر إليَّ وذراعيه متقاطعين وقال بود:

- وأخيرًا صديقنا "رابوزو" في القدس!

أمَّا أنا، فوقفت أمام المرآة، ونظرت إلى لحيتي الكثيفة، وعلى الوجه المتوهج، وهمست أيضًا:

- صحيح، ها هو "رابوزو" الوسيم في القدس!

وعدت، لأمتع ناظري دون ملل من خلال زجاج النافذة بمدينة صهيون المقدسة. وتحت المطر الكئيب لاحت في الأفق أمامنا جدران بيضاء لدير صامت، بشبابيكه الخضراء المغلقة، واثنان من المزاريب الزنك الهائلة كلُ في زاوية، أحدهما يصب متدفقًا في زقاق مهجور، والآخر يصب على أرض طينية في حديقة مزروعة بالبراعم، يتوسطها حمار.

على هذا الجانب، كانت هناك مساحات لا نهاية لها من الأسطح الموحلة الطينية وبها قباب صغيرة على شكل أفران، وعصي طويلة لتجفيف الملابس عليها؛ وبدا كل شيء تقريبًا مفككًا وبائسًا، على ما يبدو من أثر المياه البطيئة التي غمرته. وعلى الجانب الآخر، كانت هناك تلة منحدرة مزدحمة بالبيوت المتواضعة، ولها أفنية خلفية خضراء، وضبابية، ترتجف تحت السحب المحملة بالأمطار. وبين البيوت، كان هناك زقاق ملتوٍ متدرج، حيث كان الرهبان دائمي العبور تحت مظلاتهم يلبسون أحذيتهم المميزة. واليهود الحزانى بسوالفهم المتدلية، أو بعض البدو البطيئين يلملمون عباءاتهم. كل أولئك تظلهم سماء بنية اللون. وهكذا ظهرت لي عبر نافذتي مدينة صهيون القديمة المبنية بشكل جيد المشرقة مع الضوء الفرحة بأرضها البهية بين المدن.

- هذا مرعب، "توبسيوس"! لقد صدق "ألبندرينا"! إنها أسوأ من براج، "توبسيوس"! فلا تنزه ولا بليارد ولا مسرح! لا شيء! انظروا إلى المدينة التي يعيش فيها الرب!

- نعم! كانت أكثر متعة في وقتها.

تمتم صديقي الحكيم.

واقترح عليَّ أن نذهب يوم الأحد إلى ضفاف نهر الأردن، حيث كانت دراساته عن "هيرودس" تتطلب منه ذلك. ثم إنه يمكن أن أجد شيئًا من ملذات الحقل هناك، وأن أستحم في المياه المقدسة، وأن أصطاد الحجل الرومي من بين أشجار النخيل في "أريحا". وقبلتُ بسرور. وذهبنا لتناول الطعام، وقت أن دق جرس الدير بصوت جنائزي ورنين في كنف الممر.

كانت قاعة الطعام تعلوها قبة أيضًا، ومفروشة بحصير من القش على أرضية من البلاط. وكنا وحدنا، أنا والعالم المتخصص في "آل هيرودس"، على منضدة كئيبة، مزينة بورود من الورق في مزهرية مشققة. وهمستُ وأنا أحرك الشوربة في طبق الحساء:

- يا الله، "توبسيوس"، ما هذا الملل!

لكن، ما إن فتح باب من الزجاج في الخلفية قليلًا حتى صرخت، مندهشًا:

- يا الله، "توبسيوس"، ما هذه المرأة الرائعة!

رائعة بالفعل! ممشوقة وصحيحة مثلي. بيضاء كبياض الكتَّان المغسول بعناية، لكن بها بعض النمش؛ تتوجه كتلة من الشعر البني المتموج؛ يلفها بإحكام ثوب أزرق ضيق بخطوط مائلة، يكاد صدرها يتفجر منه، وما إن دخلت علينا حتى فاحت منها رائحة صابون "ويندسور" وماء الكولونيا، ثم أشعلت غرفة الطعام بروعة جسدها وشبابها.. وكان "توبسيوس" المطلِّع يشبهها بالإلهة القوية "كوبيلي" إلهة الجبال والطبيعة والخصوبة.

جلست "كوبيلي" على المنضدة، هادئة ورائعة. وإلى جانبها جلس هرقل، رجل أصلع ذو لحية كثيفة رمادية على كرسي يئن تحت وطأة ثقل أعضائه

الكبير. وبمجرد أن فك فوطة الطعام كشف عن السلطة المطلقة للنقود وعادته القديمة في إعطاء الأوامر. وما إن قالت "Yes" أدركتُ أنها من أرض "ماريكوكيناس"، وذكرتني بزوجة البارون الإنجليزي. وإلى جانب طبقها وضعت كتابًا مفتوحًا بدا لي أنه كتاب شعر. وأخذ ذو الذقن الكثيف، ببطء مهيب، يمضغ الطعام كالأسد، وأخذ يتصفح أيضًا في صمت دليلًا عن الشرق.

نسيتُ لحم الضأن المطبوخ، ورحتُ أتأمل في كل ملامحها بنهم كبير. وكانت، من وقت لآخر، ترفع رموشها. وانتظرت بفارغ الصبر أن تهاديني بنظرة من عينيها الملونتين الناعمتين. لكنها كانت تقع على الجدران البيضاء والزهور الورقية، ثم تعاود السقوط ببرود ودون اهتمام على صفحات قصيدة الشعر التي تقرؤها. وبعد القهوة، قامت بتقبيل يد ذي اللحية الكثيفة المشعرة. واختفت عبر الباب الزجاجي، وحملت معها رائحتها العطرة، والنور، وبهاء مدينة القدس. أمَّا "هرقل" فقد أشعل سيجاره، وأخبر النادل بأن "يرسل له إبراهيم، الدليل"؛ ثم نهض ثقيلًا وعريض المنكبين. وعند الباب، أسقط مظلة "توبسيوس". "توبسيوس" الأمجد فخر ألمانيا، وعضو المعهد الإمبراطوري للحفريات التاريخية. ومر، دون أن يرفعها، ولا حتى خفض عينيه الشامخة.

- يا له من أحمق!

غمغمتُ، وأنا أشتاط غضبًا.

أمَّا صديقي العالم، بجبنه الاجتماعي كأي ألماني منضبط، فالتقط مظلته ونظفها بالمنشفة، وهمس ببرود:

- ربما كان دوقًا.

- دوق من! بالنسبة لي لا يوجد دوقات! أنا "رابوزو"، ثعلب من ثعالب نهر "تاجة".. لو حدث الموقف معي لمزقته!

لكن المساء كان قد حل، وكان موعد زيارة قبر الرب المباركة. أسرعت إلى غرفة النوم، وارتديتُ قبعتي الطويلة كما وعدت "تيتي". وفي الردهة عندما رأيت "كوبيلي" تفتح باب غرفتها المجاور لغرفتنا، وتخرج ملفوفة في عباءة رمادية وقبعة غرست فيها ريشتين من ريش النورس، دق قلبي في أمل عظيم. فهي التي كانت تدندن بأسطورة ملك "تولة"! وهكذا، لم يفصل سريرينا سوى حائط رقيق هش مغطى برسوم ورود زرقاء! لم أبحث حتى عن القفازات السوداء. نزلت في بهجة، من المؤكد أنني سأقابلها في قبر يسوع. وفكرت في ثقب فتحة في الجدار، يمكنني من خلالها أن أمتع ناظري الولهان بجمال قوامها. كان المطر لا يزال يتساقط كئيبًا.

وما إن انغمسنا في "طريق الآلام"، التي تقع بين جدران طينية اللون، حتى دعوت "بوت" تحت مظلتي للحديث، وسألته إذا كان قد رأى في فندقي "كوبيلي" القوية المنمشة. كان "بوت المرح" معجبًا بها بالفعل. عن طريق "إبراهيم"، زميله في الحرفة، عرف أن ذا اللحية الكثيفة كان أسكتلنديًّا، ويعمل تاجر دباغة.

- إنه هنا "توبسيوس"!

صرختُ.

- تاجر دباغة.. لا تقل لي دوقًا! إنه شخص غبي! وكنت أقدر عليه! فيما يخص الكرامة تجدني مثل الوحش. وكنت أقدر عليه!

وأضاف "بوت":

- أمَّا الابنة، ذات الضفائر الغليظة، كان اسمها مشعًا كالأحجار الكريمة؛ فاسمها "روبي"، مثل حجر الروبي. تحب الخيول، وتعتزل في أعالي "الجليل". من أين جاء، أدفع نصف عمري.

- حسنًا، أيها السادة، هنا منزل "بيلاطس".

- يا رجل، دعك من بيت "بيلاطس" الآن! أخبرني ماذا يقول "إبراهيم" أيضًا؟ هات ما لديك، "بوت"!

وعندئذٍ ضاقت "طريق الآلام"، وظهر سقفها المغطى بالقباب، مثل سراديب الموتى. رأيت اثنين من الشحاذين تغطيهما القروح يقضمان قشر البطيخ ويجرّان في وسط الطين، وكلب يعوي. وقال "بوت" ذو السن الضحوك أن "إبراهيم" غالبًا ما كان يرى السيدة "روبي" مبهورة بجمال رجال من سوريا؛ وفي الليل، على باب الخيمة بينما كان الأب يعب من الجعة كانت تقرأ أبيات الشعر في هدوء، وتتأمل في خفقان النجوم. فقلت في نفسي: "يا لحظي، إنها فتاتي!".

- حسنًا، إنكم يا سادة أمام القبر المقدس...

أغلقت مظلتي. وفي صدر فناء الكنيسة، توجد سلالم من الحجارة تعلوها واجهة كنيسة، وعتيقة، وحزينة، وكئيبة، يتوسطها اثنان من المداخل المقوسة. أحدهما مُقفل بالطوب والجير، باعتباره زائدًا عن الحاجة؛ والآخر مفتوح نصف فتحة. وعلى جانبي هذا المعبد الحزين الضعيف، الذي تُعزف فيه نغمات الخراب، تشبث مبنيان مهدمان - أحدهما مخصص للطقوس اللاتينية والآخر للطقوس اليونانية - كبنتين مرعوبتين من الموت، لاذتا إلى حضن أم على وشك الموت وباردة بالفعل.

لبست حينئذٍ قفازاتي السوداء. وعلى الفور، انقض علينا حفنة من الرجال الشرهين الأشرار يصيحون عارضين علينا بضاعتهم من المسابح والتذكارات والصلبان والتعليقات، وقطع من الخشب التي شقها القديس يوسف، والميداليات، وقطع فنية، وزجاجات مليئة بمياه نهر الأردن، وشموع، وصلوات، ولوحات حجرية تصف صلب المسيح، وزهور ورقية صُنعت في "الناصرة"، وأحجار مباركة، وبذور زيتون من جبل الزيتون، وعباءات "مثل تلك التي كانت تلبسها مريم العذراء!".. وعلى باب قبر المسيح، حيث أوصتنى "تيتي" أن

أدخل جاثيًا على ركبتي، بينما أتمتم وأصلي "صلاة التاج"؛ وجدتُ نفسي ألكم محتالًا له ذقن ناسك كان يتعلق بسترتي، جائعًا، مسعورًا، يرجوني أن أشتري منه أبواقًا للسيجار مصنوعة من خشب سفينة نوح!

- اللعنة، ما هذا، دعني أذهب يا حيوان!

وهكذا، أخذت أصب اللعنات عليه، واستطعت بمظلتي أن أدفع نفسي إلى الحرم السامي حيث تحتفظ المسيحية بقبر مسيحها. لكنني توقفت، وفجأة، شممت رائحة لذيذة ومبهجة للتبغ السوري. على دكة كبيرة مكسوة بالقطيفة، وتحتها سجاد من "قرمانيا" ووسائد حريرية قديمة. استرخى ثلاثة أتراك ملتحون تظهر عليهم علامات الجد، يدخنون غليونًا طويلًا صُنع من شجر الكرز. وقد تركوا أسلحتهم معلقة على الحائط. كانت الأرض سوداء من أثر بصاقهم. وأمامهم، وقف خادم رث الثياب منتظرًا، ويحمل في راحة كل يد فنجانًا من القهوة يتصاعد منه البخار. ظننت أن الكاثوليكية، ببعد نظر، قد أقامت على باب المكان المقدس حانوتًا للمشروبات الساخنة والمشروبات الروحية، من أجل راحة حجاجها؛ فقلت لـ"بوت" بصوت خفيض:

- فكرة رائعة! يبدو لي أنني سأتناول بعضًا من القهوة أيضًا!

ولكن سرعان ما أوضح لي "بوت" أن هؤلاء الرجال الجادين، أصحاب الغليون، هم جنود مسلمون يحرسون المقدسات المسيحية، لمنع أي اختراق لضريح يسوع، من أصحاب الخرافات والمتعصبين، ومن حاسدي الجواهر، ومن الكهنوت المنافسين خشية أن يقيموا طقوسهم هنا.

- فالكاثوليك مثل الأب "بينيرو"، واليونانيون الأرثوذكس الذين لديهم الصليب بأربعة أذرع؛ والحاخامات الأرمن، وأحفاد القبط الذين ينحدرون من أولئك الذين - في "ممفيس" - كانوا يعبدون العجل "أبيس"؛ والنسطوريون

الذين يأتون من "الكلدية"؛ والجورجيون الذين يأتون من بحر قزوين؛ والموارنة الـذين يأتون من لبنان، كلهم مسيحيون، كلهم متعصبون، كلهم شرسون!

ثم حييت بامتنان هؤلاء الجند من أتباع "محمَّـد" الـذين يحـافظون عـلى المكـان المبارك حول جسد المسيح، بهدوئهم وأسلحتهم وتدخينهم.

ثم توقفنا عنـد المـدخل أمـام لوحـة حجريـة مربعـة، مثبتـة فـوق أحجـار داكنـة، مصقولة ولامعة في توهج حلو كبريق الصدف. بدت وكأنها مياه خزَّان هادئة. تنعكس عليها أضواء المصابيح. سحبني "بوت" من كمي، وذكر لي أنه من المعتـاد تقبيـل هـذه اللوحة الحجرية، المقدسة بين كل اللوحات، لأنها من حديقة "يوسف الرامي".

- نعم، قد عرفت. هل أقبلها يا "توبسيوس"؟

رد عليَّ مؤرخ "آل هيرودس" الحكيم:

- قبّل دومًا. لا تدخر جهدًا في إرضاء السيدة، خالتك.

لم أقبلها. اصطففنا في صمت، ودخلنا قبة شاسعة، خافتة في ضوء الغسق لدرجة أن فتحات السقف الدائرية في القبة كان ضوؤها يُرى بالكاد، شاحبة، مثـل حبَّـات اللؤلـؤ حول تاج. أمَّا الأعمدة التي تستند عليها القبة، فكانت رقيقة ومتراصـة كـأعواد حـائط خشبي مشبك، كانت ترسم الظل من حولها، وكل عمود به بقعة حمـراء قديمـة مـن أثـر مصباح النحاس عليها. وفي وسط هذا المكان المغطاة أرضه بالحجارة التي تعكس الصوت، رأينا ضريحًا رخاميًّا ومصقولًا ولونه أبيض، وتغطيه الورود والزهـور. وقطعـة مـن الحريـر قديمة تغطيه مثل المظلة، مطرزة بزخارف ذهبية؛ وجناحين من المشـاعل صـنعت طريقًـا من النيران الشاعرية حتى الباب، والـذي كـان ضـيقًا كالشـق في الجـدار، ومغطـى بلـون

كلون الدم. وكاهن أرمني، مختفى بعباءته السوداء الواسعة تحت غطاء قلنسوته، يبخر المكان، بصمت وتواضع.

سحبني "بوت" مجددًا من الكم:

- القبر!

يا روحي الطاهرة! يا "تيتي"! إن قبر المسيح أخيرًا في متناول شفتي! وانطلقت على الفور ككلب حراسة أبحث بين وفود الحجاج والرهبان الصاخبين المحتشدين عن وجه ممتلئ منمش وقبعة بها ريش النورس! ولما كنت أبحث بهمة، أحدثت هرجًا كبيرًا.. فهذا أب فرانسيسكاني يتمنطق بحبال الحلفا اصطدمتُ به. وهذا كاهن قبطي أعترض طريقه وهو ينزلق مثل ظل خافت، ويسبقه الخدم الذين يضربون الدفوف المقدسة من زمن أوزوريس. وكنت أصطدم بأكوام ملفوفة بالثياب البيضاء، التي ارتمت على الأرض كالأكوام، وكانوا أناسًا يصدرون أنينًا كمن يتلوى من الألم. ثم تعثرت في شخص أسود، كان عاريًا تمامًا، وكان مضجعًا عند قاعدة عمود، نائمًا في هدوء. في بعض الأحيان كان العزف المقدَّس للأرغون يدوي فيصطدم بحوائط الرخام، ثم ينتهي بهمس ينتشر مدويًا في أرجاء المكان؛ وعلى البعد تسمع أغاني أرمينية، تهتز لوعة واشتياقًا، تضرب الجدران المتقشفة مثل خفقان جناحي طائر حبيس يريد الهروب إلى النور. وإلى جانب المذبح، أبعدت اثنين من القساوسة البدناء، أحدهما يوناني، والآخر لاتيني، كانا يتجادلان بعنف كالمحتالين، يزمجران وتفوح منهما رائحة البصل. ومشيت عكس سرب من الحجاج الروس شعرهم ملبد خشن، قادمين بالتأكيد من بحر قزوين، يلفون أقدامهم بالضمادات ليعالجوا القرح، ولم يجرؤوا على الحراك، يملؤهم الخوف الإلهي، يلوون بين أيديهم طواقيهم الصوفية، ويمسكون بالمسابح الغليظة من الزجاج. وأطفال - في حالة يرثى لها - يلعبون في ظلمة الأقواس بينما كان بعضهم يتسولون.

كانت رائحة البخور خانقـة؛ وأخـذ الكهنـة مـن جميـع الطوائـف يسـحبونني مـن ذراعي كي يروني آثارًا مقدسة، وتعليقات، أو قطعًا عليها رسوم - بعضهم بعصا القديس "جودفري"، والبعض الآخر قطعة من القصب الأخضر.

ووجدت نفسي في ذهول عندما انسـقت في موكـب للتـائبين، إذ كنـت أظـنُّ أننـي سأجد بين أغطية الرأس السوداء للتائبين الريشتين البيضاوين لطائر النورس شـامختين. وهذه كرملية أمامي، كانت تهمس بصلوات للمسيح والعـذراء، كانـت توقـف الركـب بين الحين والآخر وسط ذهول المتعبدين، عند باب المقصـورة الغـائر المخصـص لـلآلام، وللخيانة، حيث تم جلد الرب، وعند العباءة التي تم تجريد الرب منها وبقي عاريًا. ثم صعدنا، والمشاعل في أيدينا على درج مظلم، منحوت في الصخر. وفجأة أخذوا يصيحون ويئنون ويتأوهون ويضربون صدورهم، يتوسلون إلى الرب، الحزين المطموس الملامـح. كنا حينها على "صخرة الجلجلة".

وحولنا، كانت المقصورة تتلألأ بالرفاهيـة الحسـية والوثنيـة. وعـلى السـطح الأزرق الحديدي كانت شموس من الفِضـة تلمـع، وكـذا علامـات الأبـراج، والنجـوم، وأجنحـة الملائكـة، وزهـور الأرجـوان. ومـن السـقف الحديـدي الرائـع، كانـت الرمـوز القديمـة للخصوبة وبيض النعـام والبـيض المقـدس لــ"عشـتار" و "بـاخوس الـذهبي" تتـدلى في سلاسل من اللؤلؤ.

وعلى المذبح، ارتفع صليب أحمر صُلب عليه مسيح بـدائي ملـون بـاللون الـذهبي، والذي بدا لي أنه يهتز، ويعيش على التوهج المنـتشر مـن حـزم الشـموع، ومـن لمعـان الجـــواهر الثمينـــة، ورائحـــة البخـــور المحـــروق في المبـــاخر البرونزيـــة. وكانـــت الكرات الزجاجية العاكسـة، المثبتـة عـلى قواعـد مـن خشـب الأبنـوس تعكـس بريـق الجـواهر المثبتـة في اللوحـات الجداريـة، ورونـق الجـدران المزينـة بحجـر اليَشْـب والصـدف والعقيـق. وعـلى الأرض، في وسـط هـذا البريـق الثمـين مـن الأحجـار

الكريمة والضوء المنبعث من ألواح الرخام الأبيض، لفتت لوحة حجرية خشنة وبدائية الانتباه، بها فتحة طولية مصقولة من أثر قرون طويلة من القبلات والأحضان المباركة. وصاح شمَّاس يوناني ذو لحية قذرة: "على هذه الصخرة صُنع الصليب. الصليب. الصليب.. "كيريا إليسون"، يا رب ارحم، يا مسيح ، يا مسيح!" وتعالت الصلوات بحماس أكثر، وعلا النحيب. وترددت أغنية حزينة بينما صمتت المباخر. "كيريا إليسون!". "كيريا إليسون!" وكان الشمامسة يمرون بسرعة، معهم أكياس كبيرة من المخمل، حيث يصلصلون ويتمايلون ويجمعون قرابين البسطاء.

هربت مذهولًا ومصروعًا. وكان عالِم "آل هيرودس" الحكيم يمشي في فناء الكنيسة، تحت مظلته، يستنشق الهواء الرطب. ومرة أخرى، هجمت علينا فرقة من الجياع وبائعي التذكارات. أبعدتهم عني بفظاظة، وخرجت من المكان المقدس - كما دخلت - بالخطيئة وأنا أسب وألعن.

في الفندق، أوى "توبسيوس" إلى الغرفة لتسجيل انطباعاته عن قبر يسوع. وبقيت في الفناء أشرب البيرة وأدخن الغليون مع "بوت المرح". وعندما صعدت في وقت متأخر، كان صديقي المستنير يطنطن في ضوء شمعة - ومعه كتاب مفتوح على السرير، كان كتابي الذي أحضرته معي من لشبونة لأتسلى به في بلاد الإنجيل: "الرجل ذو السراويل الثلاثة". أمَّا أنا فكنت أخلع حذائي الذي تلطخ بالطين المبارك لـ"طريق الآلام" وأنا أفكر في "كوبيلي". في أي أطلال مقدسة، وتحت أي أشجار مباركة - كانت تظل الرب يسوع - مرت بعد ظهر هذا اليوم الضبابي في القدس؟ أم أنها ذهبت إلى وادي قدرون؟ أو إلى قبر "راحيل" الأبيض. تنهدتُ، وقد بلغ الشوق مني مبلغه. وكشفت عن سريري وأنا أتثاءب، عندما تأكد لي وجودها بوضوح من خلال الحائط الرقيق، سمعت صوت صب الماء في حوض الاستحمام. استرقت السمع وأنا أتهلل. وبسرعة في

هذا الصمت الأسود الذي يلف مدينة القدس دائمًا، اقتربت من الصوت، واستطعت تمييز صوت إسفنجة أُلقيت في الماء. أسرعتُ، ووضعت أذني على الورد الأزرق المرسوم على الجدار.

كانت هناك قدم حافية ناعمة تسير على الحصيرة التي غطت بلاط الأرضية؛ وانسابت المياه، كما لو أن ذراعًا عارية جميلة تحركها لتختبر حرارتها. ثم استمعت، ومشاعري ملتهبة، إلى جميع الأصوات الحميمة لاستحمام طويل وبطيء، عصر الإسفنج بلطف، وفرك الأيدي الناعمة وهي ممتلئة برغوة الصابون؛ وتنهد التعب والأسى للجسم الذي يتمدد تحت مداعبة الماء الدافئ المختلط بقطرات من العطور. صعد الدم إلى رأسي، وأخذ يخفق؛ وأخذت أفتش يائسًا عن ثقب أو فتحة في الجدار. حاولت شق الجدار بالمقص؛ كانت أركانه الدقيقة مكسورة بحجم كأس. مرة أخرى غرد الماء وهو ينساب من الإسفنجة. وأنا أرتجف من كل قلبي، وأتخيل نفسي أرى القطرات البطيئة التي تتدفق بين هذين النهدين الأبيضين الكاعبين اللذين يوشكان أن يفجرا فستانها الحريري.

لم أستطع المقاومة؛ فخرجت حافي القدمين، بسروالي، إلى الممر ناعسًا؛ وحشرت عيني الملتهبة المتحفزة في ثقب مفتاح الباب، حتى خشيت أن أجرح الفتاة بشعلة ملتهبة من شعاع عينَي. لمحت في دائرة واضحة منشفة ملقاة على حصيرة، ورداء أحمر، وقطعة مثلثة من فرش سريرها. وهكذا جلست القرفصاء، وحبات العرق على رقبتي، أنتظر عبورها، عارية رائعة في هذه الدائرة الصغيرة من الضوء، وفجأة، إذا بباب يئن من خلفي، وبضوء يغمر الجدار.

كان الرجل ذو الذقن الكثيفة، بملابسه الداخلية والشمعدان في يده! أمّا أنا، "رابوزو" البائس، فلم أستطع الفرار. فمن ناحية وقف هذا الكائن الضخم، ومن ناحية أخرى، كان الجدار المصمت لنهاية الممر. ببطء، وفي صمت،

وبطريقة مدروسة، وضع "هرقل" الشمعدان على الأرض، ورفع حذاءه ذا النعلين وهبط به على جانبي فشعرت أنه يفككها. زمجرتُ:

- متخلف.

فهمس:

- اخرس!

ومرة أخرى، دفعني إلى الجدار، وانهال عليَّ بحذائه الضخم البرونزي ضربًا مبرحًا على أوراكي، وأردافي، وسيقاني، وعلى جسدي كله! ثم، بهدوء، التقط شمعدانه. ثم قلت له غاضبًا وأنا في سروالي، بكرامة هائلة:

- هل تعرف ما يليق بك، إنه لحم البقر الذي تشتغل به؟ ونحن هنا في سفح قبر الرب، وأنا لا أريد فضائح كرامة لخالتي، ولكن لو كنا في لشبونة، في الخلاء، في مكان أعرفه جيدًا، لأكلت كبدك! أنت لا تعرف ما كان ينتظرك. فقط تذكر هذا: كنتُ أكلتُ كبدك!

ورجعتُ غرفتي بكل كرامة، أعرج، وأخذت أدلك برفق جسمي كله بزهرة العطاس. وهكذا، قضيت ليلتي الأولى في صهيون. وفي صباح اليوم التالي الباكر، ذهب "توبسيوس" ذو العلم الغزير للحج إلى جبل الزيتون، وإلى نافورة "سيلوام" الصافية. أمَّا أنا فكنت لا أزال أتألم، وغير قادر على ركوب الخيل، فمكثت على أريكتي المخططة أقرأ رواية "الرجل ذو السراويل الثلاثة". وحتى أتجنب ذا اللحية الكثيفة الوقح، لم أذهب إلى صالة الطعام، متظاهرًا بالحزن والنعاس. ولكن مع غروب الشمس في بحر "صور"، كنت قد استرددت عافيتي وحيويتي. وكان "بوت " قد أعد في تلك الليلة احتفالية لذيذة في بيت "فاطمة"، وهي امرأة شهمة وكريمة، وتمتلك برجًا جميلًا للحمام في حي الأرمن. ونحن ذاهبون هناك للتمتع

براقصة فلسطين الشهيرة، "زهرة أريحا"، ونشاركها في رقصة "النحلة"، التي تلهب أحاسيس أكثر الناس برودًا، وتفسد أكثرهم استقامة.

فُتح باب "فاطمة" المتواضع، المزين بكرمة جافة، وكان يفضي إلى زاوية من الجدار الأسود المجاور لـ"برج داوود". كانت "فاطمة" تنتظر، مهيبة وبدينة، ملفوفة بالحجاب الأبيض، ويتدلى من رقبتها عقد من المرجان بين ضفائرها، وذراعاها عاريتان، وبكل منهما ندبة داكنة من أثر الطاعون. أخذت بيدي بتواضع ووضعتها على رأسها الكبيرة، ثم على شفتيها المغطاة باللون القرمزي، وقادتني في شكل احتفالي حتى وقفنا أمام ستارة سوداء، مطرزة بالذهب كالقماش الذي يغطي التوابيت. وكنت أرتجف وأنا أخترق أخيرًا عالم الحريم ذا الأسرار المبهرة، ذلك العالم الصامت الذي تفوح منه رائحة الورود.

كانت غرفة بيضاء مطلية بالجير، وكانت ستائر القماش القطني الأحمر تعلو المشربيات. وعلى طول الجدران كانت هناك أرائك مكسوة، ومغطاة بالحرير الأصفر، مع رُقّع من حرير فاتح. وفوق سجادة فارسية صغيرة وضعت مبخرة نحاسية، خلت من النار لكن بها كومة من الرماد، وبجانبها أريكة من القطيفة مرصعة بالترتر. ويتدلى من السقف الخشبي الرمادي، حيث تنتشر البقع الرطبة، مصباح زيتي معلق في سلسلتين مزينتين بخصل من الخيط على شكل أجراس. وفي زاوية من الحجرة أُلقي ماندولين بين الوسائد. في الهواء الدافئ، كانت هناك رائحة حلوة من لبان الجاويّ الرطب. وعلى البلاط، أسفل جدران المشربيات، كانت هناك خنافس تجرى هنا وهناك.

جلست صامتًا بجانب مؤرخ "آل هيرودس". واقتربت منا امرأة سوداء من "دنقلا"، ترتدي قميصًا قرمزيًّا وأساور فضية ترعش بين ذراعيها، لتقدم لنا قهوة عطرية. وبعدها بقليل أخبرني "توبسيوس"، وهو محبط:

- لا يمكننا الاستمتاع برقصة النحلة الشهيرة!

كانت "زهرة أريحا" ترقص أمام أمير من ألمانيا وصل هذا الصباح إلى "صهيون" ليزور قبر المسيح. ووضعت "فاطمة" يدها على قلبها بتواضع، وأقسمت بالله أنها جارية عندنا! لكن ذلك لم يرُق لنا. كانت "زهرة أريحا" قد ذهبت إلى الأمير الأشقر الذي جاء بالخيول والريش من أرض الألمان!

أمَّا أنا فكنتُ مشمئزًا، ولاحظت أنه ليس أميرًا؛ فخالتي كانت تتمتع بثروة كبيرة، وكانت عائلتنا من أشرف عائلات نهر "تاجة". وإذا كانت "زهرة أريحا" على موعد معنا كي تقر بها عيني "الكاثوليكية"؛ فإن ذهابها إلى ذلك الألماني يعد تجاهلًا لا أقبله.

همس الدكتور "توبسيوس"، وهو يرفع أنفه لأعلى:

- إن ألمانيا هي الأم الروحية للشعوب. إن البريق الذي يخرج من الخوذة الألمانية، سيد "رابوزو"، هو النور الذي يهدي البشرية!

- ومالي والخوذة! لا أحد يرشدني! أنا "رابوزو"، من ثعالب نهر تاجة! لا أحد يرشدني إلا ربنا يسوع المسيح. وفي البرتغال هناك رجال عظماء أيضًا! هناك "أفونسو هنريكيس"، هناك "هيركولانو"... ها!

ووقفت غاضبًا. وكان "توبسيوس" الحكيم يرتعد، مطأطئ الرأس. وتدخل "بوت":

- لتهدآ أيها المسيحيين الأصدقاء، اهدآ!

وجلسنا على الفور على الأريكة، وتصافحنا بشجاعة وبشرف.

كانت "فاطمة" تقول "الله أكبر" وإنها كانت جارية لنا. وإنه إذا أردنا فلندفع لها فقط سبعة قروش من الذهب، وأقسمت أن تعوضنا عن "زهرة أريحا"، بجوهرة لا تُقدَّر بثمن، فتاة شركسية، أشد بياضًا من القمر ليلة البدر، وأكثر رشاقة من الزنابق التي تنمو في مدينة "جلجلة" الصومالية والتي اشتُهرت بصناعة الصلبان والرموز الدينية.

- إلينا بالشركسية!

صرختُ بحماس.

- يا للهول، لقد جئتُ إلى الأماكن المقدسة كي أداوى جراحي. تعالِ يا شركسية! أعطها النقود يا "بوت"، هيَّا، أريد أن أمتع جسدي!

خرجت "فاطمة"، دون أن تدير ظهرها لنا، واضجع "بوت" المرح بيننا وأخرج علبة التبغ المعطرة بتبغ حلب. ثم سمعنا صرير الباب الأبيض، المختفي في الجدار الجيري الأبيض، ودخلت علينا بخفة فتاة غامضة، ومحجبة، ورشيقة. كانت ترتدي سروالًا فضفاضًا من الحرير القرمزي المزركش بشريط مموج، من الوسط وحتى الكاحل، حيث ربطته من أسفل برباط من الذهب. كانت قدماها البيضاوان الصغيرتان تدخلان بالكاد في النعل المغربي الأصفر. ومن خلال حجاب خفيف كان يلف رأسها ويغطي صدرها كانت حليها الذهبية المرصعة بالجواهر تتلألأ، وعيناها السوداوان لهما بريق كالنجوم الزاهرة؛ فتمددت على الأريكة تملؤني الرغبة.

ومن خلفها "فاطمة" ترفع ببطء وبأطراف أصابعها الحجاب، وشيئًا فشيئًا، ظهر لنا من تحت الشاش وجه ضخم بلون الجبس، مستطيل، ولها أنف كبير، وبعينيها حول، وأسنانها المسوسة كانت تجعل ابتسامتها ظلماء. قفز "بوت" من الأريكة، وأخذ يسب "فاطمة"، التي أخذت تحلف بالله وهي تضرب على صدرها الذي يصدر أصواتًا كصوت القربة التي بها شيء من الماء. اقتربت منا الشركسية، تمزح بابتسامة خفيفة، وتمد يدها القذرة، طالبة "تذكارًا صغيرًا" بنبرة همجية وصوت يثير الاشمئزاز. فصددتها بقرف، فخدشت ذراعي، ثم خاصرتي. ثم لملمت حجابها وخرجت تجرجر حذاءها.

- آه يا "توبسيوس"! أنا غاضب. إن هذا لعارٌ عظيم!

أخذ صديقي الحكيم يحسب اعتبارات المتعة.

- فهي دائمًا مضللة. وتحت الابتسامة المشرقة تجد الأسنان المتحللة. ولا يتبقى من القبل سوى الطعم المر. وعندما ينتشي الجسد لا بدَّ وأن تحزن الروح لارتكاب الخطيئة.

- روح ماذا! فليس هناك روح! وكل ما هنالك هو الفضيحة الكبيرة! ففي شارع "قوس العلم" لا يسعني إلا أن ألكمها لكمتين فى وجهها.. هيَّا بنا!

شعرت بغضب ورغبة في تحطيم المندولين. ولكن "بوت" عاود الظهور، وهو يمس على شاربه قائلًا إنه إذا دفعنا تسعة قروش ذهبية أخرى فإن "فاطمة" تتعهد بأن ترينا معجزتها الخفية، عذراء من على ضفاف نهر النيل، من النوبة العليا، جميلة كليالي الشرق الساحرة. كان قد رآها، وقال إنه يضمن لنا أنها تستحق أن نقدم لها إقليمًا خصيبًا كهدية.

وافقت وأنا ضعيف مهزوز. وواحدًا تلو الآخر، كانت القروش الذهبية التسعة تجلجل في يد "فاطمة" السمينة. ومرة أخرى زمجر الباب الأبيض، وبقي مغلقًا - وعلى نغمة هادئة ظهرت عارية بلونها البرونزي، أنثى رائعة، منحوتة مثل المعبودة "فينوس". توقفت للحظة، صامتة، خائفة من الضوء ومن الرجال، وأخذت تحك ركبتيها بهدوء. وكانت تغطي خاصرتيها القويتين الرشيقتين بإزار أبيض. كان شَعرُها منكوشًا ولامعًا من أثر الزيت، مع ترتر الذهب المتشابك يسقط على ظهرها مثل لبدة الأسد. وكانت سلسلة من الخرز الزجاجي الأزرق حول رقبتها تنزلق وتتراقص حتى استقرت بين نهديها الكاعبين مثل العاج. وفجأة قفزت تتلوى، وأطلقت بلسانها زغرودة: "لو! لو! لو! لو! لو!"، ثم استلقت على وجهها على الأريكة. ثم مطت جسمها واتخذت شكل أبي الهول ونظرت إلينا، نظرة جادة ثابتة بعينين كحيلتين كبيرتين.

- ها.. ما رأيك؟

قال "بوت" وهو يهمزني بكوعه.

- انظر إلى الجسم. انظر إلى الذراعين! انظر إلى العمود الفقري وكيف تثنيه كالقوس! إنها كالنمرة!

أمَّا "فاطمة" فكانت عيناها على الهدف فكانت تقبل أطراف أصابعها وهي تتوقع الخير الوفير الذي سيجلبه لها حب تلك الفتاة النوبية. وبالتأكيد، فإن نظرات النوبية النافذة جعلتني أشعر أن لحيتي الكثيفة قد أسرتها، فتململتُ على أريكتي وأخذتْ هي تقترب مني، بهدوء، كمن يقترب من فريسة سهلة. واتسعت عيناها لامعتين، لا تهدأ. ولاطفتُها مناديًا إياها "حبيبتي"، وداعبتُ كتفها الباردة بيدي؛ وعندما لامستها بشرتي البيضاء أدبرت النوبية مبتعدة، وارتجفت مع صرخة مكتومة كغزالة جريحة. لم يَرُق لي ذلك. لكني أردتُ أن أكون لطيفًا. قلت لها بنبرة أبوية:

- آه! لو كنتِ تعرفين بلدي! واعلمي أني بوسعي أن آخذك معي! إلى لشبونة، وما أدراك ما لشبونة! حيث يمكنك زيارة مدينة "دافوندو" على شاطئ المحيط، وتتناولين العشاء في مطعم "سيلفا". أنتِ هنا في سجن! والفتيات مثلك يُعاملن هناك معاملة حسنة؛ ولهن اعتبارهن، وتتحدث الصحف عنهن، وتتزوجن من ذوي الأملاك.

وصرتُ أهمس لها بأمور عميقة أخرى. لم تفهم كلامي. كانت عيناها الثابتتان كالصقر تعجان بالأشواق لقريتها النوبية، وقطعان الجاموس التي تنام تحت ظل أشجار النخيل، والنهر الكبير الذي يتدفق منذ الأبد هادئًا، يجري وسط أطلال الأسر الفرعونية. تخيلتُ أن ذلك سوف يحرك المشاعر في قلبها فجذبتها ناحيتي بنهم؛ فهربتْ، وانطوت على نفسها في زاوية، وهي ترتجف. ووضعتْ رأسها بين يديها، وبدأت تبكي لفترة طويلة.

- انظروا إلى تلك العاهرة!

صرختُ غاضبًا.

وأمسكتُ بقبَّعتي، وكدتُ أمزق الستارة السوداء المطرزة بالذهب من فرط غضبي. وتوقفنا عند صومعة مبلطة تصدر منها رائحة كريهة. وبعد ذلك، نشبت مشادة بين "بوت" والمرأة البدينة، حول أجر تلك الحفلة "الساخنة" في بلاد الشرق. كانت تطالبه بسبعة قروش ذهبية أخرى، وأخذ "بوت" بشاربه المشدود يكيل لها الشتائم بالعربية.

وأخذا يقذفان بعضهما بعضًا بالحصى. وتركنا ذلك المكان الذي كنا نبتغي فيه الفرح تطاردنا لعنات "فاطمة" التي كانت تشتاط غضبًا، وأخذتْ تلوح بذراعيها اللتين عليهما آثار الطاعون وتلعننا وتلعن آباءنا وتلعن رفات أجدادنا وتلعن الأرض التي أنجبتنا، والخبز الذي أكلناه والظلال التي أظلتنا! ثم طاردنا كلبان في ذلك الشارع المظلم، وأخذا ينبحان لفترة طويلة وبصوت حزين.

دخلتُ فندق البحر المتوسط، غارقًا في شوقي إلى أرضي الضاحكة. وإلى الفرحة التي حرمتني منها هذه الأرض الكئيبة العدوانية، أرض "صهيون" والتي جعلتني أتلهف أكثر إلى تلك الأيام الرغدة السهلة في لشبونة عندما تُتوفي "تيتي" وأرث كيسها الرنان الحريري الأخضر! فحينها لن أجد حذاءً يهوى على جسدي في الممرات الهادئة، وساعتها لن تهرب فتاة بربرية من مداعبة يدي باكية بالدموع، وعندما يكسوني ذهب "تيتي" فلن يرفض حبي أحدٌ ولن يعزُف عن رفقتي أحد. آه يا إلهي! سوف أوقع بـ"تيتي" من خلال قدسيتي!

بعد ذلك، جلست إلى الطاولة كي أكتب لتلك السيدة البشعة هذه الرسالة المليئة بالحنان:

"حبيبة قلبي "تيتي"! في كل مرة أشعر بالفضيلة أكثر. وأنا أعزو ذلك إلى أن الرب يرقب زيارتي إلى قبره المقدس بعين الرضا. وأقضي يومي وليلتي للتأمل في التضحية الإلهية والتفكير فيكِ. عدتُ لتوي من "طريق الآلام". أواه، يا لها من زيارة تأخذ بشغاف القلب، إنه شارع مقدس قدسية جعلتني أتورع أن أطأه بحذائي! وفي يوم آخر لم أتمالك نفسي، فجلست القرفصاء وأخذت أقبل الحصى الثمين! أمَّا ليلتي هذه فقضيتها أصلي لسيدة الرعاية "باتروسينيو"؛ فالجميع هنا في القدس يحترمونها كثيراً.

إن لها مقصورة جميلة جدًّا. وكم عرفتُ أنك على حق - كما كنت على حق في كل شيء - عندما قلتِ ليس هناك أفضل من المواكب والاحتفالات الدينية في بلدنا البرتغال. وقد ركعت، هذا المساء، أمام مقصورة العذراء بعد أن أديت صلواتها ست مرات، نظرت إلى صورتها وقلت لها: "آه، من لي الآن بأحد يخبرني كيف حال خالتي "باتروسينيو" - وأرجو أن تصدقيني يا "تيتي" - ثم رأيتُ السيدة العذراء تخبرني بفمها بكلمات حفظتُها عنها مكتوبة على كم قميصي حتى لا أنساها: "إن ابنتي العزيزة على ما يرام، "رابوزو"، وهي تأمل أن تجعلك سعيدًا!".

وهذه ليست معجزة غير عادية، لأن كل العائلات المحترمة التي أتناول معها الشاي، يحكون لي أن السيدة مريم وابنها المقدس دائمًا ما يوجهان بعض الكلمات الجميلة لأولئك الذين يأتون لزيارتهم. وأعرّفك بأني قد حصلت بالفعل على بعض الآثار المقدسة: قشة من مغارة الميلاد، وقطعة خشبية من صنع القديس يوسف. وكما ذكرت لك في رسالتي من الإسكندرية أن رفيقي الألماني، قد أوتي من العلم والحكمة الشيء الكثير، قال لي بعدما رجع للكتب إن اللوحة الخشبية هي من الأخشاب التي كان القديس يوسف يصنعها في وقت فراغه.

أما الآثار العظيمة، تلك التي أريد أن آخـذها لعلاجـك مـن كـل الأمـراض وإعطـاء الخلاص لروحك، ولكي أسدد بذلك كل ما أدين به لـكِ، أتمنـى قريبًـا أن أحصـل عليهـا. ولكن في الوقت الراهن لا أستطيع أن أقـول أي شيء. تحيـاتي لأصـدقائنا، الـذين أفكـر فيهم كثيرًا وأدعو لهم باسـتمرار. لا سـيما لصـديقنا الفاضـل "كاسـيميرو". وأرجـو مـن "تيتي" أن تدعو لابن أختها المؤمن الذي يحترمها كثيرًا، ويتضور شوقًا لرؤياها، ويصـلي من أجل صحتها".

إمضاء: تيوديريكو.

ملحوظة: آه، "تيتي"، كم كان بيت بيلاطس مقززًا لي اليوم! حتى أنني خفت منـه! وقد أخبرت سانتا "فيرونيكا" أنكِ من المتيمات للغاية بها. وبدا لي أن السـيدة المقدسـة قد رضت عنـك كثـيرًا. ومـا أقولـه هنـا لجميـع رجـال الكنيسـة والبطاركـة: "إنـه مـن الضروري أن تعرفوا "تيتي"، كي تعرفوا ما هي الفضيلة!".

وقبل أن أخلع ملابسي، استرقتُ السمع، ولصقت أذني على الجدار المـليء بـالفروع. كانت المرأة قد نامت في هدوء، ودون إحساس؛ فقلت متذمرًا وأنا ألوح بقبضتي:

- حيوانة!

ثم فتحتُ دولاب الملابس، وأخذتُ اللفافـة التـي بهـا قمـيص مـاري، وقبلتـه قبلـة امتنان.

وفي وقت مبكر، في فجر اليوم التالي، شرعنا في الرحيل إلى نهـر الأردن المبـارك. كـان مسـعانا حزينًـا ومسـيرتنا مملـة بـين تـلال يهـوذا! كانـت تـلالًا متتابعـة، وشـاحبة، ومستديرة مثل الجماجم، وذابلة، تهب عليها رياحٌ لعينة. وعلى مسـافات، فقـط عـلى بعـض المنحـدرات، نـادرًا مـا تنمـو بعـض النباتـات الشـوكية، والتـي تبـدو في اهتـزاز الضوء الذي لا يرحم عن بُعد نسجًا للشيخوخة والهجـران.. كانـت الأرض تشـع، بلـون الجـير، وكـان الصـمت المنـتشر يبعـث عـلى الحـزن مثـل ذلـك الـذي يسـود في

قبة ضريح، وفي ضياء السماء القوي من حولنا، أخذ نسر أسود يدور ببطء حولنا، وعند غروب الشمس، نصبنا خيامنا بين أطلال "أريحا".

كم كان لذيـذًا شرب عصير الليمـون بهـدوء ونحـن نسـتريح عـلى سجادة وثـيرة، ونسائم العصر الحلوة تهب علينا، وكانت رطوبة الجـدول السـعيد الـذي كـان يجـري بجوار معسكرنا بين الشجيرات البرية، قد اختلطت برائحة الزهرة الصفراء التي أعطونا إياها.. وأمامنا، كان هناك مرج من حشائش طويلة، مغطـاة ببيـاض الزنـابق الداكنـة، وبجانب المياه كانت طيور اللقلق تجوب السماء أزواجًا بانتظام. ومن ناحيـة "يهـودا" وقف جبل "الأربعين" قاتمًا وباهتًا وقابعًا في حزن الندم الأبدي. ونظرتُ بعينـي ناحيـة جبل "مؤاب" فسرحت بناظري تجاه أرض "كنعان" المقدسة القديمة الرمادية والرمزيـة المقفرة التي تمتد مثل كفن سلالة بشرية منسية حتى شاطئ البحر الميت.

وذهبنا، عند الفجر وقد حملنا المؤونة كي ننجز هذه الرحلة المقدسة. كان ذلـك في ديسمبر. هذا الشتاء في سوريا كان حلـوًا وصـافيًا؛ وأخـبرني "توبسـيوس" وهـو يمتطـي جواده بجواري ويجري به على الرمال الناعمـة كيـف أن هـذه المنطقـة مـن "كنعـان" كانت في الماضي مغطاة بالمدن المتناثرة، والطرق البيضاء بين كروم العنب، وميـاه الـري التي تنعش الحقول. والنساء، يضعن في رؤوسهن شـقائق الـنعمان ويـعصرن بـأرجلهن محصول العنب. كان عطر الحدائق أكـثر إرضـاءً للسـماء مـن رائحـة البخـور. وكانـت القوافل التي تدخل الوادي من ناحية "سيجور" تظن أنها دخلـت مصر الخصـيبة مـن وفرة المحاصيل، ويقولون إن هذه حقًّا هي حديقة الرب.

أضاف "توبسيوس" مبتسمًا بسخرية لا حد لها:

- في يوم من الأيام أصبح الرب القدير مكدرًا فدمَّر كل شيء!

- لكن لماذا؟ لماذا؟

- ربما غضب، أو تعكر مزاجه، وربما مجرد شراسة.

وصهلت الخيول، ربما لشعورها باقتراب المياه الملعونة، والتي سرعان ما ظهرت، ممتدة حتى جبال "مؤاب"، بلا حراك، تتلألأ في عزلة تحت سماء موحشة. يا له من حزن لا مثيل له! واعلم أن غضب الرب لا يزال يحل عليهم، لأنه يُظن أنهم يعيشون هنا منذ عدة قرون، دون أن يستطيعوا إعادة إعمار قرية مثل قرية "كاشكايش" البرتغالية. دون حوانيت القماش التي كانت تصطف على حافة النهر. ودون سباق للقوارب، ودون صيد. ودون ثرثرة السيدات وهن يجمعن الأصداف بطريقة شاعرية من فوق الرمال؛ ودون فرحة الاحتفالات على أضواء النجوم، وآلات الكمان تعزف في التجمعات البهيجة على أضواء المصابيح، كلُّ ذلك ميت ومدفون هناك بين جبلين قابعين كشواهد القبور.

- على البعد ترى هناك قلعة "ماكيروس".

قالها الحكيم "توبسيوس" وهو يشب على ركاب الخيل ويشير بمظلته ناحية مياه البحر الزرقاء.

- عاش هناك واحد من "آل هيرودس" الذين أكتب عنهم. إنه "أنتيباس" ثاني ملوك "آل هيرودس". حاكم "الجليل"، ابن "هيرودس" الكبير؛ هناك، يا "رابوزو"، قُطعت رأسُ يوحنا.

وفي طريقنا إلى نهر الأردن (بينما كان "بوت" يلف لنا سجائر من تبغ حلب الجيد)، أخبرنا "توبسيوس" بهذه القصة المؤسفة عن قلعة "ماكيروس" وهي الأكثر تحصنًا في قلاع آسيا؛ حيث بُنيت على صخور البازلت الرهيبة. وكانت أسوارها بارتفاع مائة وخمسين ذراعًا. فكانت النسور بالكاد يمكنها أن تصل إلى أبراجها. كانت سوداء كئيبة من الخارج. ولكن داخلها كان يتلألأ بالعاج

واليشب والألباستر. وعلى السقوف العالية التي صُنعت من خشب الأرز، عُلِّقت التروس الذهبية العريضة كنجوم سماء الصيف. في وسط الجبل، عاشت في أحد وديانه مائتا فرسة يملكها "هيرودس"، وكانت أجمل خيول الأرض، بيضاء كاللبن، ولها شوشة من الشعر الأسود مثل خشب الأبنوس، كانت تتغذى على كعك العسل، وتجري بخفة دون أن يلطِّخ نقاءها شيء، على مرج من الزنابق.. ثم، في أعماق القلعة كان السجن الذي يقبع فيه يوحنا.

- أهو من تدعوه الكنيسة بالـ"معمدان"؟ ولكن كيف حدثت تلك المصيبة يا صديقي المستنير؟

- هذا ما كان يا سيد "رابوزو". قابل "أنتيباس" ابنة أخته وزوجة أخيه "فيليب" وتدعى "هيروديادي" وكان "فيليب" يعيش في إيطاليا، وكان متعجرفًا، نسي أمر "يهودية"، وغرق في الترف اللاتيني، وكانت "هيروديادي" رائعة، وفائقة الجمال! فأخذها "أنتيباس" في سفينة إلى سوريا. وهجر زوجته التي كانت من نبيلات المؤابيين، ابنة الملك "أريطاس"، الذي كان يسيطر على الصحراء وعلى طريق القوافل. وقبعت "هيروديادي" بهدوء في قلعة ماكيروس هذه. وساد الغضب جميع أنحاء "يهودية" الورعة ضد هذا الانتهاك لقانون الرب! ثم أرسل "أنتيباس" الماكر رسله للبحث عن المعمدان، الذي كان يبشر دون جدوى عند نهر الأردن.

- ولكن لماذا، يا "توبسيوس"؟

- هذا ما حدث يا سيد "رابوزو".. ليرى ما اذا كان هذا النبي الفظ، والمدلل، والذي كان ينعم بالثناء وبخمر بلدة "شكيم" الجيد سوف يوافق على هذا الحب الآثم، بل ويستخدم نفوذه في السيطرة على "يهودية" و"الجليل"، وأن يسحر أعين المؤمنين، وأن يجعلهم يغضون الطرف عمَّا يحدث. ولكن، للأسف، سيد رابوزو"، لم يكن المعمدان ذا علم حقيقي أصيل.

كان قديسًا جليلًا، نعم، ولكن ليس مبدعًا؛ فقد كان يقلد النبـي العظـيم إليـاس في كل شيء؛ عاش في حفرة مثل إلياس. لبس جلد الوحوش مثل إلياس؛ تغذى على الجراد مثل إلياس. كرر العقاب الكلاسيكي لإلياس؛ فبينما صرخ إلياس ضد سفاح المحارم أمـام "أكابي"، سرعان ما ثار "المعمدان" ضد زنا المحارم أمام "هيروديادي"، للتقليـد لـيس إلا، سيد "رابوزو".

- وأخرسوا صوته بالحبس!

- بماذا! بالحبس؟

- بل أسوأ من ذلك، وأكثر ترويعًا! لقد أخفت "هيروديادي" رأسه في بطانيـة، حتـى لا تسمع صراخه وهو يستنزل اللعنات عليهم من أعماق الجبل.

وتلعثمتُ، ودمعتي تبلل مقلتي:

- إذا فقد أمر "أنتيباس" بقطع رأس القديس يوحنا!

- لا! كان "أنتيباس هيرودس" فـاترًا رخـوًا، وكـان فاسـقًا، سـيد "رابـوزو"، وشـهوانيًّا لأبعد الحدود! ولكن علامَ التردد! فقد كان فضلًا عن ذلـك، مثـل كـل الجليليـين، لديـه ضعف غامض تجاه الأنبياء وتعاطف قوي معهم.. ومن ثـم، أخـذ إليـاس الراعـي بثـأر صديقه "المعمدان"؛ لأن إلياس لم يمت، سيد "رابوزو"، كان يسكن السماء حيًّا بجسـده وروحه، ولا يزال يلبس الخيش في حالة يرثى لها، كثير البكاء، وشكله مخيف.

- يا للعجب!

غمغمتُ، وأنا أرتجف.

- حسـنًا، إنـه هنـاك.. ومعـه يوحنـا حيًّـا، يصرخ، لكـن كـره المـرأة كـان أكـثر مكرًا ودهاءً، سيد "رابوزو"؛ ففي يـوم مـيلاد "أنتيبـاس"، كانـت هنـاك مأدبـة ضخمة

في ماكيروس، والتي حضرها الإمبراطور "فتيليوس"[11] خلال سفره إلى سوريا.. أتَذكر ذلك الفظ المدعو "فتيليوس"، سيد "رابوزو"، الذي أصبح فيما بعد سيدًا للعالم؟ ففي وقت الاحتفال بمراسم تقديم الهبات والضرائب القادمة من الأقاليم، وكانوا يشربون نخب قيصر ونخب روما، وفجأة، وعلى صوت الدفوف دخلت عذراء رائعة ترقص على طريقة أهل "بابل".

كانت "سالومي" ابنة "هيروديادي" من زوجها "فيليب"، وقالت إنها تعلمت وتربت سرًا في قيسارية، في غابة، بالقرب من معبد "هرقل".. ورقصت "سالومي"، عارية ورائعة.. ولما التهبت مشاعر "هيرودس أنتيباس"، ولما تملكته الرغبة، وعدها بتنفيذ كل ما تريده مقابل قبلة من شفتيها... فأخذت طبقًا من ذهب، وعندما رأت أمها طلبت رأس "المعمدان"، فعرض عليها "أنتيباس" وهو مرعوب، مدينة "طبريا" بكنوزها ومئات القرى حول "جينوسار"... فابتسمت، ونظرت إلى والدتها. ومرة أخرى، بلهفة وإصرار، طلبت رأس يوحنا.. ثم صاح جميع الضيوف، الصدوقيين، والكتبة، والأثرياء من مدينة "ديكابولا"، وحتى الإمبراطور "فتيليوس" والرومان، بفرح: "لقد وعدتَ، يا أمير الرُّبع[12]، وأقسمتَ يا أمير!".

- وبعد لحظات، سيد "رابوزو"، دخل رجل أسود من إدوميا، حاملًا في إحدى يديه سيفًا، وفي الأخرى حاملًا رأس النبي من شعره.. وهكذا انتهى القديس يوحنا، الذي نغني له ونشعل من أجله النيران في ليلة حلوة من ليالي شهر يونيو.

(11)- فيتليوس: وهو أولوس فيتليوس جرمنيكس أغسطس وهو الإمبراطور الروماني الثامن، وأحد الأباطرة الذين حكموا في "عام الأباطرة الأربعة". ولي الحكم بعد أوثو في 17 أبريل من العام 69 الميلادي، وحكم بعده الإمبراطور فسباسيان اعتبارًا من 22 ديسمبر من نفس العام. ويكيبيديا، المترجم

(12)- إشارة إلى أنه كان يحكم رُبع بلاد الشرق.

كنا نستمع مسحورين لهذه الأشياء القديمة ونحن نسير الهوينا، عندما رأينا على البعد، على الشاطئ الرملي، سور حديقة من الزروع الكئيبة برونزية اللون.. صاح "بوت":

- إنه نهر الأردن، نهر الأردن!

وأسرعنا بالخيل إلى نهر الكتاب المقدس.

كان "بوت" المرح يعرف شاطئ مياه التعميد جيدًا؛ فقادنا إلى مكان شديد البهجة حتى نقيل عنده؛ ثم قضينا الساعات الحارة مستلقين على سجادة خائري القوى، ونشرب الجعة، بعد أن بردناها في مياه النهر المقدس.

إن النهر يمتد في فضاء واضح رقيق ثم يأتي ليستريح من الرحلة البطيئة الملتهبة التي امتدت من بحيرة "الجليل" عبر الصحراء حتى تغوص مياهه إلى الأبد في مرارة البحر الميت، وهناك يمشي الهوينا، وينشر مياهه على الرمال الناعمة. ويغني بصوت خفيض تملؤه الشفافية، ويدحرج الحصى اللامع في قاعه حتى يستكين في أروع الأماكن، تملؤه الخضرة والسكون تحت ظلال شجر التمر الهندي.

راحت أوراق شجر الحور العالي من بلاد فارس تتمايل فوقنا؛ وبين الأعشاب أخذت الزهور المجهولة تهتز، وهي التي كانت يومًا تلامس ضفائر العذارى من "كنعان" عندما كن يحصدن الكروم في الصباح؛ وفي ظلال الفروع الناعمة، حيث لم يعد صوت "جيوفا" - وهو اسم الله المذكور في التوراة وفي العهد القديم وفي الكتاب المقدس - الرهيب يخيفهم، وغردت طيور الدُّخل في سلام.

وفي الجهة المقابلة وقفت جبال المؤابيين زرقاء صافية، كما لو كانت مصنوعة من كتلة واحدة من الأحجار الكريمة. أمَّا السماء فقد بدت بيضاء صامتة، منطوية كما لو كانت تستريح في دعة من الأوقات الصعبة التي هزتها عندما كان شعب الله المختار يعيش بين الصلوات والوفيات، وعندما كانت أجنحة الملائكة

تهتز من حولهم، وكانت عباءات الأنبياء تتطاير في الهواء يحميهم الإله، ومن الممتع الآن أن نرى سربًا من الحمام البري يطير ناحية بساتين "إنجادا".

وحسب توصية "تيتي"، خلعتُ ملابسي وتحمّمت في مياه المعمدان. في البداية، كانت تملؤني مشاعر التقوى، ووطأت رجلي الرمال كما لو كنت أخطو فوق سجادة في محراب عالٍ.. كانت ذراعاي مطويتين عاريتين، وكان الموج يضرب ركبتي، وتذكرت القديس يوحنا، وهمست بصلاة "أبانا الذي...". ثم ضحكتُ، وبدأت أستمتع بهذا الحوض الريفي بين الأشجار.. ألقى لي "بوت" بإسفنجتي.. وصبنت جسمي في المياه المقدسة، وأخذت أدندن بأغنية "الفادو" التي كنت أغنيها مع "أديليا". وبعدما أنعشنا أجسامنا، وركبنا خيولنا، جاءت قبيلة من البدو تنزل من تلال "جلجلة"، ومعهم قطعان الإبل. جاءوا يسقون من نهر الأردن؛ كانت صغار الإبل البيضاء الرقيقة ترتع، وتصدر ثغاءً مميزًا، وكان الرعاة برماحهم المشهورة عاليًا، يصرخون صراخ المعارك ويهرولون وعباءاتهم تتطاير في الهواء.

وكان يخيل إليَّ أن هذا الوادي تحوَّل في سحر الغروب إلى وادي ريفي من العهد القديم عندما كانت "هاجر" فتاة صغيرة، وأنا جالس على السرج أمسك باللجام جيدًا، داخلني إحساس بطولي، وتمنيت لو كان معي سيف، وقضية، ورب أحارب من أجلهم. وتسرب الهدوء شيئًا فشيئًا ليعم الوادي المقدس.. وغطى وهج نادر أعالي جبال "مؤاب"، بلون وردي وذهبي، كما لو كان وجه الرب ينعكس عليه من جديد! ورفع "توبسيوس" يده العليمة وقال:

- هذه القمة المنيرة، سيد "رابوزو"، هي قمة "موريا"، التي مات موسى عندها!

أخذتُ أرتجف، وشعرت بالقوة تدب في جسمي وأنا أتوغل في هذه المياه المقدسة وهذه الجبال، ووجدت نفسي كواحد من هؤلاء الرجال الذين نزحوا مع موسى وأني أشعر بالأنس مع "جيوفا"، وأني قد وصلت للتو من أرض مصر السوداء أحمل نعلي في يدي، وأن هذا التنهد الذي يحمله النسيم جاء من بني

إسرائيل، بعد أن اجتازوا الصحاري الواسعة! يسيرون في المنحدرات تتبعهم الملائكة، وأن السفينة الذهبية تطير في الهواء من فوق رؤوس اللاويين وهم يلبسون الكتّان ويصدحون بالغناء.. ومرة أخرى، في الرمال الجافة، كانت أرض الميعاد تخضر، و"أريحا" يكسوها البياض بين الحقول؛ ومن خلال بساتين النخيل المورقة، كانت مزامير "جوشوا" ترن في الهواء!

لم أتمالك نفسي، فخلعت قبعتي، وأطلقت هذه الصيحة الورعة على أرض "كنعان":

- المجد لربنا يسوع المسيح! والمجد لكل من في السماء!

وفي وقت مبكر في اليوم التالي، الأحد، غادر "توبسيوس" الذي لا يكلّ ولا يملّ وهو بكامل هيئته حاملًا شمسيته في يده كي يتفقد أطلال "أريحا". هذه المدينة القديمة ذات أشجار النخيل التي ملأها "هيرودس" الكبير بالآبار، والمعابد والحدائق والتماثيل، وحيث قضى أيام حبه الملتاع مع كليوباترا من أورشليم. وأنا أقف على باب الخيمة، أستند على صندوق، وأشرب قهوتي، أتأمّل الأجواء السلمية لمخيمنا. وكان الطبَّاخ يطهو الدجاج. وكان البدوي الحزين عند حافة الماء يحمل سيفه مسالمًا، وكان الحوذي قد نسي أن يعطي الخيل طعامهم وهو يراقب أسراب البجع تجول في السماء ساطعة كالياقوت، تحلق في أزواج متجهة إلى "السامرة".

ثم وضعت خوذتي، وذهبت أتسكع في ذلك الصباح الحلو ويدي في جيبي، وأخذت أدندن بأغنية "فادو" وأنا أفكر في "أديليا" وفي السيد "أديلينو".. وهما منطويان في الحجرة يقبّلان بعضهما بشراهة، وربما كانا يسمياني "متطرفًا"، إذا عرفا بأنني هنا في منبع الكتاب المقدس! وربما كانت "تيتي" في تلك الساعة ترتدي عباءتها السوداء، ومعها كتاب الصلوات تذهب لحضور قداس سانتانا. وجرسونات مقهى "مونتانا" يصفرون بلا نظام وينظفون صالة البليارد، والدكتور "مارجريد"، بجانب النافذة، في ساحة "فيجيرا"، يلبس نظارته، ويتصفح جريدة الأخبار. ومدينتي الجميلة لشبونة. واقتربت أكثر بفكري حيث

أجتاز صحراء غزة وأفكر في مصر الخضراء وفي محبوبتي "ماريكوكيناس"، وهي تملأ في تلك اللحظة زهرية الشرفة بزهور المجنوليا والورود! وقطها ينام على كرسيها المخملي، وهي تتنهد وتنادي على "صغيرها البرتغالي الشجاع" وتنهدتُ أنا أيضًا.. وأنا أغني أغنية "فادو" حزينة بشفتي الحزينة أيضًا.

وفجأة، نظرتُ، فوجدت نفسي وكأنني ضللت الطريق في عزلة عظيمة وكئيبة.. كان المكان بعيدًا عن النهر والشجيرات العطرية والزهور الصفراء، ولم أعد أرى خيامنا البيضاء.. وأمامي صحراء قاحلة شاحبة من الرمال، وأغلقت الصخور الملساء الأفق فوجدت نفسي وكأن جدران بئر تحيطني. كانت صخور كئيبة جعلت ضوء الصباح البهي في هذا الصباح الشرقي الملتهب يسقط باهتًا حزينًا. ذكَّرني ذلك بالأماكن الخربة المعزولة، حيث الناسك ذو اللحية الطويلة يقرأ في كتابه ووجهه شاحب، لكن لم يكن أي إنسان ليقتل نفسه بهذا الزهد البطولي.. وفي منتصف هذا الفضاء المخيف، وقفت شجرة وحيدة، فخورة، ويبدو عليها أنها شيء ثمين ومن بقايا المقدسات. وقفت كما لو كانت الصخور التي تجمعت حولها قد فعلت ذلك لتبني لها بيتًا آمنًا. كانت شجرة منفّرة، مما جعل أغنية "الفادو" الحزينة تموت على شفتَي.

كان جذعًها سميكًا وقصيرًا ونحيلًا، وبدون عقد جذرية، مثل شجرة موكا عملاقة مغمورة في الرمال.. كان اللحاء رقيقًا وله بريق بشرة سوداء زيتية؛ ورأسها ضخمة بلون الفحم المطفي، يتكئ على سيقان طويلة كالعنكبوت. ميّزت منها ثمانية أفرع سوداء وطرية ولزجة، ومريضة يكسوها الشوك.. بعد طول نظر في صمت إلى ذلك الوحش، خلعت ببطء قبَّعتي، وهمست:

- لماذا تعيش؟!

وتأكد لي أنني أمام شجرة مهمة! وأن غصنًا من أغصانها (التاسع ربما) كان قد صنع منه قائدٌ روماني من حامية القدس في سالف الزمان تاجًا من الشوك، كي

يزين بسخرية، يوم تنفيذ حكم الإعدام، رأس نجّار من "الجليل". تمت إدانته.. نعم، أُدين لأنه يمشي بين القرى الهادئة وفي أفنية المعابد المقدسة مدعيًا أنه ابن داود، وأنه ابن الله، ولأنه يبشر ضد تعاليم الدين القديم، وضد المؤسسات القديمة وضد النظام القديم، وضد كل ما هو قديم! ولأن هذا الغصن لامس شعر الثائر المثقف، فقد تحوَّل إلى غصن مقدس، يرتفع فوق المذابح، ومن فوق الزينة العالية للنقَّالات يجعل الحشود تنحني له إجلالًا في شفقة عظيمة.. في مدرسة "الأزيدوريين"، أيام الثلاثاء والسبت، كان الأب "سواريس" العليم يقول وهو يجز على أسنانه: "كانت هناك يا أولاد شجرة يقولون عنها إنها تقشعر لرؤيتها الأبدان". إنها هي! أمام عيني - أنا يا أستاذ - شجرة الشوك الأكثر قداسة في العالم!

ثم طرأت عليَّ فكرة اهتزت لها روحي، لها بريق الوحي المنزّل من السماء.. سوف أحضر لـ"تيتي" واحدًا من هذه الفروع. أكثرها غموضًا، وأكثرها شوكًا، وأقدمه لها كأثرٍ مقدس يمتلئ بالمعجزات، والذي يمكن أن تكرس له حماس الأتقياء، يمكن أن تطلب منه بثقة أن ينزل عليها رحمات السماء! "إذا كنت تعترف بأنني أستحق شيئًا عمَّا قمت به لك، أحضر لي إذًا من تلك الأماكن المقدسة أثرًا مقدسًا..". هكذا قالت السيدة "باتروسينيو داس نيفيس" عشية رحلتي المباركة، وهي تلتف في عباءتها الحريرية الحمراء أمام القضاء والكنيسة، وذرفت دموعًا تحت نظارتها القديمة. ماذا يمكن أن أقدم لها أكثر قدسية، وأكثر شفقة وفعالية من فرع من شجرة الشوك التي زُرعت في وادي الأردن، في صباح مشرق وردي عند أداء القداس؟

لكن فجأة أحسست بعدم ارتياح.. ماذا لو كانت البركة العظيمة قد حلت على ألياف ذلك الجذع؟ وماذا لو بدأت صحة "تيتي" في التحسُّن وشُفي كبدُها، فسوف أقبع في مصلاها بين الشموع والزهور، مع واحد من فروع ذلك الغصن المليء بالأشواك؟ يا له من إنجاز بائس! سأكون أنا الذي حملت لها - بسذاجتي

- سر الصحة والعمر الطويل الذي سيجعلها عفية لا يمسها مرض، ولا يقربها الموت، وستبقى أموال القائد "جودينيو" في يدها الشحيحة! أمَّا أنا! أنا الذي سيبدأ الحياة فقط عندما تودعها هي!

ثم أخذتُ أطوف حول شجرة الشوك، وسألتها، بكل جد:

- هيَّا أيتها الوحش، أخبريني، هل أنتِ من الآثار المقدسة التي لها قوى خارقة للطبيعة أم مجرد شجيرة بشعة لها اسم لاتيني في تصنيفات "لينيون" عالم النبات السويدي والطبيب وعالِم الحيوان؟ تكلمي! هل أنت - كهذا الذي توجتِ رأسه بغرض السخرية - تملكين سر الشفاء؟ هيَّا أخبريني. إذا أخذتك معي إلى مصلى برتغالي جميل، وحررتك من عذاب الشعور بالوحدة ومن كآبة الظلمات، ومنحتك هناك الهدايا التي تقدم عادة في المقاصير، كرائحة الورود العطرة، ولهب الشموع تعبيرًا عن التقديس، والأيدي الممتدة احترامًا، وكل الدعوات في الصلوات، كل ذلك لن يحدث كي تمدي - بسماحة نية - في عمر من تقف عائقًا في طريقي، وتحرمني من ميراث وأفراح سريعة قد وجبت لجسدي الفتي! هيَّا أخبريني!

إذا كنتِ قد مُلئت بأفكار صبيانية عن المحبة والرحمة لما جاء ذكرك في الإنجيل، وستأتين بنية شفاء "تيتي" فلتمكثي هنا بين هذه الصخور، يخنقك غبار الصحراء، وتتلقي براز الطيور الجارحة، تتجرعي الصمت الأبدي! ولكن إذا وعدتني بأن تصمي أذنيك عن دعاء "تيتي" وصلواتها، وألا تتعدي كونك فرع نبات جاف بلا نفوذ، وألا تمنعي فناء جسدها المرجو، فسيكون لديك في لشبونة مأوى مليء بالترف عبارة عن مصلًّى مبطن بالحرير، وسوف تذوقين حرارة القبلات الورعة، وكل ما تتمتع به المعبودات، وأنا سوف أحيطك بالكثير من العشق الذي لن تحسدي بعده الرب الذي أصابه شوكك بالأذى. تكلمي أيتها الوحش .

لكن الوحش لم يجبني بشيء.. لكن سرعان ما مست روحي، بهدوء، نسمة صيف منعشة، وأتاني يقين بأن "تيتي" سوف تموت سريعًا وتتعفن في حجرتها. وبعثت لي شجرة الشوك عن طريق الاتصال الطبيعي بين عصارتها ودمي، هذا الإحساس العذب بأن السيدة "باتروسينيو" سوف تموت، ولك الوعد بألا تمنع أشواكها كبد تلك السيدة العفنة من التورم والتحلل. وكان هذا بيننا في تلك البرية، بمثابة العهد الأبدي الذي لا تنفصم عراه.

لكن هل هذه حقًّا شجرة الأشواك؟ جعلني تسَرّعُها في قبول الاتفاق أشك في مصداقية قدسيتها؛ فقررت التشاور مع العالِم الذي لا يُشق له غبار، "توبسيوس". ركضت إلى نبع "إليشع"، حيث كان صديقي يجوب الصخور، والألواح، والأطلال، وبقايا "أريحا" - مدينة النخيل - العظيمة. ولمحتُ المؤرخ اللامع رابضًا بجوار بركة من المياه، بنظاراته الطموحة، يتفحص قطعة من عمود أسود، تكاد تكون مدفونة في الوحل. وبجانبه حمار نسي أمر العشب الغض، وصار يحدق بنظرة فلسفية وبحماس وشوق، في ذلك الحكيم ولهفته في اقتفاء الآثار على الأرض بحثًا عن عيون المياه التي كان "هيرودس" قد أمر بحفرها، وأخبرتُ "توبسيوس" عن اكتشافاتي، وعن شكوكي؛ فنهض بسرعة متحمسًا ومستعدًا لمد يد العون، مسخِّرا علمه لقضيتي.

- شجيرة شوكية؟

تمتم، ومسح عرقه.

- لا بدَّ وأنها شجرة السدر (النبق) التي تنتشر في ربوع سوريا! ويظن عالم النبات السويدي "هاسلكويست"، أن تاج الشوك قد صنع منها. لها أوراق خضراء، مؤثرة جدًّا، على شكل قلب، مثل أوراق اللبلاب.. ها، لا تشبهها؟ عظيم، هي إذا شجرة اللساس الشوكية. هذه هي الشجرة التي استُخدمت، طبقًا للتاريخ اللاتيني، لصنع "تاج العذاب". لكني لا أتفق مع هذا القول،

و"هاسلكويست" جاهل، بالقطع جاهل، ولكني سأوضح ذلك، سيد "رابوزو"، سأوضحه بشكل لا لبس فيه، وإلى الأبد!

⌘⌘⌘

وقفنا مشدوهين في البرية، أمام تلك الشجرة المروّعة، ومد "توبسيوس" أنفه بشكل أكاديمي واستجمع للحظة مخزون المعرفة التي بداخله، ثم أعلن أنني لا يمكن أن أحمل لخالتي الورعة شيئًا أكثر روعة من هذه الشجرة، وكان متحمسًا جدًّا في كلامه.. إن كل أدوات الصلب (قالها وهو يفرد مظلته)، من مسامير، وليف، وبوص أخضر - والتي كانت مقدسة في وقت ما كأشياء استخدمت في المأساة الإلهية - سوف تخضع لمتطلبات الحضارة الحديثة، شيئًا فشيئًا، ويجري استخدامها في أغراض الحياة الخشنة.. وهكذا، فلم يعد المسمار يقبع دائمًا في فراغ المذابح، كي يذكرنا بالجراح المقدسة؛ فقد عملت البشرية بروح التجارة والدين على استخدام المسمار تدريجيًّا كأداة قيمة، وبعد أن اخترق يدي المسيح، فهو الآن يثبت، بشغف وتواضع، أغطية التوابيت النجسة. وأصبح أتباع المسيح الأكثر تقديرًا له يستخدمون البوص في صيد السمك. كما أنه يدخل في تكوين الألعاب النارية؛ وحتى الدولة نفسها (الحريصة جدًّا في الأمور الدينية)، أصبحت تستخدمه في الليالي الصاخبة احتفالًا بالدستور الجديد، أو في الاحتفالات الهزلية لزواج الأمراء. أمَّا الإسفنجة، التي أُغرقت في الخل بغرض السخرية وحُملت فوق سن الرماح، فصارت تُستخدم الآن في الحفلات الإلحادية بغرض التنظيف وهو ما كان الأتقياء يعترضون عليه دائمًا بغضب، وحتى الصليب، وهو الشكل الأكثر قدسية، فقَدَ بين الناس معناه المقدس. فبعد أن كانت المسيحية تستخدمه باعتباره رمزًا لها، أصبح الآن مستخدمًا كعنصر زخرفي لا أكثر؛ فأصبح الصليب مشبكًا للزينة، وصار مجرد حلية تعلَّق في القلائد، ويتلألأ على الأساور؛ وهو محفور في أختام الشمع، وهو

محفور على أزرة الأكمام، وأصبح الصليب في هذا القرن الرائع من أدوات الصائغ أكثر منه من أدوات الدين.

أكمل:

- لكن "تاج الأشواك"، سيد "رابوزو"، لم يتحول استخدامه إلى شيء آخر! نعم، لم يجرِ استخدامه لغرض آخر! فقد أخذته الكنيسة من يد القائم بأعمال القنصل الروماني، وبقى وحيدًا وإلى الأبد في الكنيسة، ليذكرنا بالمهانة العظيمة. وفي جميع أنحاء هذا الكون بما فيه من تنوُّع، يجد التاج مكانه الذي يشع بالكآبة في المقاصير. ووظيفته واحدة دائمًا، ألا وهي الإقناع بالندم.. لم يفكِّر أي صائغ في تقليده بالذهب، ولا مرصعًا بالياقوت، كي تزين به فتاة شعرها الأشقر؛ فهو فقط مجرد وسيلة استُعملت في أثناء الصلب؛ وعندما تراه مصحوبًا ببقع الدم على إطار صور المسيح فإن دموعك تنهمر بلا حدود.. إن أكثر الصناع دهاءً، بعد أن يتفحصه بعناية في يديه، سوف يعيده إلى المذبح باعتباره شيئًا عديم الفائدة في الحياة، لا في التجارة، ولا في الحضارة.. هو فقط من علامات الصلب، وملجأ للتعساء، وسلوى الضعفاء. هو فقط، من بين جميع الأدوات المذكورة في الإنجيل، يدعوك للصلاة بإخلاص.. فمن ذا الذي ينحني ليصلي لأبانا الذي في السماء - مهما بلغ من التدين - أمام ليفة ملقاة في حوض سباحة، أو أمام بوصة على شاطئ نهر جارٍ؟ لكن الأيادي المؤمنة تمتد دائمًا بالدعاء أمام تاج من الشوك، ويتخلصون من شعورهم بأنهم عديمو الإنسانية في فيض من الحزن عند طلب الرحمة والندم أمامه!

وهل هناك ما هو أكثر عجبًا لأحمله إلى "تيتي"؟

- نعم، "توبسيوس"، يا صغيري.. كلامك ذهب خالص.. لكن التاج الآخر الحقيقي، هل انتُزِع من هذه الشجرة؟ أصدقني القول يا صديقي؟

فرد العالم "توبسيوس" ببطء منديله المزين بالمربعات. وأعلن (أنه ضد التقاليد اللاتينية العريقة، وضد جهل "هاسلكويست") القائلين إن "تاج الشوك" تم قطعه من شجرة رقيقة ومرنة، والتي تنتشر في أودية القدس، وهي تستخدم كمصدر للإضاءة عند إشعالها، وتستخدم لعمل أسوار النبات حول الحدائق، وأنها تنبت زهورًا حمراء عديمة الرائحة ومنظرها كئيب. فغمغمت، وأنا أهز رأسي:

- يا للأسف! كانت "تيتي" سيروق لها أن يكون التاج قد قُطع من هنا، "توبسيوس"! إن تيتي غنية جدًّا!

فأدرك هذا الفيلسوف الحاذق أن هناك أسبابًا عائلية كما أن هناك أسبابًا اقتصادية أيضًا، وكان ذكيًّا. فمدّ يده فوق الشجرة، وقام بتغطيتها على نطاق واسع مع تأكيد علمه بها، وقال هذه الكلمات التي لا تُنسى:

- سيد "رابوزو"، لقد كنا صديقين حميمين. يمكنك أن تؤكد للسيدة خالتك، نيابة عن رجل تستمع ألمانيا لرأيه فيما يتعلق بالمسائل الأثرية، أن الفرع الذي ستأخذه منها وتصنع منه التاج، كان...

- كان ماذا؟

سألته وقد نفد صبري.

- كان من الشجرة نفسها التي أدمَتْ وجه الحاخام "جوشوا" الناصري، الذي يسميه اللاتين يسوع الناصري، وآخرون يدعونه المسيح!

وبعد أن قال العالم الألماني رأيه! سحبت سكيني الإشبيلي وقطعت أحد الفروع. وحين عاد "توبسيوس" للبحث عن الأعشاب الرطبة في قلعة "هيرودس شيبرون" وعن الأحجار الأخرى، أخذتُ أطوي الخيام في انتصار ومعي الكنز. في حين كان "بوت" المرح، يجلس على سرج، ويطحن القهوة.

- فرع رائع!

صاح "بوت"، وأكمل:

- أتريد أن تصنع منه تاجًا.. يجب أن تكون لديك المهارة!

وبعد ذلك، ببراعة نادرة، أخذ الرجل المرح يضفر الغصن الخشن بمهارة حتى صنع منه تاجًا مقدسًا. كان يشبه التاج الأصلي ويثير الأحاسيس بشكل غريب!

همست بحماس:

- كل ما ينقصه هو بقع الدم! يا إلهي، إن "تيتي" سوف تذهل عند رؤيته.

ولكن كيف سأحمله إلى القدس، مرورًا بتلال يهوذا، إن تلك الأشواك المزعجة - التي ما لبثت أن أخذت شكل التاج المؤثر حتى صارت مستعدة لتمزيق جسد بريء! ولم يكن "بوت" المرح يصعب عليه شيء.. أخذ من أعماق حقيبته قطعه ناعمة من القطن الخام؛ ولف بلطف التاج المجدول، كما لو كان يلف جوهرة هشة. بعد ذلك، وضعه في ورقة من الورق البني ولفها بشريط أحمر، فصارت لفة مستديرة، صلبة وخفيفة وأنيقة. أخذت أفكر مبتسمًا، وأنا ألف سيجارتي، في اللفافة الأخرى التي تحوي القميص الحريري ذا الأربطة الذي تفوح منه رائحة البنفسج ورائحة الحب، والتي بقيت في القدس، في انتظاري وانتظار قبلاتي.

- "بوت"، "بوت"!

صرختُ مبتهجًا:

- أنت لا تعرف ما هي الثروة التي ستجلبها لي هذه الحزمة الصغيرة!

وما إن عاد "توبسيوس" من عند عين "أليشع" المقدسة، حتى عرضتُ عليه الاحتفال بمناسبة عثوري على الأثر المقدس الذي ساقته لي العناية الإلهية. واحدة من زجاجات الشمبانيا المغطاة بسدادة من الذهب، والتي جلبها "بوت" معه.. شرب "توبسيوس" نخب "العلم!"، وشربتُ نخب "الدين!" وصارت رغاوي "مويد"

و"شاندون" أصحاب إحدى شركات الخمور تروي أرض "كنعان".. في الليل، ولمزيد من الاحتفال، أشعلنا النار؛ وجاءت النساء العربيات من "أريحا" يرقصن أمام خيامنا، ونمنا في وقت متأخر، عندما ظهر القمر فوق جبل "مؤاب"، من ناحية قلعة "ماكيروس"، هلالًا رقيقًا، مثل ذلك السيف الذهبي الذي قطع رأس يوحنا المشعّ.

كانت لفافة تاج الشوك بجانب مخدعي. وانطفأت النيران، ونام معسكرنا في صمت لا نهائي في "وادي الإنجيل"، ونمت أنا أيضًا في هدوء، قرير العين.

المحاكمة

حلمٌ جميلٌ ورحلةٌ عبر الزمن

كانت قد مرت ساعتان على الأقل على نومي، وأنا مستلقٍ على فراشي أغط في نوم عميق، عندما خُيّلَ إليَّ أن ضوءًا خافتًا، مثل ضوء شعلة لهب اخترق الخيمة، ومن خلاله ناداني صوت حزين يهمس:

- "تيوديريكو"، "تيوديريكو"، انهض واذهب إلى القدس!

فرميت الغطاء خائفًا، ورأيت العالِم "توبسيوس" وهو يمسك بيديه مهمازًا قديمًا يلبس به الحذاء سريعًا، وفي ضوء شمعة خافتة تبعث وميضًا على الطاولة حيث زجاجات الشمبانيا. كان صديقي سريعًا ومتحمسًا:

- انهض، "تيوديريكو"، على قدميك! فالخيل مسروجة ومستعدة! وغدًا هو عيد الفصح! عند الفجر يجب أن نصل إلى أبواب القدس!

وأخذتُ وأنا أصفف شعري أفكر بدهشة في الدكتور الرصين ذي العلم الغزير:

- يا "توبسيوس"! لماذا نرحل هكذا، فجأةً، دون أمتعتنا، ونترك الخيام منصوبة كما لو كنا هاربين مذعورين؟

رفع الرجل المثقف نظارته الذهبية التي أشرقت بنور أفكاره التي لا تُقاوم، ولبس عباءة رومانية بيضاء، لم أكن قد رأيُتها من قبل، وأحاطت العباءةُ الرومانية بطياتها الصافية العميقة جسده النحيل. وقال، ببطء وهو فاتح ذراعيه، بشفاهٍ تبدو كلاسيكية ورخامية كتماثيل الرومان:

- سيد "رابوزو"! هذا الفجر الذي سيُولد، وعمَّا قليل سيلامس مرتفعات "الخليل"، هو فجر الخامس عشر من شهر أبريل. ولم يكن في تاريخ "إسرائيل" كله، منذ عودة القبائل من "بابل"، ولن يكون هناك، حتى يأتي "تيتوس" الذي قاد جيش الرومان عام 70م لمحاصرة القدس لفرض الحصار على الهيكل، يومًا أكثر إثارة للاهتمام منه! أحتاج أن أكون في القدس لأرى هذه الصفحة من الإنجيل أمامي حية هادرة! لذلك، دعونا نحتفل بعيد الفصح المقدس في بيت "جملائيل" الذي هو صديق "هليل الحكيم"، وصديق لي أيضًا، وهو عليم بالأدب اليوناني، ووطني قوي، وعضو في مجلس الـ"سنهدريم". كان هو الذي قال: "كي تتحرر من عذاب الشك، فلتتخذ لنفسك سلطة". لذا، انهض حالًا سيد "رابوزو"!

هكذا همس لي صديقي الممشوق القوام، الهادئ. وأنا، بخضوع، كما لو كنت أمام أمر سماوي، بدأتُ بهدوء في ربط حذاء الركوب الغليظ الخاص بي. بعد ذلك بدأت أرتدي معطفي فدفعني بفارغ الصبر للخروج من الخيمة دون حتى السماح لي بجمع أشيائي: ساعتي والسكين الإشبيلي الذي كنت أضعه كل ليلة بحرص تحت الوسادة. تضاءل ضوء الشموع، وأخذت تصدر دخانًا أحمر. كان ذلك في منتصف الليل. وأخذ كلبان ينبحان على البعد، دون توقف كما لو كانا يحميان أسوار مزرعة مثمرة. كان هواء الصحراء الناعم تفوح منه رائحة بستان ورود وزهور البرتقال. وكانت سماء بلد النبي إسرائيل تتلألأ بروعة غير

مألوفة. وعلى قمة جبل نيبو، سطع نجم جميل برَّاق، بتـألق قـدسي، وكـان ينظـر إليَّ، ويخفق بشوق كبير، كما لو كان يبحث، وهو أسير في صمته، عني ليبـوح لروحـي بسر ما!

كانت الخيل تنتظر، بلا حراك ترفل تحـت شـعرها الطويـل. وركبـتُ. وبيـنما كـان "توبسيوس" يسرج حصانه، رأيـت، عـلى جـانبي ينبـوع إليشـع، صـورة رائعـة ملأتنـي برعب هائل. كان ذلك، تحت أضواء نجوم الشام الماسية، مثل الجـدار الأبـيض لمدينـة جديدة! وواجهات المعابد المثلثة مُضاءة تحت ضوء شاحب بين بساتين كثيفة مقدسة. وكانت المياه في مجاريها تتهادى إلى التلال البعيدة. وبعث اللـهب دخانًـا عـلى قمـة أحد الأبراج. وإلى أسفل منه، كانت سنون الرماح تلمع. وتلاشى صـوت بـوق طويـل في الظلام، كما قبعت قرية بين أشجار النخيل إلى جوار الحصون.

وبينما كان "توبسيوس"، يستعد للمسير، ويربت بيده على شعر حصانه، سألته وأنا مشدوه:

- ما هذا الأبيض، هناك؟

أجاب ببساطة:

- إنها "أريحا".

وانطلقنـا، راكضـين. لا أعـرف كـم مـن الوقـت بقيـتُ صـامتًا أنـا ومـؤرخ "آل هيرودس" النبيل.. كانت الطريق مستقيمة، مغطاة بألواح البازلت السوداء. نعم! على عكـس الطريـق القـاسي الـذي نزلنـا منـه إلى "كنعـان"، والـذي كـان يلمـع بلونـه الجيري، عبر الـتلال التـي بـدا فيهـا منظـر الشـوك المتنـاثر تحـت شـعاع الضـوء كأنـه كتلـة مـن الشـيخوخة والإهـمال! وكـل شيء مـن حـولي بـدا لي مختلفًـا جـدًّا: شـكل الصـخور، وعبـق الأرض الدافئـة، وحتـى لمعـان النجـوم. مـا الـذى تغـيَّر في نـفسي، ومـا الـذي تغـير في هـذا الكـون؟ في بعـض الأحيـان كانـت شرارة قويـة تتطـاير

من حدوات الخيول. وبدون انقطاع، كـان "توبسـيوس" يـركض ممسـكًا بغـرة الفـرس، وكانت عباءته البيضاء ترفرف على الجانبين مثل رفرفة الأعلام.

لكنه توقف فجأة. كنا بجوار منزل مربع بين الأشجار، وكان البيـت سـاكنًا ومظلـمًا، ويعلو واجهة قضيب ثُبتت أعلاه لوحة غريبة خيّل إليَّ أنها قُطعت مـن لـوح حديـدي على شكل حداءة. وعند المدخل كانت هناك نار؛ قلبتُ الخشب عـلى النـار؛ وفي ضـوء اللـهب القصير الذي بعثت به النيران أدركتُ أنه نـُزُل قديم على حافة طريق قديمـة. وتحت الحداءة، وفوق الباب الضيق المليء بالمسامير، أضاءت لافتة بيضاء كُتـب عليهـا باللون الأسود باللاتينية "Ad Gruem Majorem"، وعلى جانب مـن الواجهـة، كُتـب نقش بصورة فجة على الحجر، استطعت بالكاد فك رموزه، وفيها وعد "أبولو" الضيوف بالصحة، كما يعد "سبتيمانو"، صاحب النُزُل، الضيوف باستقبال حافل، وحمام ينسيهم شقاء السفر، ونبيذ "كامبانيا" القوي، والمخللات الطازجة من "إنجادا"، و"جميع وسائل الراحة على طريقة روما".

فهمست بارتياب:

- على طريقة روما!

يا لغرابة الطرق التي في تلك الأيام الخوالي؟ ويا لاختلاف أولئك الرجال عنّا تمامًا في الملبس واللسان، فقد كانوا يشربون هناك، تحت حماية آلهة أخرى، النبيذ في جرار من زمن الشاعر الروماني "هوراتيوس"؟

لكن مرة أخـرى سـار "توبسـيوس"، برشـاقة وغمـوض في جـوف الليـل. والآن وقـد انتهت الطريق المغطـاة بالبازلـت الرنـان، صـعدنا خطـوة خطـوة طريقًـا غـير ممهـد، مشقوق بين الصخور، حيث الأحجار الضخمة رنانة والصـخور الصـغيرة تتـدحرج عـلى أرجل الخيل كما لو كانت في قاع سيل جففها حر أغسطس الشديد.

وأخذ العالِم الدكتور وهـو يهتـز عـلى سرجـه يسـب بصـوت أجـش "السـنهدريم"، والشريعة اليهودية القاسية، التي كانت تقاوم بلا كلل كل عمـل مـتحضر يريـد الـوالي القيام به "كان "الفريسي" يعترض دائمًا على عمل القناة الرومانية التـي تـأتي لـه بالمـاء، وعلى الطريق الروماني الذي يذهب بها إلى المدن، وعلى الممرضة الرومانية التي تداوي له الجراح...".

- اللعنة على "الفريسي"!

وأخذت أتذكر مشاحنات قديمة من الإنجيل، وهمست وأنا منطوٍ في عباءتي:

- "الفريسي"، قبر أبيض.. عليه اللعنة!

كان الليل ساكنًا، وحينها كانت ذئاب الجبل تذهب للشرب. أغلقتُ عيني. وغـارت النجوم. وكأن الرب جعل ليالي شهر أبريل الناعمة قصيرة. في تلك الليالي.. في ليلـة عيـد الفصح التي يُضحي الناس فيها بالحمل الأبيض في القدس. وسرعان مـا لبسـت السـماء الثوب الأبيض قادمة من ناحية جبال "مؤاب". استيقظتُ عندما كانت الماشية بالفعـل ترعى في التلال ورائحة الهواء المنعش مشبعة بالروزماري. ثم رأيـت، وأنـا أتجـول بـين الصخور التي تحف الطريق، رجلًا شرسًا غريـب الأطـوار، يلـبس جلـد الغـنم، فـذكرني بالنبي إلياس وكل صـور الغضـب في الكتـاب المقـدس. كـان صـدره وسـاقيه يشـبهون الجرانيـت الأحمـر. وتشـابك شـعره مـع لحيتـه بشـكل فـظ مقـزز حتـى صـار مثـل لبدة أسد شرس، وكانت عيناه تلمعان بعنف شديد.. ولما انتبه لوجودنا مدَّ ذراعيه كما لـو كـان سـيرمينا بحجـارة، وأخـذ يصـب علينـا كـل لعنـات الـرب! قـال علينـا " ملحـدين"، ودعانـا بــ"الكـلاب". وصـاح: "اللعنـة عـلى أمهـاتكم، جـف الثـدي الـذي أرضعكم!" كانت صيحاته القاسية المليئة بنذر الشؤم تلاحقنا من أعـلى الصـخور. ولمـا تباطأت فرس "توبسيوس" تدثَّر بعباءته، كما لو كـان قـد أصـابه بـرد شـديد. وعنـدما شـعرتُ بالغضـب؛ التفـت إلى الـوراء، وقلـت لـه "يـا سـكران" ونعتـه بأقـذع

الألفاظ. ورأيتُ، حينها تحت شعلة عينه البرية فمًا أسود فاسدًا، يريل من فرط غضبه الورع.. ولكن، ما إن خرجنا من ذلك الجرف حتى دلفنا إلى طريق واسع مرصوف، وهو الطريق الروماني الذي يذهب إلى "شكيم". وشعرنا ونحن نسرع فيها بالخيل بالارتياح للوصول أخيرًا إلى منطقة متحضرة، وحانية وإنسانية وراقية. وكثرت فيها المياه على التلال وشُيدت قلاع جديدة. وأحيطت الحقول بالحجارة المباركة.

وفي الأجران البيضاء، أخذت الثيران، تزينها شقائق النعمان، تدهس محصول القمح من حصاد عيد الفصح. وفي البساتين، حيث كان شجر التين قد غطته بالفعل الثمار، وقف الخادم في برجه الأبيض يغني والعصا في يده، يطرد بها الحمام البري. وفي بعض الأحيان كنا نرى رجلًا يقف بالقرب من كرمه، أو على شط قنوات الري، مشدود العود، مع عباءة ألقيت على رأسه وعيناه تتجهان للأرض يتمتم بصلواته المقدسة. وصاح بنا بائع زيت كان يحث حماره على المشي: "طوبى لأمهاتكم، ومبارك عليكم عيد الفصح!" ثم رأينا رجلًا أبرص، يستريح في الظل، في بساتين الزيتون، وسألنا وهو يشتكي ويرينا جروحه، عن الحاخام الذي كان في القدس والذي يشفي البرص، ومن أين يمكنه أن يشتري العشب الذي يشفي البرص.

كنا نقترب بالفعل من "بيتانيا"[13]. فتوقفنا عند نافورة جميلة تحت ظل شجرة أرز. وكان الدكتور وهو يشد السرج يتعجب لماذا لم نجد القافلة القادمة من "الجليل" إلى القدس للاحتفال بعيد الفصح - عندما سمعنا على الطريق قعقعة ضعيفة لصوت الأسلحة تأتي من بعيد... ورأيتُ، مشدوهًا، جنود روما يظهرون، مثل أولئك الذين كنت ألعنهم كثيرًا في عيد الفصح! كانوا ملتحين لونهم برونزي من أثر الشمس، كانوا يسيرون بثبات وسلاسة، بخطى كخطو

(13)- وتدعى الآن "العيزرية" الآن في الضفة الغربية، ويكيبديا، المترجم

الماشية، وصوت أحذيتهم يدوي على رصيف الطريق. وحملوا جميعهم الدروع ملفوفة في أكياس قماشية على جنبيهم. ورفع كل واحد شوكة عالية على كتفه، معلق عليها حزم مربوطة، وأطباق برونزية، وزعف النخيل. كانت بعض الصفوف يمسكون في أيديهم خوذاتهم مثل الدلو؛ بينما أمسك آخرون بأيديهم المشعرة رماحًا قصيرة يهزونها في الهواء. وكان قائد الفصيلة السمين الأشقر يتبعه غزالٌ أليف مزين بالشعاب المرجانية يهيم على الخطى القصيرة للحصان، يلفه غطاء قرمزي. وفي الخلف، بجانب البغال المحملة بأكياس القمح وحزم الخشب، كان الحوذيون يغنون على نغم ناي من الفخَّار، يعزف عليه رجل أسود شبه عار، وقد حمل على صدره بخط أحمر رقم الفيلق الذي ينتمي إليه.

اتجهت إلى ظلال شجر الأرز. لكن "توبسيوس"، لكونه ألمانيًّا متملقًا، ترجل من على فرسه، وخر راكعًا حتى كاد أن يمس الحصى، أمام أسلحة روما. ولم يقف عند هذا الحد فصاح وهو يلوح بذراعيه وعباءة:

- يحيا "كايوس تيبيريوس"، الذي كان قنصلًا لثلاث مرات، الإليري، البانوني الجرماني، الإمبراطور، صانع السلام، العظيم!

وضحك بعض جنود الفيلق، بسخرية. ومروا، جنبًا إلى جنب، وهم يصدرون ضجيجًا بأسلحتهم المعدنية، بينما فر راعٍ بغنمه بعيدًا إلى قمة التلال.

عاودنا الركض مرة أخرى. وانتهت الطريق البازلتية. وتوغلنا بين البساتين، حيث رائحة الزروع البهية النضرة الوفيرة. ياه، لقد كانت هذه الطرقات مختلفة تمامًا عن ذي قبل، وهذه التلال، التي رأيتها قبل أيام، حول المدينة المقدسة، بعدما أصابتها ريح جردتها من زروعها فجعلتها بيضاء لونها كلون العظام. صار كل شيء أخضر، ومرويًا وظليلًا. وحتى الضوء نفسه فقد تلك المسحة الكئيبة واللون المؤلم، الذي رأيته دائمًا، يغطي القدس. وازدهرت أوراق أزهار أبريل وتلونت بزرقة فتية حانية، مليئة بالأمل.. ومن حين لآخر كانت

عيني تشرد طويلًا في هذه البساتين التي ذكرت في الكتاب المقدس، والتي تمتلئ بشجر الزيتون، وشجر التين والكروم، وحيث تنمو الزنابق الحمراء البرية، أكثر روعة من بساتين الملك سليمان!

وركضت بحصاني وأنا أدندن ناحية بستان مستطيل فرش بجميع الورود. لكن "توبوسيوس" أوقفني، وأشار ناحية قمة تل على خلفية قاتمة من أشجار السرو والأرز إلى منزل يتجه ناحية الشرق، والضوء يشع من رواقه الأبيض. وقال إنه ملك لرجل روماني، من أقارب "فاليريو جراتو"، المبعوث الإمبراطوري لسوريا. ويبدو أن البيت يلفه سلام جميل ونعمة لاتينية. فيه سجادة مورقة، مع العشب الناعم، ويتجه إلى أسفل منحدرًا إلى حقل الخزامى، وفي الوسط، على خلفية خضراء، رُسمت بخطوط من الزهور القرمزية الأحرف الأولى من "Valerio Grato"؛ وعلى الأجناب، وبين أحواض الورد والسوسن، المحاطة بشجر الآس، تلألأت آنية جميلة من المرمر الكورنثي، نُحتت عليها زخارف نباتية؛ وقام خادم يرتدي عباءة رمادية بنحت جذوع على شكل صندوق، وإلى جانبه صندوق آخر طويل تم نحته بحكمة على شكل قيثارة؛ وأخذت الدواجن ترعى في الأرض، المغطاة بالرمل القرمزي، في بهو من أشجار الموز الذي التفت على جذوعه فروع اللبلاب بين جذع وآخر، مثل الأكاليل التي تزين المعابد؛ وكانت فروع الغار تستر بظلالها عري التماثيل. وتحت عريش شجرة الكروم، وعلى صوت خرير الماء البطيء في وعاء من البرونز، جلس رجل عجوز في حلته، هادئًا وضاحكًا وسعيدًا، يقرأ بجانب صورة "آسكليبيوس" إله الطب عند اليونان لفافة طويلة من ورق البردي، في حين أخذت فتاة في ضفائرها دبوس ذهبي، وترتدي الكتان الأبيض تصنع إكليلًا من الزهور التي ملأت حجرها. وعندما سمعت وقع خطو خيولنا نظرت بعيونها الملونة إلينا. فصاح "توبسيوس":

-أوه، أنقدونا، يا لروعتها!

وصرختُ:

- عاشت النعمة!

وغنت طيور الشحرور على شجر الرمان المزهرة.

وبعد حين، أوقفني "توبسيوس" ذو العلم الغزير، وأشار إلى منزل ريفي آخر مظلم وكئيب بين أشجار السرو. وأخبرني بصوت خفيض بأنه ملكٌ لـ"أوسانياس"، الصدوقي الغني في القدس، من عائلة "بويتوس" التقية، وعضو في "السنهدريم". لم تكن به أي زينة وثنية تدنس الجدران. كان البيت مربعًا ومغلقًا وجامدًا، وكأنه يعكس صرامة القانون. لكن الحظائر الواسعة، والمغطاة بالقش، ومعاصر النبيذ، والكروم، تخبرنا عن الثروات التي جُلبت من القرابين الثمينة. لم يكن يكفي عشرة من العبيد ليحرسوا أجولة القمح، والقرب، والكباش التي مُيّزت باللون الأحمر والتي تم جمعها مقابل العشور في عيد الفصح. وبجانب الطريق، بخليط من التقوى والتفاخر بُنيت قبور العائلة بيضاء اللون، ومشرقة في ضوء الشمس، ومحاطة بشجيرات الورد.

وهكذا، سرنا حتى وصلنا بساتين النخيل حيث قرية "بتفاجي". وعبر طريق خضراء كان "توبسيوس" يعرفها، بدأنا في تسلق جبل الزيتون، حتى وصلنا إلى مطحنة جبال "مؤاب" - وكانت محطة تتوقف عندها القوافل التي لا نهاية لها، على الطريق الملكي القادم من مصر، متجهًا لدمشق المباركة - كنا كمن رأى عجبًا، وخاصة عندما وقفنا على الجبل ومن حوله بساتين الزيتون من السفح إلى وادي "قدرون"، ومن عند بساتين الوادي إلى "سلوام"، في وسط المقابر، وحتى على الجانبين حيث الطريق مغبر من الخليل، بفعل الصحوة الصاخبة لشعب بأكمله! كانت الخيام الصحراوية السوداء المصنوعة من جلد الغنم تحيط بها الحجارة. والأكواخ المصنوعة من القماش الخاصة بشعب إدوميه المنصوبة تحت الشمس بين الحقول. وأكواخ صنعت من فروع الأشجار،

حيث يأوي إليها رعاة "عسقلان"؛ وكان حجاج "نفتالي" يعلقون المظلات من السجاد على قضبان من خشب الأرز. كان كل سكان "يهودية" عند أبواب القدس، للاحتفال بالفصح المقدس! وكان هناك، حول المكان محطة للمحاربين القدامى، والتجار اليونانيين من المدن العشر المعفاة من ضريبة الروم، والنساجين الفينيقيين من "طبريا"، والشعب الوثني الذي جاء عبر السامرة من ناحية "قيصرية" والبحر.

وصرنا نمشي ببطء وحذر. وتحت ظلال أشجار الزيتون وضعت الجمال أحمالها وأخذت تجتر الطعام بهدوء، كما قُيدت الخيول من أرجلها، ووقفت برؤوسها المميزة بشعرها الكثيف الطويل، وبجوار الخيام التي رُفعت قليلًا عن الأرض رأينا بريق أسلحة معلقة، وأطباقًا كبيرة وضاءة، وفتيات تتألق الأساورُ في أيديهن وهن يطحن على الرحى حبوب الجاودار، وأخريات يحلبن الماعز، وأشعلت النيران في كل مكان.. ورأينا جمعًا من النساء يحملن الجرار على رؤوسهن وأطفالهن في أيديهن ينحدرن ناحية عين "سلوام".

تعثرت حوافر خيولنا بحبال خيام "الأدوميين". وواصلنا المسير حتى مررنا بسجاجيد معلقة وبجانبها تاجر من "قيصرية"، يلبس عباءة قرطاجية، مبهرجة ومطرزة بالورود، وينادي على قطع من الكتان المصري، ويعرض حرير "كوش"، وأسلحة مطعمة، وآخر يحمل قارورة في كل يد يمارس الحيل الآشورية في اللعب بالزهر، ويعرض زيوت "فرثيا" الحلوة. كان الناس من حولنا، يبطئون السير ويطيلون النظر إلينا بعيون ساهمة ومتغطرسة؛ فمرة يتلفظون بشتائم مقززة، ومرة يتهكمون على نظارة السيد "توبسيوس"، بالسخرية والضحك الذي يكشف عن أسنان وحوش حادة تحيطها لحى سوداء وقحة.

وفوق الأشجار أو متكئين على الجدران، وقفت صفوف من المتسولين، يكشفون الخرق التي يغطون بها جراحهم. وأمام كوخ مصنوع من فروع

شجر الغار، وقف رجل بدين، وجهه أحمر ينادي بنبيذ "شكيم" الطازج وفول إبريل الجديد. أمَّا بدو الصحراء فقد تزاحموا حول أغصان الفاكهة. وكان هناك راعٍ من "عسقلان"، في وسط سرب من الحملان البيضاء، ينفخ في بوق، وينادي المؤمنين لشراء حمل طاهر لعيد الفصح. ويسير بين الجنود الرومان الذين يسيرون أزواجًا، وأغصان الزيتون على خوذاتهم.

حتى وصلنا عند شجرتين طويلتين من أشجار الأرز الوارفة، تغطيهما الحمائم البيضاء، تحلق في الهواء كأنهما شجرتا تفاح كبيرتان في فصل الربيع، هبت عليهما الرياح فصارت زهورهما تتطاير في الهواء. وفجأة، توقف "توبسيوس" وفتح ذراعيه، وفتحت ذراعي أنا أيضًا، وكأنما توقفت دقات قلبينا، مبهورين، نرى أسفل منا مدينة القدس تسطع في النور. كانت الشمس تغمرها، بسخاء! كانت الجدران القوية النبيلة تزينها الأبراج الجديدة، والأبواب المزينة بالحليات الحجرية وطلاء الذهب، وقفت شاهقة على شفا بركة قدرون الوعرة، والتي جفت بفعل ارتفاع درجات حرارة أبريل، وكانت تحيط بالمدينة من عند قرية "بيت حانون" وحتى جبال "جريب".. وفي الداخل، في مواجهة الأرز الذي كان يظلنا، ظهر لنا المعبد، يتكئ على أساساته الخالدة، وكأنه استحوذ على المدينة كلها، في عزة وروعة. كانت جدرانه من الجرانيت المصقول، ويتكئ سقفه على أعمدة من الرخام، كقلعة إله بهية المنظر!

انحنى "توبسيوس" على فرسه احترامًا وهو يشير إلى فناء الكنيسة العتيق، الذي يُدعى باحة الأمم. كان شاسعًا بما يكفي لاستقبال كل جموع بني إسرائيل، وكل جموع الأرض الوثنية معهم. كانت الأرضية الناعمة تلمع مثل ماء المسبح الصافي؛ والأعمدة التي قدَّت من رخام "باروس" على الجانبين مكونة أروقة الملك سليمان، الفسيحة ذات الجو البارد والتي كانت أكثر كثافة من جذوع بساتين النخيل الوفيرة في "أريحا". في وسط هذه الباحة، المليئة

بالهواء البارد والضوء، ارتفعت أبراج وأقواس تطير منها الحمائم فوق سلالم برَّاقة مثـل المرمر، أبوابها مطلية بالفضة، وهي شرفة نبيلة لا يدخلها إلا المؤمنـون وشـعب اللـه المختار، فهي باحة "إسرائيل" التي تعتز بها. ومن هناك ترى شرفـة أخـرى بيضـاء، لهـا سلالم براقة أيضًا. كانت هذه منطقة خاصة بكهنة المعبد، وفي الوهج المنتشر الذي مـلأ المكان رأينا مذبحًا ضخمًا من الحجارة الخام، مغطى عند أركانه برقائق البرونـز؛ وعـلى جانبيه تصاعدت أعمـدة البخـور المسـتقيمة بـبطء، فتغـوص في الزرقـة بهـدوء صـلاة خالدة.

وعلى البعد، كان "هيرون"، قدس الأقداس، وبيت الرب، وهو الأكـثر علـوًا وإبهـارًا. مليء بالنقوش الذهبية فوق ألوان المرمر الرائعة، البيضاء والصفراء، كما لو كـان صـنع من ذهب وثلج خالصين، يتلألأ بشكل رائع، ويلقي بالوهج على التلال المحيطة. وعـلى بابه عُلِّق الحجاب الروحاني المنسوج في "بابل"، بلون النار ولون البحار. وعلى الجـدران تسلقت أوراق كرمة من الزمرد، تحيطهـا مجموعـات مـن الأحجـار النفيسـة الأخـرى، وتدلت من القبة حراب طويلة مسننة من الذهـب، ملأتها ببريق يشبه أشعة الشـمس. وهكذا، ارتقى المسيح للسماء التي تحتفل بعيد الفصح متألقًـا جـدًّا، ومنـتصرًا، وقـورًا وثمينًا ومضحيًا بنفسه، كأجمل هدية، ومقدمًا أندر هدية على الأرض! لكن على جانب المعبد، أراني "توبسيوس" برج "أنطونيا" الشاهق، يفوق المعبد ارتفاعًـا، ويختـال عليـه كسيد فخور بنفسه، وهو بـرج أسـود ضـخم، لا يمكـن اختراقـه، وكـان حصـنًا للقـوات الرومانية. وعلى المنصة بين الأسوار، كان جنود مسلحون يتحركون، وعلى السور المقابل للقلعة كان هناك رجل يلبس عباءة "قائد المئة" الحمراء، يمـد ذراعـه. وكانـت الأبـواق تعزف ببطء كأنها تحادث بعضها بعضًا، وتعطي الأوامر لأبراج أخرى على مسافة منها، اكتسبت اللون الأزرق في الهواء النقي، تحيط بالمدينة المقدسة، وبدا لي أن قيصر أقوى من يهوه!

وأراني أيضًا، إلى جانب قلعة "أنطونيا"، قرية "داوود" القديمة، وكانت عبارة عن مجموعة من البيوت المغلقة، المطلية باللون الأبيض والأزرق، تنحدر كقطيع من الماعز الأبيض إلى وادٍ لا يزال ظليلًا، حيث وُضعت لوحة تذكارية بين بوائك الأعمدة، ثم تصعد القرية بشوارعها المتعرجة، ثم تنتشر على تلة "أكرا"، غنية، فيها القصور، والحمامات المستديرة التي تلمع في الضوء مثل الدروع الفولاذية.. وفي الأفق، خلف جدران قديمة مهدمة، كان هناك حي "بزيتا" الجديد قيد الإنشاء. وظهر لنا مسرح "هيرودس" ببوائك أعمدته الدائرية. وامتدت حدائق "أنتيباس" حتى الربوة الأخيرة لتصل إلى قبر "هيلينا"، وهي حدائق غُطيت ممراتها بالخشب، وجوها رطب، وترويها المياه الحلوة لعين "أم الدرج".

- آواه يا "توبسيوس"، يا لها من مدينة!

قلتها وأنا مشدوه.

يقول الحاخام "إليعازر" إن أي شخص لم ير القدس لم يرَ قط مدينة جميلة! لكن مر بجانبنا أناس سعداء، يركضون على جوانب الطريق الخضراء الصاعدة من "بيسان". وأخذ رجل عجوز يهرع إلى جوار حماره يسند حملًا من زعف النخيل، وصرخ فينا معلنًا أنه رأى الموكب القادم من "الجليل"!

ثم أخذنا الفضول فركضنا إلى كوخ، بجوار بستان من الصبار، حيث كانت النساء يحملن الأطفال في حجورهن، ويشرن بأحجبتهن البيضاء، يرسلن بكلمات البركة والترحيب؛ وسرعان ما رأينا، في غبار بطيء، كسته أشعة الشمس باللون الذهبي، صفًا عظيمًا من الحجَّاج الذين هم آخر من يَصِلون إلى القدس، قادمين من بعيد، من أعالي "الجليل" ومن "جيسكالا" أو "الجش" ومن الجبال.

وملأت جوقة من الأغاني أجواء الطريق الاحتفالية. وحول لافتة خضراء، كان زعف أشجار النخيل والفروع المزهرة من أشجار اللوز ترفرف؛ والأحمال العظيمة

على ظهور الجمال، تهتز في توازن وإيقاع بين العمائم البيضاء المتراصة التي يتحرك أصحابها في مسيرة حاشدة. وقام ستة فرسان من الحرس البابلي لـ"أنتيباس هيرودس"، حاكم "الجليل"، بمرافقة القافلة من "طبريا". كانوا يرتدون عباءات من الوبر، ولحاهم الطويلة تنتهي بضفائر، أرجلهم مربوطة بشرائط من الجلد الأصفر. وكان أمامهم رجال يفرقعون بسياطهم الجلدية في الهواء، واليد الأخرى ترفع المشاعل في الهواء، أو تلوِّح بسيوف برَّاقة. وفي الصفوف الخلفية جاءت جماعة من كنيسة "اللاويين"، في جوقة، يسرعون الخطى، ويتكئون على عصي مزخرفة بالزهور، ويعلقون على صدورهم لفافات من الكتاب المقدس، وينشدون ألحانًا في مدح "صهيون". وأخذ الشبَّان الأقوياء من حولهم بخدودهم المنتفخة ينفخون بشدة ووجوههم للسماء أبواقًا برونزية معقوفة.

لكن من بين الحشود على جانبي الطريق صاح أحدهم. كان رجلًا عجوزًا دون عمامة، وشعره منكوش. ظل يرقص بشكل محموم. وكان يمسك بالصنجات بيديه المشعرتين اللتين كان يحركهما في الهواء بخفة وسرعة؛ وكان يرفع ساقًا وينزل أخرى. ذكرتني لحيته التي غطت وجهه بالملك داوود. ومن خلفه أخذت الفتيات يرقصن بإيقاع متناسق على أطراف صنادلهن الرقيقة، ويعزفن على آلات الهارب الخفيفة، بينما كانت مجموعة أخرى يدرن حول أنفسهن ويضربن الدفوف، وكلما قفزن لأعلى ظهرت أساور براقة في أرجلهن من تحت جلابيبهن المطرزة. أخذ الحشد وهو يبتعد يغني أغنية من التراث الديني القديم ومزامير الحج.

"خطواتي كلها لك يا أورشليم! أنت البهية! من يهواك فقد حلت عليه البركة".

وصحت أنا أيضًا، متأثرًا:

- أنت قصر الرب يا أورشليم وأنت الشفاء لقلبي!

سارت القافلة بطيئة ومجلجلة.. وكانت نساء اللاويين، يركبن الحمير، ويرفلن في حجبهن. يلبسن القلنسوات ويشبهن الأكياس الناعمة الكبيرة؛ وكنّ أكثرهن فقرًا، يسرن على الأقدام، ويحملن في حجورهن الفواكه وحبوب الشوفان. أمَّا أغنياء الحجاج فقد جاءوا بقرابينهم يقدمونها للرب، ويجرّون وراءهم خرافًا بيضاء. أمَّا الرجال الأقوياء فقد جاءوا يحملون المرضى في أذرعهم وعلى ظهورهم، وقد اتسعت أعينهم في وجوههم المتقشفة، يقصدون أسوار المدينة المقدسة، حيث تُشفى كل الأمراض.

وبين الحجَّاج والحشد البهيج الذي يرحب بهم كانت الأدعية بالبركة تروح وتجيء صاخبة ومتحمسة. كان البعض يسأل عن الجيران والبعض الآخر يسأل عن المحاصيل أو الأجداد الذين بقوا في القرية في ظل كرومهم. وعندها رأيتُ بجانبي عجوزاً له لحية كلحية إبراهيم، يلقي بنفسه على الأرض، ويرتجف ويمزق ثوبه، كأن به صرع. ولكن بمجرد أن انتهى المسير، مرت البغال بأجراس في رقبتها، محملة بالحطب وقرب زيت الزيتون. وفي الخلف سار حشد من المتعصبين الذين تجمعوا من القرى المجاورة في "بيت فاجي" و"أفرائيم" وانضموا للقافلة، وأخذوا يقذفون على الجانبين قرع النبيذ الفارغة، شاهرين السكاكين، داعين على السامريين بالموت ومهددين كل الوثنيين. تبعت " توبسيوس"، وأخذنا نركض مرة أخرى عبر الجبل، إلى جانب أشجار الأرز التي امتلأت بالحمائم التي تأوي إليها. وفي تلك اللحظة ظهر الحجاج على الطريق عندما وصلنا أخيراً إلى القدس التي أشرقت في السفح جميلة، بيضاء تتلألأ في الضوء. ثم مررنا بقديس، صاخب، يهذي بحماس شديد! وسجدت الحشود على الأرض وأخذت تمرغ الوجوه في الأرض الصلبة. وصعدت الصلوات إلى السماء الصافية بأصوات التوبة المخنوقة؛ ورفعت النساء الأطفال بين أذرعهن، تعرضهن في جنون قرابينَ للرب! بينما وقف البعض مشدوهين بلا

حراك أمام روعة صهيون. وفرت دموع الحب والورع والإيمان الحارة على اللحى الوحشية غير المهذبة.

وأخذ الشيوخ يشيرون بأصابعهم إلى شرفات المعبد، والشوارع القديمة والأماكن المقدسة في تاريخ "إسرائيل": "هناك، "باب إبراهيم"، وهناك كان "برج التنانير"، وتلك الحجارة البيضاء، هي جزء من قبر "راحيل"...". وأولئك الذين يستمعون من حولهم، يتزاحمون، ويصفقون بأيديهم، ويصيحون: "مباركة أنت يا "صهيون"!" بينما ركض آخرون، في ذهول، وأحزمتهم غير مربوطة، ويتعثرون في حبال الخيام، وفي أقفاص الفواكه، لتبديل العملة الرومانية ولشراء حَمَل الأضحية.

في بعض الأحيان، كانت أغنية ترتفع من بين الأشجار، واضحة، ودقيقة، وصريحة، وينتشر صداها في الهواء. بدت الأرض وكأنها تسترق السمع مثل السماء. وعاد الضياء إلى صهيون من جديد في هدوء. وارتفع لسانان من الدخان من داخلها في حركة بطيئة، مع الصلوات الأبدية التي لا تتوقف... وتوقف الغناء؛ ومرة أخرى لهثت الألسن صاخبة بطلب البركة. وتنزلت روح "يهودا" كلها على جلال الهيكل، وارتفعت الأذرع النحيلة تطلب العفو من جيوفا.. فجأة أمسك "توبسيوس" بلجام فرسي؛ وبالقرب مني برز رجل من وراء شجرة زيتون يلوح بالسيف يرتدي ثوبًا بلون الزعفران، وقفز فوق صخرة وصاح بيأس:

- يا رجال "الجليل"، تعالوا لتروا رجال "نفتالي"!

ركض الحجيج، ورفعوا عصيهم. وخرجت النساء من الخيام، شاحبات، يحملن أطفالهن في أحضانهن. ولوَّح الرجل بسيفه في الهواء. وأخذ يرتجف. وصاح مرة أخرى بحسرة:

- يا رجال "الجليل"، لقد أُلقي القبض على الحاخام "جوشوا"، لقد أخذوا الحاخام "جوشوا" إلى "بيت حانون"، يا رجال "نفتالي"!

ثم قال "توبسيوس" وعيناه تلمعان:

- سيد "رابوزو"، لقد أُلقي القبض على الرجل، وتمت محاكمته بالفعل أمام الـ"سنهدريم".. أسرع، هيًّا يا صديقي، إلى القدس، إلى منزل "جمالائيل"!

وفي الوقت الذي تم فيه تقديم العطور قربانًا في المعبد، عندما كانت الشمس مرتفعة بالفعل فوق "الخليل"، دخلت أنا و"توبسيوس" من خلال "باب السمك" ببطء، إلى شارع من القدس القديمة. كان شديد الانحدار، ومتعرجًا، ومتربًا، وبه منازل منخفضة بائسة من الطين. وعلى الأبواب المغلقة بالترابيس، والنوافذ المكتنزة مثل الشقوق يغطيها الحديد المشبك، كانت هناك فروع وزعف مضفرة بغرض تزيين البيوت في عيد الفصح، وعلى الشرفات المحاطة بالدرابزين، كانت النساء الدؤوبات ينفضن السجاجيد في الهواء، وتطحنّ القمح. بينما كانت أخريات يثرثرن، وهن يعلقن المصابيح الطينية في الأكاليل من أجل إضاءة طقسية.

وسار بجوارنا عازف قيثار مصري متعب، وقد وضع ريشة حمراء في شعر مستعار مجعد، ولف وسطه النحيل بحزام من القماش الأبيض، وذراعاه مثقلتان بالأساور، ويحمل القيثارة المقوسة كالمنجل على ظهره تزينها حفر على شكل زهرة اللوتس. وسأله "توبسيوس" إذا كان قد جاء من الإسكندرية. وهل ما زالت أغنيات معركة "أكتيوم" تـُغنى في الحانات؟ وضع الرجل قيثارته وكاد أن يقطع أوتارها، وابتسم ابتسامة حزينة كشفت عن أسنانه العريضة، مع ضحكة طويلة حزينة.

نخسنا فرستينا، فأفزعنا امرأتين كانتا تلبسان الحجاب الأصفر، وتحملان أزواجًا من الحمام في طرف الرداء. كانتا متجهتين بسرعة ناحية الهيكل، بخفة

ومرح جعل رنين أجراس صنادلهما مسموعًا.. كانت البيوت تشعل نارها وسط الشارع هنا وهناك، فترى الموقد وقد وُضعت عليه أوعية خزفية، وتشم منها رائحة الثوم النفاذة. وترى الأطفال ببطونهم الكبيرة العارية يلعبون ويتمرغون في التراب، ويلتهمون بنهم قطع اليقطين النيء، وينظرون إلينا بعيون واسعة مكحلة يشغي عليها الذباب.

وأمام مسبك وقف حشد أشعث من رعاة المؤابيين ينتظرون، بينما كان الحدادون في الداخل يدقون على دوائر ملتهبة من الحديد، ويتطاير منها الشرر، ويقطعون منها سنونًا جديدة للرماح. ورجل أسود، يمسك مشطًا على شكل الشمس يمشط به شعره المجعد، ويعلن، بصراخ شجي، عن كعك شعير خُبِز بأشكال مقززة.

عبرنا في صمت ميدانًا فسيحًا ومرصوفًا، وكان به إصلاحات. وعلى جانب منه كانت هناك بيوت للراحة عصرية وحمَّامَات عامة رومانية، تحت بائكة من العمدان الجرانيتية تنم عن ترف وفخامة. وفي الفناء الداخلي للحمام كانت أشجار الموز تظل المكان، وقد عُلِّقت على أوراقها مظلات من الكتان الأبيض، ومن تحتها يركض العبيد العراة، بأجسامهم التي تلمع من العرق، يحملون أواني العطور والزهور. وكان النسيم الناعم الدافئ يتصاعد من الفتحات المغطاة، ومن خلال فتحات في الأرضية، معبَّقًا برائحة الورد.

وعلى أحد أعمدة الدهليز، وُضِعت لوحة من العقيق تشير إلى مدخل النساء، وقفت عندها بلا حراك، أنثى رائعة تتباهى بنفسها كتمثال، ووجهها المستدير في بياض البدر المكتمل. لها شفتان مكتنزتان حمراوان كالدم، وترفع عمامة بغايا بابل الصفراء. وتتدلى من فوق كتفيها القويتين اللتين تنتصبان فوق نهدين كاعبين بارزين بثبات، عباءة من "دلماسية" سوداء مشعة بأغصان مطرزة ذهبية اللون. أمسكت بيدها زهرة الصبار، وجفنيها الثقيلين ورموشها

الكثيفة تفتح وتغلق في إيقاع متسق مع حركة مروحة تهوّي بها جارية سوداء عليها، تجلس القرفصاء على قدميها تتمايل بالغناء. كانت عندما تغلق عينيها يبدو كأن الوجود قد أظلم من حولها وعندما ترفع جفنيها السوداوين، كانت مقلتاها الواسعتان تشعان بريقًا، وتترك أثرًا على ما حولها كشمس الظهيرة في قلب الصحراء، التي تلهب وتبعث على حزن غامض. وهكذا كانت تبدو رائعة بجسدها وأعضائها المرمرية الضخمة، وقلنسوتها البنية تذكرك بطقوس "عشتار" و"أدونيس"، الشهوانية المقدسة. هززت ذراع "توبسيوس"، وغمغمت قائلًا:

- اللعنة! أنا ذاهب إلى الحمامات!

ورد عليَّ بجفاف وحزم وهو يرفل في عباءته البيضاء:

- "جمالائيل بن شمعون" ينتظرنا. وحكمة الحاخامات هناك تقول إن المرأة هي طريق الإثم!

وفجأة داخل زقاق مظلم، تعلوه القباب. كانت حوافر الخيل تضرب بشدة على أرض الزقاق، فهبت الكلاب تنبح خلفنا، والمتسولون الراقدون في الظل صبُّوا لعناتهم علينا. ثم قفزنا من خلال فتحة في جدار "حزقيال" القديم، ومررنا بصهريج جاف قديم ترتع فيه السحالي. ثم ركضنا في أرض ترابية في شارع طويل بين جدران جيرية بيضاء وأبواب مطلية بالقطران، حتى وصلنا عند مدخل أكثر جمالًا، يعلوه قوس، وعليه أسلاك شائكة تحميه من العقارب. كان ذلك منزل "جمالائيل".

وفي وسط فناء واسع مبلط، تحت لهيب الشمس، كانت شجرة الليمون تحجب أشعة الشمس عن ماء الخزَّان الصافي. وعلى الأجناب كانت الشرفات هادئة وباردة تتكئ على أعمدة من الرخام الأخضر، حيث تتدلى من هنا وهناك سجاجيد من

"آشور" مطرزة بالزهور، وتعلوها سماء زرقاء صافية؛ وفي إحدى الزوايا، تحت الشرفة، كان هناك رجل أسود، مربوط بأحبال كحيوان أسطوري في عود خشبي، وفي قدميه حدوتين، وفي جسمه ندوب كثيرة، كان يدور ويئن ببطء ويدفع حجر الرحى الكبير لطاحونة البيت. ومن خلال باب مظلم ظهر لنا رجل بدين، دون لحية، يكاد لونه يكون أصفر مثل الرداء الذي يرتديه. كان يتكئ على عصا عاجية في يده، وبالكاد يستطيع رفع جفونه الناعمة.

- أين سيدك؟

صاح "توبسيوس"، وهو يترجل.

- تفضلوا!

قال الرجل بصوت ضعيف، وحاد كفحيح الأفعى.

وعبر الدرج المغطى بالجرانيت الأسود صعدنا إلى مكان مرتفع حيث عُلِّقت ثريتان، تزينهما السنابل كبراعم النباتات، صُنعتا من البرونز، ولهما جذع دون أوراق. ووقف بينهما "جملائيل بن شمعون". كان شديد الطويل، وشديد النحافة. وكانت لحيته ولامعة ومعطَّرة، ويغطي صدره ختم من المرجان يتدلى في خيط قرمزي.

وقد كشفت عمامته البيضاء، المزينة بخيوط من اللؤلؤ، عن شريط من الرق المرسوم على جبهته ومليء بالنصوص المقدسة. تحت هذا البياض، كان لعينيه الغائرتين بريق بارد وحاد. يلبس سترة طويلة زرقاء غطته من أعلاه وحتى أخمص قدميه. وكان صندله محاطًا بشرائط طويلة تتدلى حول رجليه؛ كما خاط في أكمامه شرائط أخرى من الجلد، ملفوفة حول معصميه، نُقشت عليها كتابات مقدسة أخرى.

حيّاه "توبسيوس" على طريقة أهل مصر، فرفع يده وأنزلها ببطء حتى كادت أن تلمس ركبة سرواله اللامع.. مدَّ "جملائيل" ذراعيه وهمس كما لو كان يرتِّل:

- تفضلا، أهلًا بكما، فلتأكلا طعامكما ولتنفرج أساريركما.

وخلف "جملائيل"، دخلنا على أرضية من الفسيفساء، ودلفنا إلى غرفة بها ثلاثة من الرجال. أحدهم، الذي أطل من النافذة ليرحب بنا، وكان رائع الجمال، له شعر بني طويل، به حلقات رقيقة ويحيط برقبة قوية ناعمة بيضاء مثل رخام كورنثيان، وفي الحزام الأسود الذي شُدّ على وسطه، تلألأت الجواهر، ومقبض من الذهب لسيف قصير. أمَّا الثاني، فكان أصلع الرأس، وجهه منتفخ وبدون حاجبين، وكان شاحبًا كأنه غطي بدقيق، وقد ظل مطوي الذراعين. كان يرتدي عباءة بلون النبيذ، ويجلس على أريكة، ويسند كلا ذراعيه على وسادة أرجوانية. وكانت لفتة الترحيب منه أقل اهتمامًا وأكثر ازدراءً من حسنة تُلقى لشحَّاذ غريب. لكن "توبسيوس" كان في وضع سجود تقريبًا، يريد أن يقبل حذاءه الجلدي الأصفر المستدير، والمربوط بالخيوط الذهبية، لأنه كان "أوسانياس"، من عائلة "بوطوس" البابوية، كما أنه كان من نسل "أرسطوبولو" الملكي! أما الأخير فلم نسلِّم عليه ولم يرنا. كان جاثمًا في زاوية، تغوص رأسه في غطاء للرأس من كتان أكثر بياضًا من الثلج الطازج. بدا وكأنه مستغرقٌ في الصلاة. ومن حين لآخر، كان ينظف يديه ببطء بمنشفة رقيقة كردائه، مُعلقة بخيط في حزام عريض مليء بالعقد إلى وسطه، مثل أحزمة الرهبان.

في تلك الأثناء، بينما كنت أخلع قفازي، تفحصت سقف الغرفة، كان كله من خشب الأرز، مزركش بزينة قرمزية. كان اللون الأزرق الناعم الأنيق للجدران يبدو وكأنه بقية من سماء الشرق، التي تسطع في دفء ونقاء من خلال النافذة، حيث كان هناك فرع فريد من الورد البري معلق على الجدار في الضوء البهي.

وعلى منضدة ثلاثية مطعمة بالصدف وُضعت مبخرة من البرونـز يصـعد منهـا دخَـان من عطور الراتنج.

لكن "جمالائيل" اقترب منا، وبعدما أمعن النظر في أحذية الركوب الخاصة بنا، قال ببطء:

- إن طريق السفر من الأردن طويل، لا بدَّ وأنكما جائعان.

فهمستُ رافضًا بأدب.. فبدا كما لو كان يقرأ نصًا:

- إن ساعة الظهيرة هي المفضلة عند الرب. قـال يوسـف لأخيـه بنيـامين: "سـتأكل معي عند الظهر". وفرحة الضيف أيضًا شيء جميـل، فكلـما فـرح زادت قوتـه. وأنـتما ضعيفان، اذهبا لتأكلا، حتى تباركني روحاكما.

وصفَّق بيديه فجاء خادم، له شعر مربـوط بطـوق معـدني، يحمـل جـرة مـن المـاء الفاتر تفوح منها رائحة الورد، حيث قمت بغسل يدي فيها. وقدَّم آخـر كعـك العسـل على أوراق عنب فاتنة. وسكب آخر في جِفَان من الخزف الساطع، نبيذًا أسود قويًّا من قرية "عمواس". وحتى لا نأكل وحدنان كسر "جمالائيـل" ثمـرة رمـان، وأغمـض عينيـه ورفع إلى شفتيه طاسًا وُضعت فيها قطع من الثلج مع أزهار البرتقال.

- حسنًا، والآن..

قلتها وأنا ألعق أصابعي:

- فقد أكلت شيئًا يصبرني حتى الظهر.

- فلتسعد روحك!

أشعلتُ سـيجارة، وطللـت مـن الشـباك. كـان منـزل "جمالائيـل" مبنيًـا عـلى تلـة، وبالتأكيد وراء المعبد، عـلى تلـة "أورفـل". هنـاك كـان الهـواء حلـوًا ونـاعمًا بمجـرد أن

تداعبك نسائمه تشعر بالسلام يملأ قلبك.. في السفح امتد الجدار الجديد الذي أقامه "هيرودس" العظيم، وعلى البعد تتراءى الحدائق والبساتين المزهرة، تنشر الظل على وادي النافورة، وإذا نظرت أعلى التل، وجدت قرية "سلوان"، المطلية بالجير الأبيض ذات الجو الرطيب. وعبر شق، بين جبل "الزيتون" وتل "المدافن" الخاصة باليهود، استطعتُ أن ألمح البحر الميت ساطعًا مثل طبق من الفضة. ومن خلفه جبال "مؤاب" مموجة، وناعمة، في زرقة أقوى من زرقة السماء، كما بدت في الأفق هيئة بيضاء، خيل إليَّ أنها تهتز في ضوء النهار، لا بدَّ وأنها كانت قلعة "ماكيروس" على قاعدة صخرية، على حدود "إدومية". وفي شرفة منزل تكثر فيها الزروع، وبجانب الجدران، وقف شخص لا يتحرك، تحت مظلة عالية تتدلى منها شخاليل. كان يتأمل مثلي هذه الأزمان الغابرة للممالك العربية، وبجانبه فتاة رقيقة رشيقة، ذراعاها عاريتان ومرفوعتان لأعلى، تلوِّح لسرب من الحمائم ترفرف من حولها، وكشف رداؤها المفتوح عن نهد نضير.. كانت الفتاة رائعة الجمال، قمحية اللون كستها الشمس بلون ذهبي. انتابتني رغبة بأن ألقي إليها بقبلة في هذا الهواء الهادئ، ولكني أحجمت عندما سمعت "جمالائيل" يقول، مثل قول ذلك الرجل ذي العباءة بلون الزعفران عند جبل الزيتون:

- نعم، الليلة، في "بيتانيا"، أُلقي القبض على الحاخام "جوشوا".

وأضاف ببطء، بعيون نصف مغلقة، وهو يمرر أصابعه بين شعر لحيته الطويلة:

- ولكن "بيلاطس البنطي" ورِع.. لم يرد محاكمة رجل من "الجليل"، وهو تابع لـ"هيرودوس أنتيباس".. وبما أن حاكم الربع قد جاء للاحتفال بعيد الفصح في القدس وليلقي خطابه؛ فقد أرسل "البنطي" الحاخام إلى بيته في "بيزيتا".

وأخذت نظارات "توبسيوس" العليمة تومض بدهشة، وصاح وهو يفتح ذراعيه النحيفتين:

- شيء غريب! "البنطي" عنده ورع! "البنطي" يفي بالعهود! ومنذ متى يحترم "البنطي" السلطة القضائية لحاكم الربع؟ كم من سكان "الجليل" المساكين قتلهم دون إذًا من حاكم الربع، عندما قامت ثورة القناة، وخلطت السيوف الرومانية، بأمر من "البنطي"، في أروقة الهيكل، دم رجال "نفتالي" بدم ثيران القرابين!

وغمغم "جمالائيل" وهو يتذمر:

- صحيح أن الروماني قاسي القلب، لكنه عبدٌ للقانون.

عندها قال "أوسانيا ابن بيوطو" بابتسامة ناعمة، كشفت عن فم بلا أسنان، وهو يهتز برفق على السجاد الأرجواني، والخواتم في يدة تتلألأ:

- أو ربما كانت زوجة "البنطي" تحمي الحاخام.

أخذ "جمالائيل" يلعن خلاعة المرأة الرومانية، ولما كانت عين "توبسيوس" تتساءل وتنتظر الرد من "أوسانيا" المبجل، فإنه تعجب كيف أن الدكتور "توبسيوس" يجهل أشياء كثُر الحديث عنها داخل أروقة المعبد، حتى علم بها الرعاة الذين يأتون من إدومية لبيع حملان القرابين. وكلما خطب الحاخام في "رواق سليمان"، من ناحية باب "سوسا"، جاءت "كلوديا" لرؤيته من أعلى الشرفة من برج "أنطونيا"، وهي تلبس حجابًا أسود فقط. كان "مناحم"، الذي كان يحرس سلَّم النبلاء في ذلك الشهر قد رأى زوجة "البنطي" تلوِّح بطرحتها للحاخام. وربما كانت "كلوديا"، التي شبعت من "كابرياس"، ومن جميع الحوذيين في السيرك، ومن كل المنافقين في "صبورا"، ومن الرجال في أطلنطا الذين بحت أصواتهم وهم يغنون أغاني ملحمة "أكتيوم"، أرادت أن تجرب، بعدما جاءت إلى سوريا، مذاق قبلات نبي من "الجليل".

رفع الرجل الذي كان يرتدي عباءة من الكتان الأبيض وجهه بحدة، وهو يهز غطاء رأسه على شعره المنكوش. ودارت عيناه الزرقاوان الواسعتان في جميع أنحاء الغرفة، ولها بريق سرعان ما تلاشى، خلف رموش شديدة التواضع أحاطت بعينيه، وبعدها غمغم، ببطء وحدة:

- "أوسانياس"، الحاخام عفيف!

ضحك الرجل العجوز كثيراً:

- عفيف! الحاخام! وتلك الجليلية التي تُدعى "المجدلية"، والتي عاشت في حي "بيزيتا" وكانت تخالط العاهرات اليونانيات على أبواب مسرح "هيرودس"؟ و"جوانا"، زوجة "كوشنا"، أحد طهاة "أنتيباس"؟ والأخرى، زوجة "أفرايم"، "سوزانا"، والتي بإشارة من الحاخام، عندما زادت رغبته ذات ليلة، تركت كل شيء، حتى أطفالها، وحملت كل مدخرات الأسرة، وخبأتها في طرف عباءتها، وتبعته إلى "قيصرية"؟

- أوه، "أوسانياس"!

صرخ الرجل الوسيم ذو السيف المرصع بالحجارة، وضرب كفًا بكف.

- يا ابن "بيوتوس"، كيف تعرف واحدة تلو الأخرى، ولا تسيطر على رغباتك يا حاخام "الجليل"، يا ابن عشب الأرض. إنك لأكثر بؤسًا منها! حتى "إيليو لاما"، مبعوث الإمبراطور، الذي غطَّاه الرب بالآثام، لا يفعل ذلك!

ولمعت عيون "أوسانياس" الصغيرة مثل خرز الزجاج الأسود، في حدة وخبث:

- يا "منسي"! ولماذا أنتم أيها الوطنيون يا ورثة "يهودا" الأنقياء، تتهموننا دائمًا، نحن الصدوقيين، بمعرفة ما يحدث في باحة الكهنة وفي شرفات "بيت حانون"...

أسكته سعال قاسٍ لبعض الوقت، وظل مخنوقًا تحت غيض من عباءة أخذ يختبئ فيها بشدة. ثم امتقع وجهه وظهرت بقع حمراء على وجهه الشاحب، وواصل:

- صحيح أنه بالضبط في "بيت حانون" سمعنا من "مناحيم"، وكنا نتمشى جميعًا تحت الكرمة.. حتى قيل لنا إن ذلك الحاخام من "الجليل" وصلت به الوقاحة، أن يلامس نساء مأجورات، وأخريات أنجس من الخنزير، وقد رآه رجل لاوي على الطريق المؤدي إلى "تل شكيم" وهو في غاية الإثارة، وراء سور بئر، مع امرأة من "السامرة"!

فهب الرجل المغطَّى بالكتَّان الأبيض واقفًا.. يرتجف. وكان الصراخ الذي أطلقه، ينم عن رعب من فوجئ بتدنيس مذبح في معبد!

لكن "جملائيل"، بسلطة جافة، طعنه بنظرة من عينيه بقسوة:

- يا "جاد"، إن الحاخام بلغ الثلاثين ولم يتزوج! فما وظيفته؟ أين الحقل الذي يحرث؟ هل عرف أحد أين هو الكرْم الخاص به؟ كان يدور في الطرقات ويعيش على ما تقدمه له هؤلاء النساء المنحلات! وماذا يفعل أولئك الشباب غير الملتحين من "سيباريس" و"ليسبوس"، الذين يتجولون طيلة النهار في شارع القضاء، وماذا تفعلون أنتم وجماعتكم التي تتخذ الزهد مذهبًا؟ هل تمقتونهم بهذه الطريقة، وتسرعون لتطهروا ملابسكم في الصهريج إذا مسها أحدهم؟ هل سمعت يا "أوسيانياس بن بوتوس".. لا عظمة إلا لله.. وأصدقكم القول إن الحاخام "جوشوا" عندما ضرب القانون بعرض الحائط، وعفى عن المرأة الزانية فإنه بذلك أسر البسطاء، نعم تهاون فيما يخص الأخلاق ولكنه كان رحيمًا لأبعد الحدود!

صرخ "جاد" ووجهه يلتهب، وذراعاه عاليتان في الهواء:

- فالحاخام إذًا يصنع المعجزات!

وأجاب "منسي" الشهير، بازدراء هادئ، على الزاهد:

- اهدأ يا "جاد"؛ فقد فعل آخرون المعجزات! "سيمون" السامري يصنع المعجزات. و"بليناس" صنعها، و"جبينو" صنعها.. وما تكون عجائب صاحبك الجليلي لو قارناها مع تلك التي تأتي بها بنات الكاهن العظيم "أنيون"، أو تلك التي يأتي بها الحكيم الحاخام "كيوكينا"؟

فسخر "أوسانياس" من سذاجة "جاد":

- في الحقيقة، ماذا تتعلمون أنتم أيها الزاهدون في واحة "إنغادا"؟ معجزات! معجزات حتى الوثنيون يمكنهم أن يأتوا بها! اذهب إلى الإسكندرية، إلى ميناء النصر، وعلى اليمين حيث مصانع ورق البردي، وهناك ترى السحرة يصنعون المعجزات مقابل دراخما واحدة، وهو أجر عمل ليوم واحد. إذا كانت المعجزات تثبت الألوهية، فإن سمكة الأوانس، التي لها زعانف من الصدف والمسامير على ضفاف نهر الفرات، في ليالي اكتمال القمر تعد من الآلهة أيضًا!

ابتسم "جاد" بفخر وعذوبة. وانتهى سخطه وظهر مكانه احتقار شديد. وخطا خطوة بطيئة، ثم أخرى، وبلطف، أخذ يتأمل هؤلاء الرجال المفتونين، الذين تجمدوا وامتلؤوا بالسخرية:

- أنتم تقولون، أنتم تقولون، اذهبوا كالذباب الذي يطن! أنتم قلتم، ولم تسمعوا ذلك! في "الجليل"، وهي أرض خصبة للغاية، تمتلئ بالزروع، عندما كان يتحدث كان كمثل نبع من الحليب يجري في أرض الجوع والجفاف؛ حتى الضوء بدا أقوى من ذي قبل! وكانت مياه بحيرة "طبريا"، تهدأ كي تستمع إليه.. وفي عيون الأطفال الذين أحاطوا به، ارتفعت جاذبية الإيمان الناضج بالفعل. كان يتكلم. وكنا نرى الكلمات تتفوه بها شفاهه وكانت تطير إلى الأمم الأخرى في العالم مثل الحمائم التي تفرد أجنحتها وتطير عند باب المعبد، تحمل

كل القيم النبيلة والمقدسة، كالإحسان والإخاء والعدالة، والرحمة، وأشكال الحب الجديدة، الجميلة، الجميلة بشكل مذهل!

كان وجه "جمالائيل" مشرقًا يتطلع إلى السماء، كما لو كان يتابع رحلة هذه الرسائل الإلهية الجديدة. ولكن بما أنه عليم بالقوانين انتقده، بسلطان وقسوة:

- ما الجديد والفريد في كل هذه الأفكار يا رجل؟ هل تظن أن الحاخام قد أتى بها من بنات أفكاره؟ فديننا مليء بمثل هذه القيم! هل تريد أن تسمع عن قيم الحب والإحسان والمساواة؟ اقرأ كتاب "يسوع ابن السدرة". كل هذ الأفكار بشَّر بها هليل؛ كل هذا قاله "حزقيال"! وفي كتب الملحدين يمكن أن تجد أشياء غاية في الجمال لكنها إذا ما قورنت بما عندنا فهي كالطين بجانب ماء "عين سلوان" النقي! وأنتم أنفسكم، معشر الزهاد، لديكم مبادئ أفضل منها! إن رجال الدين في "بابل" والإسكندرية يدرسون دائمًا قوانين العدل والمساواة النقية! كما كان صديقك "يوحنا" - الذي يسمونه "المعمدان" - يبشِّر بها أيضًا، والذي انتهى به الحال إلى مصير مؤلم في سجن مشدد بقلعة "ماكيروس".

- يا يحيى!

صاح "جاد"، وهو يرتجف، كما لو كان قد أفاق فجأة من حلم جميل. وبلل الدمع عينيه. وانحنى على الأرض ثلاث مرات، وذراعاه مفتوحتان، وكرر اسم يوحنا، كما لو كان ينادي على شخص بين الموتى. ثم، فرت دمعتان على لحيته، وأخذ يهمس بصوت جد خفيض، في ثقة ملأته بالرهبة والإيمان:

- أنا الذي صعدت إلى قلعة "ماكيروس" كي أحضر رأس "المعمدان". وبينما أهبط الطريق ومعي الرأس ملفوف في عباءة، كانت تلك المرأة، " هيروديادي"، تتمدد على سور القلعة كأنثى نمر داعرة، كانت تزمجر وتكيل لي الشتائم! ثلاثة أيام وثلاث ليال وأنا هائم على وجهي في طرقات "الجليل"،

أحمل رأس العادل من شعره.. وفي بعض الأحيان، خلف صخرة، كان يظهر لي ملاك مغطى باللون الأسود، ينشر جناحيه ويبدأ في المشي بجانبي.

وخفض رأسه مرة أخرى، وسند بركبتيه النحيفتين على أحجار الأرض. وظل ساجدًا يصلي بشوق كبير، وذراعاه مفرودتان على شكل صليب.

ثم اقترب "جملائيل" من "توبسيوس" الحكيم والذي وقف ممشوقًا أكثر من عمود المعبد، وقد أسند مرفقيه على وسطه، وقال:

- إن لدينا قانونًا، وقانوننا واضح. وهو كلام الرب. والرب يقول: "أنا الرب الأبدي، أنا الأول والآخر، وأنا لا أعطي لمن هم دوني لا صفاتي ولا عظمتي، ولا يوجد إله قبلي ولا بعدي ولا شريك لي". هذا هو صوت الرب الذي قال أيضًا: "إذا ظهر بينكم نبي ذو بصيرة يصنع المعجزات ويريد أن يبشِّر بإله آخر، ويدعو البسطاء إلى عبادة هذا الإله، فلا بدَّ أن يُقتل"، هذا هو القانون، وهذا هو صوت الرب. والآن وقد نُصِّب حاخام "الناصرة" إلهًا في "الجليل"، وفي المجامع، وفي شوارع القدس وباحات الهيكل المقدسة، فإنه لا بدَّ وأن يُقتل.

لكن "منسي" الشهير، الذي كان نظره الضعيف يزوي كما تُظلم السماء قبل الرعد، وتوسط بين عالم القانون ومؤرخ "آل هيرودس". واستبعد حكم الدين القاسي قائلًا:

- لا، لا! ماذا يهم إذا قال مصباح قبر عن نفسه إنه الشمس؟ ماذا يهم أن يفتح رجل ذراعيه ويصرخ معلنًا أنه إله؟ إن شريعتنا سمحة. ولن يبحث الجلاد عنه في مخبأه في "غريب" ليعاقبه على هذه الترهات.

وكنتُ على وشك أن أمتدح موقف "منسي" بدافع الشفقة، لكنه أخذ يصرخ بعنف وحماسة:

- ولكن هذا الحاخام الجليلي يجب أن يموت بالتأكيد، لأنه مواطن سيئ ويهودي سيئ! ألم نسمعه ينصح بتقديم الهبات لقيصر؟ إنه يمد يده بالسلام لروما. ولا يعتبر الرومان أعداءً؛ فهو يبشِّر منذ ثلاث سنوات، ولم يسمعه أحد من قبل ينادي بالواجب المقدس لطرد الغرباء. نحن ننتظر مسيحًا يأتي بسيفه ليحرر إسرائيل، لكن هذا الأحمق المفوَّه يعلن أنه يجلب خبز الحقيقة فقط! في حين أن هناك حاكمًا رومانيًّا في القدس؛ وبينما تحرس الرماح الرومانية بوابات هيكلنا، يأتي هذا المهووس ليحدثنا عن خبز السماء ونبيذ الحقيقة؟ إن الحقيقة الوحيدة المفيدة هي أنه لا ينبغي أن يكون هناك رومان في القدس!

بدا "أوسانياس" غير مرتاح فنظر عبر النافذة المليئة بالضوء، والتي كانت تخرج منها تهديدات "منسي" حيوية وحرة، وابتسم "جمالائيل" ببرود. وبكى تلميذ "يهودا" المتحمس والذي وُلد في "جمالا"، وعلَّق في شغف:

- آه! الحق أقول لكم، إن الهدف من تعبئة النفوس أملًا في ملكوت السماء، هو لجعلها تنسى واجبًا قويًّا في عالم الأرض، أرض إسرائيل التي هي في أسر العرب، تبكي ولا أحد يواسيها! إنه خان الوطن! ويجب أن يموت!

ارتجف، وهو يمسك بالسيف. واتسعت عينه يملؤها التمرد كما لو كان يدق طبول الحرب ومجد العذاب بفارغ الصبر.

ثم وقف "أوسانياس" متكئًا على عصا تنتهي برأس ذهبية. وبدا أن شيخوخته تستدعي رعاية شاقة. وبدأ يقول بخنوع وحزن، كمن يشير - بدافع الحماس والعقيدة - إلى حكم الضرورة التي لا مفر منها:

- بالتأكيد، ومما لا شك فيه أنه ليس من الأهمية بمكان أن يدَّعي واحد أنه هو المسيح وأنه ابن الله. وأن يهدد بتغيير الشرائع وهدم المعبد. فالهيكل والشريعة قد يبتسمان ويغفران لأنهما متأكدان من الخلود، لكن يا "منسي"، إن

شرائعنا سلسة. ولا أظن أننا يجب أن ندل الجلاد على "جريب" حيث يختبئ الحاخام، لمجرد أنه يتذكر أبناء "يهودا" في "جمالا" وهم مسمَّرون على الصليب، وينصح بالحذر والخبث في العلاقات مع الرومان!

يا "منسي"، إن يديك قويتان. ولكن هل تستطيع بهما أن تحوِّل تيار نهر "الأردن"، من أرض "كنعان" إلى أرض "تراكونتيدا"؟ طبعًا لا، وكذلك لا يمكنك منع جحافل قيصر التي تغطي مدن اليونان من أن تأتي لتستولي على أرض الرب؟ كان "يهودا ميكابيوس" حكيمًا وقويًّا، ولكنه كان صديقًا لروما؛ لأن روما على الأرض هي مثل رياح الطبيعة الهائلة؛ عندما تأتي، فإن الحمقى سيتصدون لها بصدورهم، ويُهزمون؛ لكن الرجل الحكيم من يحرس ماله وهو هادئ. كانت "جالاتيا" مدينة لا تقهر، وكان لـ"فيليبس" و"بيرسوس" جيوش تملأ السهل. و"أنطيوخوس" العظيم قاد مئة وعشرين فيلًا والعجلات الحربية التي لا حصر لها.. وجاءت روما؛ فما بقي منهم؟ لم يبقَ إلا العبيد ودافعو الضرائب.

كان قد انحنى بشدة مثل ثور تحت نِيْر. ثم حدَّق فينا بعيون صغيرة تتوهج توهجًا باردًا لا يهدأ، وواصل بهدوئه وعذوبته المعهودة:

- ولكن الحق أقول لكم: إن حاخام "الجليل" لا بدَّ وأن يموت!

لأنه من واجب كل من كان لديه ممتلكات من أطيان أو بساتين، أن يطفئ الشرارة التي تهدد بإشعال كومة القش بصندله وبسرعة فوق أرضية الجرن؛ فكل من يأتي ويدَّعي أنه المسيح، مثلما فعل هذا الجليلي، فهو قاسٍ مع الرومان وخطير بالنسبة لإسرائيل؛ فالرومان لا يفهمون ملكوت السماوات الذي يعِد به. ولكنهم يعرفون أن هذه الخطب، وهذه التوسلات الإلهية تؤثر في الشعب داخل أروقة المعبد بشكل كبير؛ فيقولون: "في الواقع هذا المعبد، الذهب الذي فيه والحشود المؤمنة فيه، وهذه الغيرة عليه تشكل خطرًا على سلطة قيصر في يهودية"، وبعد ذلك، يعملون ببطء على إلغاء قوة المعبد بتقليص الثروة، وتقليل

امتيازات كهنوته، ولكي يذلوننا فهم يضعون عباءات البطاركة في خزينة برج "أنطونيا"! غدًا سيأخذون المنارة الذهبية، وقد أخذ الحاكم أموال القرابين لإفقارنا! وغدًا يأخذ العشور من الحصاد، ومن الماشية، وأموال القرابين، وصدقات النفير، وضرائب العبادات، وجميع أملاك الكهنوت، حتى لحوم الأضاحي، لا شيء من ذلك سيبقى لنا، كل شيء سيصير للرومان، وسوف يتركونا فقط لنتسول على طرق "السامرة"، في انتظار إحسان تجّار القرى العشر الأغنياء. حقًّا أقول لكم، إذا كنا نريد الحفاظ على الكنوز التي لدينا، والتي آلت إلينا كابرًا عن كابر، وهي التي تحفظ عظمة بني إسرائيل، يجب علينا أن نظهر للرومان الذين يراقبوننا، أن المعبد هادئ، آمن ومنقاد وقانع وخالٍ من الثورة وليس به مسيح! لذا فإن الحاخام لا بدَّ وأن يموت!

هكذا تحدث أمامي "أوساناياس بن بوتوس"، عضو "السنهدريم".

ثم قام مؤرخ "آل هيرودس" النحيف وهو يضع يديه على صدره احترامًا، وحيّا أولئك الرجال المبجلين ثلاث مرات. كان جادًا، يصلي بلا حراك. وحلّقت نحلة ذهبية اللون في النافذة الزرقاء، وقال "توبسيوس" بعظمة:

- أيها الرجال، يا من رحبتم بي! إن الحق يفيض من أرواحكم جميعًا، كما يفيض العنب على الكروم! أنتم ثلاثة أبراج تحرس إسرائيل بين الأمم. واحد يدافع عن وحدة الدين. والآخر يحافظ على حماسة الوطن. والثالث، وأعنيك أنت يا ابن "بيوتوس" المبجل، حذر ومراوغ مثل الحية التي أحبت "سليمان"، تحمي شيئًا آخر أثمن، وهو النظام! أنتم ثلاثة أبراج. وحاخام "الجليل" يقذف بالحجر الأول ضد كل واحد منكم! لكنكم تحفظون إسرائيل وإلهها وأملاكها، ويجب ألا تدعوهم يسقطون! في الحقيقة، والآن يمكن أن أعترف بأن يسوع واليهودية لا يمكن أن يعيشا معًا.

وقال "جمالائيل"، مع إيماءة من رأسه كمن يكسر عصا هشة ومظهرًا أسنانه البيضاء:

- لهذا السبب سوف نصلبه!

وكأنما سكين فولاذي لامع وحاد شق صدري! هززت، وأنا أختنق، ذراع المؤرخ المعلم:

- "توبسيوس"! "توبسيوس"! من هذا الحاخام الذي بشَّر في "الجليل" ويأتي بالمعجزات، وسوف يُصلب؟

اتسعت عينا الدكتور الحكيم في دهشة، كما لو كنت أسأله عن النجم الذي يجلب الضوء من وراء الجبال كل صباح؛ فرد بجفاء:

- الحاخام "جوشوا بن يوسف"، الذي جاء من "الناصرة" في "الجليل"، والذي يسميه البعض يسوع والآخرون أيضًا يدعونه المسيح.

- يا إلهي!

صرختُ، مترددًا وأنا مصدوم من المفاجأة، وكادت ركبتاي المتدنيتان أن تنزلا على الأرض، وكلي رغبة في أن أبقى ملقى على الأرض، غارقًا في عرقي، أصلي بيأس وإلى الأبد. ولكن، كأن شعلة ألهبت في كياني الرغبة في الجري لمقابلته والنظر بعيني الآدمية إلى جسد سيدي، في جسمه البشري الحقيقي وهو يرتدي ملابس الكتان التي يرتديها البشر، ومغطى بالغبار الذي يثيره البشر حين يمشون في الطرقات! وفي الوقت نفسه، صارت روحي ترتعش في رعب كئيب أكثر من ارتعاش أوراق الشجر عند هبوب رياح عاتية، رعب عبد كسول أمام ربه العادل! هل تطهرتُ بما فيه الكفاية، بالصوم والصلاة، للقاء وجه ربي؟ لا! فأنا مقصِّر في عباداتي، يا لي من مسكين! لم أكن أقْبل نهائيًّا بحب قدمه المجروحة الأرجوانية في كنيسة "النعمة"! الويل لي! كم من الآحاد، ذهبت

فيها إلى "أديليا" - شمس حياتي - وهي تنتظرني في ساحة الشهداء تدخن وتلبس قميصها كي نقضي وقتًا آثمًا، ولعنتُ فيها بطء القداس ورتابة الصلوات! وهكذا صرتُ، من رأسي إلى أخمص قدمي، غارقًا في الذنوب، فكيف لجسدي ألا يسقط وهو مذنب، ملطخ بالآثام، في حين تنظر لي عيون الرب بتؤدة، مثل نجمين من السماء؟

لكني سأرى يسوع! وسأرى كيف كان شعره، وما الطيات التي في ثوبه، وما كان يحدث على الأرض عندما يحرك شفتيه! وغير ذلك حيث تلقي النساء بالحبوب للحمائم؛ والشوارع التي جاء فيها بائعو الخبز ينادون على خبز بدون خميرة يأكله اليهود عادة في عيد الفصح، ربما، في هذه اللحظة المخيفة، مررتُ بين الجنود الرومان الملتحين. يسوع، مخلصي، مربوط بحبل من يديه. إن النسيم البطيء الذي كان يهز من النافذة غصن زهرة الجبل فبعث برائحتها في المكان، ربما كان قد لامس وجه إلهي، الذي أدمته الأشواك! وما هي إلا دفعة لهذا الباب المصنوع من خشب الأرز، حتى أعبر الفناء حيث يدور حجر الطاحون في طاحونة البيت، وبعد ذلك، أخرج للشارع، حيث يمكنني أن أراه، أمام عيني بشحمه ولحمه، سيدي يسوع كما هو حقيقة كما رآه القديس "حنا" والقديس "متي". كنت سأتبع ظله المقدس على الجدار الأبيض - حيث سيسقط ظلي أيضًا - وكنت سأقبّل آثار قدميه الدافئة وأمشي على الغبار نفسه الذي كان تطأه قدمه! وكنت سأكتم بكلتا يدي ضجيج قلبي، الذي يمكن أن يفاجأ، بآهة من فمه، أو دعاء، أو شكوى، أو وعد! وكنت سأعرف بعد ذلك كلمة جديدة من المسيح، لم تُكتب في الإنجيل. وكنت أنا فقط سأحصل على الحق البابوي للتبشير بها عند الحشود الساجدة أمامي. وسوف تظهر سلطتي في الكنيسة كحامل "عهد جديد" جدًا. لأني سأكون شاهدًا غير مسبوق على الصّلب. وكنت سأتخذ لقب: "سان تيوديريكو الإنجيلي".

ثم، صرخت بشوق اليائس ممَّا أدهش أولئك الشرقيين الذين يتصرفون بطريقة محسوبة:

- أين يمكنني رؤيته؟ أين هو سيدي "يسوع الناصري"؟

في تلك اللحظة، سقط عبد، يركض على طرف صندله الرقيق، على البلاط أمام "جمالائيل".. كان يقبل أطراف ثوبه.. كانت ضلوعه الهزيلة مقوسة، وهمس وهو منهك القوى:

- سيدي، لقد وصل الحاخام إلى المحكمة!

خرج "جاد" من صلاته بقفزة برية، وشدَّ الحبل ذا العقد حول وسطه، وركض بعنف، وغطاء رأسه منتفخ، ويتدلى شعره الأشقر المنكوش حول رأسه. كان "توبسيوس" قد شبك عباءته البيضاء، بذلك الطوق اللاتيني الذي أضفى عليه بهاءً كتماثيل المرمر. وبعد مقارنة ضيافة "جمالائيل" بكرم "إبراهيم"، صرخ فيَّ منتصرًا:

- إلى المحكمة!

تبعت "توبسيوس" لوقت طويل عبر شوارع القدس القديمة، في نزهة مخيفة، ضاعت معالمها في اختلاج أفكاري.. مررنا بحديقة ورود، من زمن الأنبياء، رائعة وصامتة، كان اثنان من اللاويين يحرسانها بالرماح الذهبية. ثم مررنا بشارع جديد، تفوح منه رائحة جميلة من محلات بيع العطور المزينة بأقراص في شكل زهور ومهاريس لطحن الحبوب. وكانت ستائر الحصير الرقيقة تظلل على الأبواب؛ وكانت الأرض مروية ومليئة بالحشائش وزهور شقائق النعمان؛ وجلس الرجال المرفهون في كسل تحت الظل، وشعورهم مجدولة في ضفائر، وعيونهم مكحلة، وبالكاد كانوا قادرين على رفع أيديهم المثقلة بالخواتم لتحمل طيات عباءاتهم الحريرية بلون الكرز ولون الذهب. وفي نهاية هذا الشارع الخامل وصلنا إلى ساحة، مدرجة تحت نور الشمس، بها

غبار أبيض سميك، تغوص فيه الأقدام. ووقفت، وحيدة، في المنتصف، نخلة عتيقة تقوَّس جذعُها الذي يشبه البرونز. وفي الخلفية وقفت في الظل أعمدة الجرانيت في قصر "هيرودس" القديم. وهنا كانت المحكمة.

كان هناك اثنان من الجنود من سوريا. وقفا وجهًا لوجه عند المدخل يتبادلان مواقعهما، ويضعان ريشة سوداء في خوذتيهما اللامعتين. وحشد من الفتيات يضعن ورودًا خلف آذانهن، وتتدلى على صدورهن قبعات من الحلفاء، ينادين على الخبز دون خميرة. وتحت مظلة هائلة من الريش، مثبتة على الأرض، جلس رجال يلبسون قلنسوات من اللباد، ويحملون ألواحًا وموازين على ركبهم وراحوا يغيرون العملة الرومانية. وصاح باعة الماء يبيعونه في قِرب من الجلد بصيحات شجية. دخلنا. وسرعان ما ألمَّت بي الرهبة.

كانت ساحة مضيئة، مفتوحة تحت السماء الزرقاء، ومرصوفة بالرخام. على جوانبها بوائك من الأعمدة، ترتفع فوق شرفات، وبها سور حاجز، ورطبة غنّاء مثل رواق الدير.. كانت واجهة القصر تعلو بائكة من الأعمدة، وفُرِش فوقها مظلة من وشاح قرمزي مزين بالذهب، رسمت ظلها المربع الظليل على الأرض؛ ويتوسط الواجهة صاريان من خشب الجميز يحملان المظلة يعلوهما تاجان على شكل زهرة اللوتس. ثم توافد حشد من الناس، حيث اختلطت فيه عباءات "الفريسيين" المزينة بالأزرق، مع تنورات العمَّال الفجة المصنوعة من الخيش المشدودة إلى الوسط بحزام من الجلد، مع عباءات رجال "الجليل" الواسعة المخططة بالرمادي والأبيض، مع أغطية الرأس القرمزية ذات الطراطير الطويلة التي يلبسها تجار طبرية. ووقفت بعض النساء، اللواتي خلعن عنهن حجبهن، وأخذن يشبن على أطراف نعالهن الصفراء، وقد وضعن على وجوههن تُلاّ خفيفًا يقيهن ضوء الشمس. ومن ذلك الحشد صدرت رائحة دافئة من العرق. وعلى البعد، من وراء العمامات البيضاء المتزاحمة، كانت سنون الحراب

تتلألأ. وفي الخلفية، وعلى العرش، جلس القاضي، ملفوف في طيات عباءته النبيلة، كان أكثر تماسكًا من الحجر. أسند ذقنه على راحة يده ذات اللحية الرمادية الكثيفة. وبدت عيناه الذابلتان ناعستين. كما ربط شعره بشريط قرمزي. ومن خلفه، على قاعدة يستند إليها كرسيه العاجي، كان هناك تمثال برونزي للذئبة الرومانية - والتي رعت وأطعمت التوءمين" رومولوس" و"رموس" في طفولتهما، واللَّذين أسَّسا فيما بعد مدينة روما حسب الأسطورة - تفتح فمها الوحشي. وسألتُ "توبسيوس" عن هذا القاضي الكئيب:

- من يكون؟

- إنه أحد البنطيين، يُدعى "بيلاطس"، وكان حاكمًا رومانيًّا في "بتافيا".

سرنا ببطء عبر الفناء، واجتهدتُ - كما في المعبد – لكي أجعل الضجيج الذي يصدره نعلي أكثر لطفًا واحترامًا. خيَّم صمت رهيب نزل من السماء الساطعة. لم يقطعه سوى صياح الطواويس الخشن الحزين، من وقت لآخر، وتمدد على الأرض بجانب درابزين الفناء رجال سود عُرضت بطونهم لأشعة الشمس.

كما جلست عجوز تُحصي عملات نحاسية وأمامها سبت من الفاكهة. ووُضعت السقالات على الأعمدة، حيث وقف عليها عمَّال يستكملون عمل المظلة. والأطفال، في إحدى الزوايا، يلعبون بأقراص حديدية كانت تتدحرج بخفة على الألواح.

وفجأة، لمس شخص مألوف كتف مؤرخ "آل هيرودس". كان "منسي" الوسيم. وبصحبته رجل عجوز رائع، في نبل البابا، والذي قبَّل "توبسيوس" أكمام عباءته السامرائية البيضاء، المطرزة بأشكال كأوراق العنب الخضراء. وكانت لحيته البيضاء كالثلج، لامعة كالزيت تصل إلى حزام وسطه. واختفت الكتفان العريضتان تحت وفرة شعره المتناثر تحت العمامة مثل رمانة نقية من رمان الأرمن الملكي. كانت إحدى يديه المليئة بالخواتم، تستند على عصا

عاجية قوية. والبد الأخرى بها طفل شاحب، كانت عيناه أجمل من النجوم، وكان يشبه زنبقًا في ظل شجرة أرز. قال "منسي":

- اصعدوا إلى الرواق، وستجدون هناك الراحة والجو الرطيب.

وتبعنا الرجل الوطني؛ وسألت "توبسيوس" بحذر عن الرجل الآخر المسن؛ فأجابني صديقي العالِم باحترام:

- إنه الحاخام "روبام"، إنه نور من "السنهدريم"، بليغ ونجيب بين الجميع، ومقرب من "قيافا".

حييت الحاخام "روبام" باحترام ثلاث مرات - والذي جلس على مقعد من الرخام، شارد الذهن، يحتضن إلى صدره الواسع العجوز رأس الطفل الأكثر شقرة من حبوب ذرة "يافا" - ثم سرنا ببطء من خلال الرواق، ولمحت في نهايته بابًا فاخرًا من خشب الأرز مزينًا بشرائح الفضة المشغولة. يحرسه جندي من البريتوريون من "قيسارية"، وكان ناعسًا، ويقف متكئًا على درع عالٍ من الخوص. مشيت إلى الحاجز، وسرعان ما التقت عيني البشرية بالمسيح في هيئة البشر هناك، في الأسفل! لكن، يا لها من مفاجأة نادرة من الروح المتغيرة؛ لم أشعر بالنشوة أو الرهبة! كان الأمر يبدو كما لو أن فترة طويلة من القرون الشاقة من التاريخ والدين قد أفلتت من ذاكرتي. لم أكن أظن أن الرجل الجاف القمحي اللون كان هو مخلص الإنسانية. لقد وجدت نفسي في زمن قديم بشكل لا يمكن تفسيره. لم أعد "تيوديريكو رابوزو"، المسيحي الحاصل على الليسانس. وفقدت هويتي كما تنزلق العباءة من فوق الكتف، في هذا المشوار القلق من منزل "جمالائيل" حتى هنا. لقد اخترقتني جميع جوانب البيئة القديمة، فأعادت تشكيلي؛ فأصبحتُ أيضًا رجلًا مسنًا. واسمي "تيوديريكوس البرتغالي"، الذي جاء في سفينة من سواحل المحيط، وسافر تحت حكم الإمبراطور "تيبريوس" في الأراضي الخاضعة لروما. أمَّا هذا الرجل فلم يكن

يسوع، ولا المسيح، ولا عيسى، لكنه فقط كان شابًا من "الجليل"، عنده حلم كبير، جاء من قريته الخضراء ليغير العالم كله ويجدد السماء كاملة، وعندما قابل راهبًا عند ناصية المعبد قيده وأخذه إلى الحاكم الروماني وأوقفه بين اللص الذي سرق على الطريق فى "شكيم" وآخر طعن طعنة في معركة في "حمص"!

وفي مكان مُزين بالفسيفساء، أمام الرواق الذي وُضع فيه مقعد الحاكم العاجي، تحت الذئبة الرومانية، وقف الشابُ ويداه مطويتان وموثقتان بحبل تدلى على الأرض. وكان يرتدي رداءً واسعًا من الصوف الخشن مخططًا باللون البني، وحزامًا أزرق، يصل إلى القدمين التي لبس فيهما صندلًا مهترئًا من طول الطريق الصحراوية، ومثبتًا بشرائط من الجلد. لم تكن رأسه تدمي من أثر التاج الشوكي كما قرأت في الأناجيل؛ كان يلبس عمامة بيضاء، مصنوعة من شريط طويل من الكتان الملفوف، كانت أطرافه تتدلى على كلا الجانبين على كتفيه. وكان مربوطًا بحبل يتدلى من تحت لحيته المجعدة الحادة. كان شعره الجاف يتدلى خلف أذنيه، على شكل حلقات تغطي جانبي رأسه. وعلى وجهه الرقيق الملتهب، وتحت حاجبين كثيفين، ملتحمين في خط مستقيم كانت عيناه تتألقان بعمق لا نهائي. لم يحرك ساكنًا. كان قويًا وهادئًا أمام الحاكم الروماني، إلا من حركة خفيفة بيديه المقيدتين، كانت تنم عن صرخات قلبه. وفي بعض الأحيان كان يأخذ نفسًا عميقًا، كما لو كان صدره، الذي اعتاد على الهواء الحر النقي في التلال وفي بحيرات "الجليل"، قد اختنق بين تلك الأعمدة الرخامية، في ظل الإيقاع الجنائزي الروماني الثقيل، وضيق القانون الرسمي.

وعلى أحد الجانبين وقف "ساريتاس" المتحدث باسم "السنهدريم"، بعد أن خلع وشاحه وألقى عصاه الطويلة الذهبية على الأرض، وأخذ يقرأ من رق داكن بعد أن فكه، بنغمة ناعسة. ويجلس عند موطئ قدميه المستشار الروماني الذي اختنق بسبب الحرارة القاسية من شهر أبريل، وأخذ يهوي على نفسه بمروحة

من أوراق اللبلاب الجافة، وكـان وجهـه الحليـق أبـيض كـالجص. وكـان الكاتـب رجـلًا عجوزًا وطويلًا يقف أمام منضدة حجريـة مليئـة بالجـداول والمسـاطر المصـنوعة مـن الرصاص، يبري في صمت أقلام البوص. وبينهما وقف مترجم فينيقـي ذو لحيـة يبتسـم بوجهه في الهواء، ويداه على الحزام، ويختال بصـدره ويرتـدي سـترة مـن الكتـان رُسـم عليها ببغاء أحمر. ومن حول المكـان كانـت الحمائـم تحلـق باسـتمرار. وهكـذا رأيـت "يسوع الجليلي" مقيدًا، أمام الحاكم الروماني، لكن "سـاريتاس"، بعـد أن لـفَّ الرقاقـة الداكنة حول القضيب الحديدي، حيًّا "بيلاطس"، وقبَّـل الخـاتم الـذي بإصـبعه، ليضـع علامة ختم الحقيقة على شفتيه، وبدأ على الفور بلغة يونانية يتلو خطبة بهـا نصـوص مطولة ومملة. تحدث عن حاكم "الجليل" "أنتيباس" النبيل، وأشـاد بحكمتـه؛ وامتـدح أباه "هيرودس" العظيم، الذي أعاد بناء الهيكل.. وأن مجد "هيرودس" ملأ الأرض. وأنه كان جسورًا ودائم الإخلاص للقياصرة؛ وأن ابنه "أنتيباس" بارع وقوي! ولكن مع إدراك حكمته تساءل في ذهول كيف له أن يرفض التصديق على حكـم "السـنهدريم"، الـذي أدان يسوع بالموت.. وتساءل ألم يستند ذلك الحكم على قوانين الـرب وشريعتـه؟ لقـد كان العادل "حنّان" يستجوب الحاخام وكان الحاخام يصمت صمتًا فاضحًا. هـل هـذه طريقة للرد على الحكيم، الطـاهر الـورع "حنّـان"؟ لـذا فقـد فقـام رجـل مـتحمِّس لم يتمالك نفسه بلطم الحاخام على وجهه بعنف.. فأين هو احترام الأزمنة الغابرة، وأيـن توقير البابوية؟

كـان صـوته الأجـش العـريض يُـدوي بـلا نهايـة. وكنـتُ أتثـاءب مـن التعـب، وكـان تحتنـا رجـلان يتربعـان عـلى الـبلاط يـأكلان مـن تمـر "بيتابـارا" الـذي أحضراه في تنـانيرهما، ويشربـان مـن قـرعتين. أمَّـا "بـيلاطس" فكـان يتكـئ بذقنـه على قبضة يده، يحـدق في هـدوء في عباءتـه المطـرزة بالـدانتيل ذات اللـون القرمـزي تملؤها النجوم الذهبية. وأخذ "ساريتاس" يطالـب بحقـوق الهيكـل. فهـو فخـر الأمـة،

وبيت اللـه المختار! وكان القيصر "أوغسطس" يقـدم لـه الـدروع والأواني الذهبيـة... فكيف لهذا الحاخام ألا يحترمه؟ بل ويهدد بتدميره! لقد سمعه شهود وهو يردد هـذا الكلام الجاحـد الفـظ ويقـول: "سـأحطم هيكـل الـرب وأبنيـه في ثلاثـة أيـام"، فغطـوا رؤوسهم بالرماد حتى لا يصيبهم غضب الرب... والآن وقد تجاوز التجرؤ على الهيكـل، بدأ يتجرأ حتى على الرب!

فبدأ الفريسيون، والكتبة، وسَدَنَة المعبد، والعبيد الوضعاء يهمسون مثل الشجيرات البرية التي تهب عليها الرياح فتحركها. ووقف يسوع بلا حـراك، غـير مبالٍ، ومغمـض العينين، وكأنه يعمل عـلى عـزل حلمـه المتواصـل الجميـل بشـكل أفضـل، بعيـدًا عـن الظروف الصعبة التافهـة التـي يمكـن أن تشـوهه. ثـم قـام المستشـار الرومـاني وتـرك مروحته الورقية عند موطئ قدميـه، وارتـدي بأناقـة رداءه القضـائي، المـزركش بـاللون الأزرق، وحيًّا الحاكم ثلاث مرات، وبدأ يلوّح بيده الرقيقة في الهواء، والجواهر التي بها تصدر بريقًا مميزًا.

- ماذا قال الرجل؟

وهمس لي "توبسيوس":

- أشياء ذكية إلى ما لا نهاية، إنه متحذلق لكنه عـلى حـق. يقـول إن الحـاكم لـيس يهوديًّا، ولا يعرف شيئًا عن "جيوفا" ولا يهتم بالأنبياء الذين يقفـون ضـده. وأن سـيف قيصر لا ينتقم للآلهة الذين لا يحمون قيصر! إنه روماني بارع!

وجلس المستشـار عـلى مقعـده المـنخفض بهـدوء وهـو يلهـث. وعـاد "سـاريتاس" للحـديث مطـولًا وبشـكل ممـل وهـو يشـير بذراعيـه إلى جمهـور "الفريسـيين"، لإثارتهم، والاستعانة بقوتهم. والآن، وبشكل أكثر دناوة، يتهم يسوع، ليس بثورتـه ضـد يهوه والمعبد، ولكن بادعاءاته بأنه أمير بيت داوود! فقد رآه الجميع في القـدس وعـلى مـر أربعـة أيـام، يـدخل مـن بوابـة الـذهب، وهـو انتصـار وهمـي بـين

زعف النخيل الأخضر، ويحيط به حشد من الجليليين، وهم يهتفون: "أنقذنا يا ابن داوود! خلِّصنا يا ملك إسرائيل!".

وصرخ "جاد" بصوت يملؤه الحب والاقتناع:

- هو ابن داوود، الذي أتى ليجعلنا أفضل!

لكن "ساريتاس" فجأه ضم أكمامه المهدبة إلى جسمه، وظل صامتًا جامدًا كأنه كومة من الرمال. وكان الكاتب الروماني يقف واضعًا قبضته على المائدة ومحنيًا رقبته السمينة باحترام. ابتسم المستشار باهتمام. إن الحاكم بنفسه هو الذي سيستجوب الحاخام. وأنا، أرتجف، رأيت جنديًا يدفع يسوع، الذي رفع وجهه. كان الحاكم يميل بوجهه على الحاخام بخفة وبأيدٍ مفتوحة بدا وكأنها تتراخى، لإسقاط كل التهم في هذا التقاضي الطقسي بين الطائفيين المتعجرفين، وتململ "بيلاطس"، متضايقًا ومهزوزًا:

- هل أنت إذًا ملك اليهود؟ تلك أمتك جلبتك إلى هنا! ماذا فعلت؟ أين مملكتك؟

وكرر المترجم، المفتون بنفسه، وهو يقف عند الرواق الرخامي، بصوت عالٍ هذه الجمل باللغة العبرية القديمة التي في الكتب المقدسة. ولما صمت الحاخام، صرخ مرة أخرى بالكلدانية التي تُستخدم في "الجليل".

ثم تقدَّم يسوع خطوة. سمعت صوته. كان واضحًا، وواثقًا، ومهيمنًا، وهادئًا:

- مملكتي ليست هنا! إذا كانت مشيئة أبي هي أن أكون ملكًا لإسرائيل، لما مثلت أمامك هنا بهذا الحبل في يدي، لكن مملكتي ليست في هذا العالم!

وانطلقت صرخة يائسة:

- إذًا، أخرجوه من هذا العالم!

وعلى الفور، كخشب جاف أُشعلت فيه شرارة، تفجّر غضبُ "الفريسيين" وخدم المعبد، في صرخات يائسة:

- اصلبوه! اصلبوه!

وكرر المترجم في بهاء باللاتينية للحاكم الصرخات المضطربة، وباللغة السريانية التي يتحدث بها الناس في "يهودية"... فضرب "البنطي" بصولجانه على الرخام. ووقف اثنان من حاملي العُصي التي تنتهي برأس نسر. وصاح الكاتب باسم "كايو تيبريوس". وسرعان ما انخفضت الأيدي بثبات، وعمَّت الرهبة الناس من عظمة الشعب الروماني.

وتحدث "البنطي" مرة أخرى، ببطء وغموض:

- إذًا تقول إنك ملك، وماذا تفعل هنا؟

تقدَّم يسوع خطوة أخرى نحو الحاكم، واستقر صندله بثبات على الأرض كما لو كان استحوذ على الأرض من عليائه. وما خرج من شفتيه المرتجفتين بدا لي وكأنه وهج، ساطع في الهواء، مثل بريق عينيه السوداوين.

- لقد جئتُ إلى هذا العالم لأكشف عن الحقيقة! فمن تمنَّى الحقيقة، ومن أراد أن ينتمي للحقيقة يجب أن يستمع إلى صوتي!

فكر "بيلاطس" لحظة. ثم ضم كتفيه، وقال:

- ولكن، يا رجل، ما الحقيقة إذًا؟

وصمت يسوع الناصري، وساد المحكمة السكون، كما لو أن كل القلوب قد توقفت، ومُلئت بالشك فجأة.. ثم، وبعد أن لملم "بيلاطس" عباءته ببطء، هبط الدرجات البرونزية الأربعة، ومشى يسبقه اثنان من الرجال يحملون العصيّ

ويليه المستشار، ودخل القصر، وسط ضجيج أسلحة المحاربين الذين أدوا له التحية، وضربوا برماحهم الحديدية على دروعهم البرونزية.

وعلى الفور، ارتفع في الساحة همس حاد ومحموم، مثل طنين النحل الغاضب. كان "ساريتاس" يستعطف، ويهز عصاه، بين "الفريسيين" الذين شبكوا أيديهم في استعراض للقوة. وآخرون يتهامسون بعيدًا بينهم بحزن. وأقبل رجل كبير عجوز يلبس عباءة سوداء يهتز، ويجري بشوق ناحية الحاكم مخترقًا صفوف النائمين في الشمس وبائعي الخبز دون خمير، وهو يهتف: "لقد انتهت إسرائيل"، ورأيت اللاويين المتعصبين ينتزعون الشُرّابات التي تزين عباءاتهم منها، كعادتهم عند حلول كارثة عامة.

ووقف "جاد" أمامنا، ورفع ذراعيه منتصرًا، وقال:

- إن الحاكم رجل عادل وسوف يحرر الحاخام!

وبوجه متألق، كشف لنا عن حلاوة أمله! فما إن تبرأ ساحة الحاخام سوف يخرج من القدس، حيث قلوب الناس قاسية كالحجارة. ويذهب لأصدقائه الذين ينتظرونه في "بيسان". وسيغادرون عند ظهور الهلال إلى واحة "أنجادا"! فهناك محبوه. ألم يكن يسوع أخًا لجماعة الزهاد؟ فهو مثلهم، بشّر بازدراء النعم الدنيوية، وبالعطف على الفقراء، وبجمال ملكوت الله الذي لا يُضاهى... وابتهجتُ كمؤمن، عندما اقتحم الثوّار الرواق، وعندما جاء عبد يسقي الماء. وكانت هذه الفرقة الكئيبة من "الفريسيين" يتجهون إلى المقعد الحجري حيث يتحدث الحاخام "روبان" إلى "منسي"، وهو يلف بلطف على أصابعه شعر الطفل، الأكثر صفرة من لون الذرة. وركضت أنا و"توبسيوس" ناحية هؤلاء الغوغاء المتعصبين. ووقف "ساريتاس" في الوسط، وانحنى بحزم من يعطي الأمر، وقال:

- حاخام "روبان"، يجب عليك الذهاب والتحدث إلى الحاكم للحفاظ على شريعتنا!

ومن ثم سمع من كل جانب نداءً متحمسًا:

- يا حاخام كلم الحاكم! يا حاخام، أنقذ إسرائيل!

ونهض الرجل العجوز ببطء، كان مهيبًا كموسى العظيم. وانحنى أمامه "لاويٌّ"، وجهه ممتقع، على ركبتيه، وأخذ يتكلم وهو يرتجف:

- يا حاخام، أنت رجل عادل حكيم، مثاليٌّ، وقويٌّ أمام الرب!

ورفع الحاخام "روبام" كلتا يديه إلى السماء. فطأطأ الجميع رؤوسهم كما لو كانت روح يهوه قد نزلت لتملأ هذا القلب الصالح، ملبين دعوته الصامتة. ثم، أمسك بيد الطفل في يده، وبدأ يمشي في صمت وراء الحشد، وسُمِع صوت وقع الصنادل الفضفاضة على ألواح الرخام. وتوقفنا، محتشدين، أمام بوابة خشب الأرز، حيث وقف الجندي بحربة مائلة بعد أن قرع الباب بمقرعة من الفضة. أصدرت المفصلات الثقيلة صريرًا؛ وحضر قاضي القصر، يمسك في يده فرع طويل من الكرمة. كانت الردهة باردة من الداخل، مضاءة بشكل خافت، مخيفة، لها جدران مبطنة بالجص الداكن. وفي وسطها وقف تمثال شاحب لـ"أغسطس"، تُوِجت قاعدته بأكاليل الغار والفروع النضرة؛ وبجانبه وُضِع اثنان من المشاعل البرونزية المذهبة الكبيرة تلمع في الظلام.

لم يدخل أيٌّ من اليهود - لأن وطء أرض وثنية في يوم الفصح يُعد أمرًا مذمومًا في عيون الرب. وأعلن "ساريتاس" بصوتٍ عالٍ إلى القاضي أن "بعضًا من بني إسرائيل، يقفون في انتظار الحاكم". ثم ساد صمت، مليء بالقلق، لكنَّ اثنين من حملة العصي تقدما. ثم ظهر من خلفهما بيلاطس يمشي بخطى واسعة بردائه الهائل يلمه إلى صدره.

انحنت جميع العمائم، تحيي المدعي العام لمدينة "يهودية" الذي وقف عند تمثال أغسطس. وبدا كأنه يقلد وضع التمثال الرخامي النبيل، فأمسك بيده رقًا ملفوفًا، وقال:

- السلام عليكم وعلى كلماتكم.. تكلموا!

فتقدم "ساريتاس"، عضو "السنهدريم"، وقال إن قلوبهم جاءت من أجل الحق وهي مملوءة بالسلام، ولكن عندما غادر الحاكم ساحة المحكمة دون تأكيد أو إلغاء عقوبة "السنهدريم" التي تدين يسوع - ابن يوسف - فأصبحنا كمن يرى العنب في كرمه، لا هو جُفِّف ليصير ذبيبًا ولا هو تُرك لينضج على عوده!

وبدا لي أن "البنطي" قد أسقِط في يده، وأصابه الخرف. وقال:

- لقد استجوبت سجينكم، ولم أجده مذنبًا يستحق عقوبة من حاكم "يهودية". "أنتيباس هيرودس"، الذي عرفته حكيمًا وقويًا، يحكم بشريعتكم ويصلي في معبدكم، وقد حقق معه ولم يجده مذنبًا أيضًا؛ فالرجل فقط يقول كلامًا غير متسق، مثل أولئك الذين يتحدثون في الأحلام.. لكن يديه لم تلوثها الدماء؛ ولم أسمع أنه تسلق جدار جاره. إن القيصر ليس سيدًا لا يرحم.. إن هذا الرجل هو مجرد محتال.

ثم انصرف الجمع وهم يهمسون بغضب، وتركوا الحاخام "روبان" وحده على عتبة الغرفة الرومانية. ولمع بريق المجوهرات على طرف تاجه البابوي المثلث، وتدلى شعره الأبيض على كتفيه العريضتين، فصار متوجًا بالجلال كما يُتوج الثلج الجبال. وكانت حواف عباءته الفضفاضة الزرقاء تتدلى على الأرض من حوله. وأخذ يتكلم ببطء وهدوء، كما لو كان يشرح الشريعة لتلاميذه، ورفع يده، وقال:

- موظف القيصر، "البنطي"، عادل جدًّا وحكيم جدًّا! إن الرجل الذي تسمونه محتالًا، قد أساء لسنوات طوال إلى كل قوانيننا وأهان إلهنا. ولكن متى اعتقلناه نحن، ومتى أحضرناه لكم؟ فقط عندما رأيناه يدخل مزهوًا من باب "الذهب"، وقد نُصِّب ملكًا على "يهودية". لأن "يهودية" ليس لها ملك سوى "تيبريوس"؛ إنه فقط رجل فتنة يعلن نفسه في ثورة ضد قيصر، فلنسارع لمعاقبته. هكذا فعلنا نحن الذين لا نملك أي أمر من قيصر ولا نتقاضى راتبنا من ماله. وأنت يا ضابط قيصر، ألا تريد أن يُعاقب ثائرٌ ضد سيدك؟

وبرق وجه "البنطي" العريض، الذي كان الخمول والنعاس يداعبانه، وانتفخت أوداجه واحمر وجهه. إن انحراف اليهود الذين يلعنون روما ليل نهار، يدّعون الآن الغيرة الصاخبة على اسم قيصر حتى يستغلوا سلطته كي ينفثوا حقدهم الكهنوتي ويثيروا حفيظة الرومان، ولم يطق كبرياؤهم هذا التحذير الجريء. فصاح فجأة، مع لفتة هزت كيانهم:

- توقفوا! إن موظفي قيصر لم يأتوا هنا للتعلم في مستعمرة "بربرية" في آسيا واجباتهم نحو قيصر!

كان "منسّي" بجانبي، وقد نفد صبره، وأخذ يشد لحيته، وابتعد بسخط. أمَّا أنا فتملكتني الرعشة. لكن الحاخام الرائع واصل، دون أن يلقي بالاً لغضب "البنطي" وكأنه خروف يساق إلى مذبحة:

- ماذا عساه يفعل نائب قيصر في الإسكندرية إذا هبط محتال من "تل بسطة" معلنًا نفسه ملكًا على مصر؟ ما لا تريد القيام به في هذه الأرض البربرية في آسيا! إذا كلفك سيدك بحراسة كرم من الكروم، فهل تترك الغرباء يدخلونه ويحصدون عنبه؟ ما سبب وجودك في "يهودية" إذًا؟ وما وظيفة الفيلق السادس في برج "أنطونيا"؟ لكن روحنا واضحة، وصوتنا واضح وصاخب بما فيه الكفاية، يا بنطي، حتى إنه سيصل لمسامع قيصر!

خطا "البنطي" خطوة بطيئة نحو الباب. وقد تعلقت عيناه اللامعتان بهؤلاء اليهود الذين استطاعوا بمكرهم أن يورطوه في هذه المؤامرة الدنيئة لأحقادهم الدينية:

- أنا لستُ خائفًا من مؤامراتك!

قالها وهو لا يلوي على شيء:

- إن "إليو لاما" صديقي! وقيصر يعرفني جيدًا!

فرد الحاخام "روبان" في هدوء وكأنه يتحدث وهو جالس في ظل حديقته:

- أنت لا ترى ما في قلوبنا! لكننا نرى جيدًا ما في قلبك، يا "بنطي"! ما شأنك أنت بحياة محتال "الجليل" أو موته؟ إذا كنت لا تريد، كما تقول، أن تنتقم لآلهة لا تعترف بألوهيتهم، فكيف تريد أن تنقذ نبيًّا لا تصدق نبوءته؟ يالخبثك أيها الروماني! أنت لا تريد سوى تدمير "يهودا"!

سرت موجة من الغضب ومن الولع الورع بين "الفريسيين"؛ وأخذ البعض يضع يده على صدره، كما لو كان يتحسس سلاحه. واستمر الحاخام "روبان" في التنديد بالحاكم، في هدوء وبطء:

- هل تريدُ أن تترك دون عقاب رجلًا يبشر بالتمرد، معلنًا نفسه ملكًا في محافظة من أملاك قيصر، وتجعله يحاول بسبب تبرئتك له أن يرنو لأطماع أكبر، فيتخذ إلهًا آخر في قرية "جمالا" يهاجم به تحصينات "السامرة"! وهكذا تحضر لحجة كي تضربنا بالسيف الإمبراطوري، وتنهي حياة أمة يهود. هل تريد ثورة ليغرق الشعبُ في الدم، ومن ثم تظهر أمام قيصر أيها الوالي الحكيم كقائد منتصر، يستحق منصبًا كنائب للقنصل أو رئيس حكومة في إيطاليا! هل هذا ما تسمونه العقيدة الرومانية؟ أنا لم أذهب إلى روما، لكنني أعرف أن هذا هو ما يُسمى هناك بالعقيدة الإجرامية، لكن لا تظن أننا بسطاء مثل راعٍ في "أدوميه"! نحن في سلام مع قيصر، ونقوم بواجبنا في إدانة رجل ثار ضد

قيصر. ألا تريد أن تقوم بواجبك، وتؤكد هذه الإدانة؟ حسنًا! سوف نقوم بإرسال مبعوثين إلى روما، مع حكمنا ورفضك، وبعد أن نبرئ ساحتنا أمام قيصر، سوف نُظهر له كيف يتصرف الرجل المنوط به تطبيق قانون الإمبراطورية في "يهودية"! والآن، أيها الحاكم يمكنك العودة إلى المحكمة.

صاح "ساريتاس":

- وتذكَّر الدروع النذرية المزخرفة؛ ربما ترى من جديد لمن سيعطي قيصر الحق!

وخفض "البنطي" رأسه، مضطربًا؛ فقد تخيَّل بالتأكيد كل أعدائه أمثال السياسي والعسكري الروماني "سيهانوس" و"سيزونيو" صديق الإمبراطور "تيبيريوس" يهمسون في أذن قيصر ويقدمون له مبعوثي الهيكل وهم جالسون في شرفة واسعة قرب بحر كابري.. وهو يعرف أن قيصر دائم الشك، وغير مستقر، يمكن أن يفكر في إبرام حلف مع "ملك اليهود" هذا، كي ينقذ ولاية غنية من ولايات إمبراطوريته. وهكذا يمكن أن يكلفه عدله وعزته ثمنًا بأن يفقد إمارة "يهودية"! وصار العدل والعزة حينئذٍ، في نفسه الفضفاضة، مثل موج البحر ترتفع لحظة ثم تضرب بعضها بعضًا، وتتلاشى. ووصل حتى عتبة الباب، وفتح ذراعيه ببطء، كما لو كان أعاده دافع من شهامة للمصالحة، وبدأ يقول وهو أكثر شحوبًا في عباءته البيضاء:

- لقد حكمت "يهودية" مدة سبع سنوات. هل وجدتموني ظالمًا أو خائنًا للعهد؟ وبطبيعة الحال، فإن تهديداتكم لا ألقي لها بالًا؛ فقيصر يعرفني جيدًا، ولكن لصالح قيصر، لا ينبغي أن يكون هناك أي خلاف بيني وبينكم. لطالما قدمتم تنازلات! لكن لم يأتِ من يحترم شريعتكم مثلي من القواد منذ "كوبونيوس".. وعندما لوث رجلان من "السامرة" هيكلكم، ألم أجعلكم تنتقمون منهما؟ لا يجب أن يكون بيننا أي خلافات ولا كلمات مرّة.

وتردد للحظة، ثم فرك يديه ببطء، وهزهما، كما لو كان ينفض يديه من ماء نجس:

- هل تريدون حياة هذا المحتال؟ ماذا يهمني؟ خذوها.. أليس الجّلْدُ كافيًا بالنسبة لكم؟ وتريدون صلبه؟ اصلبوه، لكني لستُ أنا من يريق هذا الدم!

صاح اللاوي الشاحب بلهفة:

- بل نحن من سيسقط هذا الدم على رؤوسنا!

وارتجف البعض ممن يؤمنون بأن كل الكلمات لها قوة خارقة للطبيعة تجعل من الأفكار أحداثًا حية على أرض الواقع. وغادر "البنطي" الردهة؛ وأغلق بوابة خشب الأرز بعد أن ألقى السلام. ثم عاد الحاخام "روبان"، بهدوء، يتألق كرجل عادل. وتقدم بين "الفريسيين" الذين نزلوا لتقبيل طرف عباءته، وهمس بجد وعذوبة:

- لأن يعاني رجل واحد خير من أن تعاني أمة بأكملها!

وسقطتُ، أرتجف، وأنا أمسح العرق الذي غمر رأسي ووجهي من فرط التأثر، على المقعد. واستطعتُ، وأنا منهك القوى، أن أميز بشكل غير واضح في ساحة المحكمة جنديين، بحزام وسط فضفاض، يشربان من طاس حديدي كبير وقف رجلٌ أسود يملؤه من قربة معلقة على كتفيه. كما لمحت امرأة جميلة قوية، جالسة في الشمس، وطفليها يتعلقان بثدييها العاريين. وعلى البعد، رأيتُ راعيًا ملفوفًا في فراء، يضحك ويظهر ذراعه ملطخة بالدماء. ثم أغلقت عيني للحظة وتذكرت الشمعة التي تركتها في الخيمة، مشتعلة بجانب سريري، وهي تصدر دخانًا أحمر، ثم غفوتُ لبرهة.. وعندما استيقظتُ، كان كرسي العاج ما زال خاويًا، ووسادة أرجوانية أمامه، فوق الرخام، بالية، وتبدو عليها آثار قدمي القاضي. وتوافد جمهور أكثر كثافة، وزادت الضجة في قصر "هيرودس" القديم. كانوا رجالًا خشنين، ويلبسون عباءات قصيرة من الصوف الخشن يكسوها الغبار كما

لو كانت من قبل سجادًا فُرش على أحجار ميدان فسيح. حمل البعض موازين في أيديهم، وأقفاص من القُمْريات. وأخذت النساء اللواتي تبعنهم، بألسنتهن الدنيئة البائسة، يصبنّ اللعنات على الحاخام من بعيد. ومشت نساء أخريات على أطراف أرجلهن يبعن بضاعة صغيرة وثمينة، مدسوسة داخل طيات التنانير؛ مثل حبوب الشوفان المحمص، والمراهم، والمرجان، وأساور "قدرون". وسألت "توبسيوس" عن ذاك؛ فأجابني صديقي العالم، وهو ينظف نظارته، قائلًا إنهم كانوا بالتأكيد التجار الذين رفع يسوع عصاه في وجوههم عشية عيد الفصح، ودعا بتطبيق الشرع الذي يحظر البيع والشراء، والذي يدنس الهيكل و"رواق سليمان"، وهمس المؤرخ الرائع بسخرية مضيفًا:

- تهور آخر من الحاخام، سيد "رابوزو".

⌘⌘⌘

وفي هذه الأثناء، عندما حلت الساعة اليهودية السادسة وانتهى العمل، جاء العمال من المدابغ المجاورة، يرتدون اللون القرمزي أو الأزرق؛ وكُتّاب المعابد يمسكون تحت أذرعهم دفاترهم؛ والبستانيون يحملون مناجلهم معلقة على أكتافهم بأحزمة تصل إلى خصورهم، وفروع من نبات الآس مثبت في العمائم. والخيَّاطون ومعهم إبر حديدية طويلة معلقة وراء الأذن، والعازفون الفينيقيون في ركن يشدون أوتار آلاتهم، ويطلقون نغمات من المزامير الطينية. وأخذت عاهرتان يونانيتان من "طبريا" تحومان حولنا، تلبسان شَعرًا مستعارًا أصفر، تظهران طرفي لسانيهما وتهزان طرفي فستانيهما، فتفوح منهما رائحة المردقوش. وعبر الجنود يحملون حرابهم على صدورهم، ويضيقون الحصار الحديدي من حول يسوع. والآن أستطيع بالكاد أن أميِّز الحاخام من خلال هؤلاء الذين أقبلوا على بعضهم يتهامسون، حيث تصادمت الحروف الساكنة الحادة للغة سكان جبال "مؤاب" والصحراء بنعومة اللغة الكلدانية، ودق

جرس حزين أسفل الرواق. كان رجل ريفي يعرض في سلة مـن الحلفـاء، تينًـا مشـقوقًا مرصوصًا على طبقة من ورق العنب من "بيت فاجي". وعنـدما كنـت متعبًـا مـن أثـر الحزن ومتكئًا على وجهي فوق حجر أمامي، سألته عن سعر هدية البساتين التي تُثني عليها الأناجيل. فمدَّ الرجل ضاحكًا ذراعيه وكأنه قد وجد ضالته:

- بيني وبينك، يا ابن الأكرمين، يا من جئت مـن بـلاد مـا وراء البحـار، مـاذا تكـون هذه الحفنة من التين؟ إن يهوه يأمر الإخـوة بتبـادل الهـدايا والبركـات! لقـد جمعـت هذه الثمار من البستان، واحدة تلو الأخرى، في وقت طلوع الشـمس في الخليـل. هـي ثمار مغذية ولذيذة. إنها ثمار تليق بمائدة الملك "حانون"! لكن ما فائدة كلمات فارغـة بيني وبينك، إذا كانت قلوبُنا تفهم بعضها بعضًا؟ خذ هذا التين، أفضـل مـا في سـوريا، وليغمر الرب بنعمه من أنجبتك!

كنـتُ أعـرف أن هـذا العـرض كـان مجاملـة شـكلية، في البيـع والشراء، منـذ زمـن البطاركة؛ فأديت دوري أنا أيضًا؛ وقلتُ إن الرب العظيم القوي، أمرني بدفع ثمـن ثمـار الأرض من العملة التي سكَّها الأمـراء؛ ثـم خفـض البسـتاني رأسـه، وسـلم بـأمر اللـــه. ووضع السلة على الأرض، وأخذ في كلتا يديه السوداوين المليئتين بالتراب، وصاح:

- حقًّا، إن الرب قوي عظيم! فإذا كان هذا أمره، يجـب عـليَّ أن أضـع سـعرًا لـثمار بركته هذه، التي هي أحلى من شفاه الزوجة! هذا هو الحـق يـا رجـل يـا كـريم؛ فأنـا أطلب لهاتين الثمرتين اللتين تملآن راحتي، معطرتين وطازجتين، أن تعطيني عملـة مـن الفضة.

يا إله يهوه العظيم! إن ذلك العبري الفصيح يطلب في كل تينة عشرة سـنتات مـن عملة بلادي الحقيقية! فصرخت فيه: "إليك عنـي يـا لـص". ولمـا كنـت أحـب الحلـوى بطبعـي، وكـان التـين مغريًـا، عرضـت عليـه دراخـما واحـدة مقابـل مـلء

عمامة واسعة من التين. ورفع الرجل يديه إلى فتحة عنق عباءته متظاهرًا بأنه سوف يشقها بسبب احتقارنا لسلعته. وأخذ يدعو يهوه وإلياس وكل الأنبياء، والأولياء عندما تدخل الحكيم "توبسيوس"، وهو غاضب، بشكل حاد، وعرض عليه عملة حديدية صغيرة مطبوع عليها زنبقة مفتوحة، وقال:

- في الواقع، إن يهوه عظيم! وأنت صاحب وفارغ مثل قربة مملوءة بالهواء! ومقابل التين الذي في السلة كله أعطيك هذه. وإذا لم تقبل، فنحن نعرف طريق البساتين تمامًا كطريق المعبد، ونعرف أين تكون المياه الحلوة الآتية من بئر أيوب لتروي أفضل البساتين. اذهب بعيدًا!

وسرعان ما تسلَّق الرجل بحماس الحاجز الرخامي الذي بيننا، وملأ لي طرف عباءتي الذي فرشته له. كان عبوسًا لكنه محترمًا.. ثم، وبعد أن كشف عن أسنانه البيضاء بضحكة خفيفة، قال إننا كنا أكثر فائدة له من الندى المتساقط على جبل "الكرمل"! وبدت لي وجبة من تين "بيت فاجي" وفي وسط قصر "هيرودس" نادرة ولذيذة. ولكن ما إن اتخذنا مقاعدنا والفاكهة في حجورنا، حتى رأيت رجلًا عجوزًا يحملق فينا أسفل منا، بعيون ضبابية شاكية، يملؤها التعب. وبدافع من الرحمة هممتُ بأن ألقي له بعض التين وعملة بطلمية من الفضة، عندما، أدخل يده المرتجفة تحت عباءته التي غطت صدره بالكاد، ومدها لي مع ابتسامة متعطنة، بحجر متوهج. كانت لوحة بيضاوية الشكل من الألابستر، نُحتت عليها صورة للمعبد. وبينما كان العالم "توبسيوس" يفحصها، أخرج الرجل العجوز من صدره حجارة أخرى، من المرمر والعقيق، واليشب، نُقشت عليها صور خيمة في الصحراء، وأسماء القبائل، وصور غير واضحة نُحتت على قطع أخرى تحاكي معارك "المكابيين"، ثم وقف وطوى ذراعيه. وبدا على وجهه النبيل الحريص القلق، كما لو كان يتوقع مني فقط الرحمة والراحة. واستنتج "توبسيوس" أنه كان واحدًا من

أتباع "زرادشت"، الذين يعبدون النار ولديهم مهارة في مجال الفنون، فيذهبون إلى مصر حفاة القدمين، وبيدهم المشاعل المضيئة، ويرمون على أبي الهول دم ديك أسود. لكن الرجل العجوز نفى الأمر وهو مرعوب، وهمس لنا بقصته في حزن. وأنه كان حجّارًا في بلدة "نعيم"، وأنه كان يعمل في المعبد وفي المباني التي شيدها "أنتيباس هيرودس" في "بيزيتا". وكانت سياط ضباط الشرطة الرومان تمزق جسده. ثم هدّهُ المرض، كما يجفف الصقيع شجرة التفاح. والآن، هو عاطل، وعنده أحفاد من ابنته يريدون الطعام؛ فأخذ يبحث عن أحجار نادرة في الجبال، ونقش فيها أسماء مقدسة، وصور أماكن مقدسة، ليبيعها في المعبد للمؤمنين. لكن عشية عيد الفصح، جاء حاخام من "الجليل"، مليء بالغضب، ليقطع عيشه!

- هذا!

نطقها وهو يختنق ويشير بيده المرتعشة إلى يسوع.

واعترضتُ. إذ كيف يمكن أن يأتي إليه الظلم والألم من ناحية هذا الحاخام، ذي القلب المقدس، الذي كان دائمًا أفضل صديق للفقراء؟

- هل كنت تبيع في المعبد؟

سأل مؤرخ "آل هيرودس" اللامع.

- نعم.

تنهد الرجل العجوز، وأكمل:

- كنت أتكسَّب من هناك، في الأعياد، خبز السنة كلها! اعتدتُ الصعود للمعبد في تلك الأيام وأن أصلي للرب، وكنت أفرش بضاعتي على حصيرة، كانت تضوي تحت شعاع الشمس بجانب باب "سوسة" أمام رواق الملك.. وبطبيعة الحال، لم يكن لي الحق في وضع خيمة هناك. وكيف أدفع للكهنة إيجار مكان من أرض

المعبد، لبيع عمل يدي! فكل أولئك الذين يعرضون بضائعهم في الظل، تحت الرواق، على صواني من خشب الأرز، هم تجار أغنياء يستطيعون استخراج الترخيص. كان بعضهم يدفع أسورة من الذهب. لكني لم أستطع، ومعي أطفال بالبيت ينتظرون دون خبز.. ولهذا السبب كنت أجلس في زاوية، خارج الرواق، في أسوأ مكان. هناك كنت أجلس منطويًا هادئًا جدًّا. لم أكن حتى أشتكي عندما يدفعني رجال بلا رحمة، أو يضربونني بعصيهم على رأسي. وكان هناك فقراء آخرون بجانبي، مثل "إبويم" الذي يأتي من "يافا" وكان يبيع زيتًا يساعد على نمو الشعر، و"هوشع" من الرامة، الذي كان يبيع المزامير الطينية. كان جنود "برج أنطونيا" يمرون علينا، فيغضون الطرف عنا. حتى "مناحم"، الذي كان دائمًا ما يحرس المعبد خلال عيد الفصح، قال لنا: "حسنًا، فلتبقوا، طالما أنكم لا تعلنون عن بضاعتكم بصوتٍ عالٍ"؛ لأن الجميع كانوا يعلمون أننا فقراء، ولم يكن باستطاعتنا دفع إيجار ذراع من أرض المعبد، وكان لدينا أطفال جائعون في بيوتنا.. وفي عيد الفصح، كان الحجاج يأتون إلى قبة العهد في القدس قادمين من أراضٍ بعيدة. وكانوا يشترون مني جميعًا صورة للهيكل كي يرونها لأهل قريتهم، أو يشترون واحدًا من أحجار القمر التي تطرد الشيطان بعيدًا.. في بعض الأحيان في نهاية اليوم، كنت أبيع بثلاث دراخمات، فأملأ الكيس بالعدس وأعود سعيدًا إلى بيتي المتواضع، أرتِّل وأمجِّد الرب!

كنتُ قد انشغلتُ بقصة الرجل عن وجبة التين. وواصل الرجل العجوز شكواه الطويلة:

- ولكن بعد ذلك، ومنذ أيام، جاء من "الجليل" ذلك الحاخام وظهر في المعبد، وقد امتلأ بالغضب، يرفع عصاه ويهبط بها علينا، متعللًا بأن "هذا المعبد هو بيت أبيه، وأننا كنا ندنسه! ونثر كل بضاعتي من الأحجار على الأرض، ولم أرها بعد ذلك، وتلك كانت هي خبزي! وكسر أوعية الزيت الخاصة

بصديقي القادم من "يافا" على الأرض، والذي لم يصرخ حتى من هول الصدمة. وجاء حراس المعبد. وجاء "مناحم" أيضًا. وقال غاضبًا للحاخام: "أنت قاسٍ جدًّا على الفقراء. ما السلطة التي لديك؟" وتحدث الحاخام عن "أبيه"، واحتج علينا بأننا ضد شريعة المعبد الصارمة. وطأطأ "مناحم" رأسه.. وكان علينا الفرار، بعد أن علا صوت التجار الأغنياء استنكارًا لنا، وهم يجلسون على سجاد "بابل" بعد أن دفعوا إيجار أماكنهم داخل المعبد، ويصفقون للحاخام.. نعم! فالحاخام لا يمكنه أن يقول شيئًا لمثل هؤلاء. فقد كانوا أغنياء، وقد دفعوا.. وها أنا الآن، هنا! ابنتي، أرملة ومريضة، لا يمكنها العمل، ملفوفة في أسمالها في زاوية المنزل. وأطفال ابنتي الصغار جائعون، ينظرون إليَّ، يرونني حزينًا ولا يبكون حتى. وماذا فعلتُ؟ لقد كنت دائمًا متواضعًا، وأواظب على صلاة السبت. أذهب إلى معبد "النعيم"، وهو المعبد الذي أصلي فيه، وكنت أجمع الفتات الزائد عن حاجتي لأعطيه لأولئك الذين لا يجدون حتى الفتات على الأرض. ما الذنب الذي أذنبته بالبيع؟ وكيف أهنتُ الرب؟ كنت دائمًا، وقبل أن أفرش حصيرتي، أقبِّل أرض المعبد. وأطهِّر كل حجر بماء البحر.. في الواقع، إن يهوه عظيم، فهو يعلم ذلك.. لكن من طردني هو الحاخام، فقط لأني فقير!

وصمت الرجل ويداه النحيلتان الموشومتان بخطوط سحرية ترتعدان، وتمحوان الدموع الغزيرة التي غمرته.

وضربتُ على صدري في يأس. وكنتُ أتألم وأتعجب كيف أن يسوع تجاهل هذه المصيبة التي - في عنفوان روحانيته - تورطت يداه الرحيمتان في صنعها دون قصد منه، مثل المطر المفيد الذي يعطي الحياة للبذور، ولكنه قد يودي بحياة زهرة معزولة. وحتى لا يبقى شيء يشين حياته، وحتى لا تكون هناك شكوى ضده على الأرض، دفعتُ دين يسوع (حتى يغفر لي والده!)، فقذفت في

جيد الرجل العجوز قطعًا نقدية ذات قيمة، ودراخمات، وعملات يونانية عليها صـورة "فيليـب"، وعمـلات رومانيـة عليهـا صـورة "أغسـطس"، وحتـى عملـة غليظـة مـن "سيرينايكا" كنت أعتز بها لوجود صورة "زيـوس آمـون" عليهـا والـذي كـان يشـبهني. وأضاف "توبسيوس" إلى هذا الكنز عملة نحاسية كانت تساوي في "يهودية" قيمة حبة من الذرة.

وامتقع وجه حجّار بلدة "نعيم" العجوز، واختنق صوته. ثـم، ضـم المـال في طيـات عباءته إلى صدره، وتمتم في خجل وورع وهو يرفع عينه التي لا تزال مبللة إلى أعلى:

- أبانا الذي في السماء، تذكَّر وجه هذا الرجل، الذي أعطاني طعام أيام طوال!

وظل ينتحب، بينما اختفى بين الحشود التي توافـدت حتـى غصّـت بهـم السـاحة وهم يلتفون حول الصواري التي تحمل المظلة. وظهر الكاتب وقد احمر وجهـه أكـثر، يمسح شفتيه. إلى جانب الحاخام وحراس المعبد، وجلس "ساريتاس" متكئًـا في كرسـيه. ثم، في وهج الأسلحة، ظهر حاملو العُصي البيضاء؛ ومرة أخرى، صعد "البنطي"، شاحب الوجه متثـاقلًا، في عباءتـه الرومانيـة الواسـعة، الـدرج البرونـزي، وجلـس عـلى المقعـد العاجي.

ساد صمت متأهب، بحيث أمكننا سماع نفير أبواق "برج ماريانـا" مـن بعيـد. قـام "ساريتاس" بفك لفافة الرق الداكنة، ونشرها على الطاولة الحجرية بين الكتب. ورأيت يدي الكاتب السمينة تكتب ببطء ديباجة ويختم فوق الخطـوط الحمـراء التـي فيهـا حكم الإعدام على "يسوع الجليلي"، يا ربي! ثم رفع "بيلاطس البنطي"، ذراعـه العاريـة بكرامة مجروحة، وأكد باسم قيصر "حكم السنهدريم، الذي حُكم به في القدس...".

وعلى الفور رفع "ساريتاس" طرف عباءته على عمامته، وأخذ يصلي، ويداه مفتوحتان للسماء. وانتصر "الفريسيون". وبجوارنا، كان رجلان مسنان جدًّا يقبلان بعضهما بعضًا بصمت على اللحية البيضاء. وهز آخرون عصيهم في الهواء، أو صاروا يهتفون بسخرية بالمقولة الرومانية: "ليس في الإمكان، أبدع مما كان!".

لكن فجأة ظهر المترجم على كرسي، ورفع ببغاءه المجتهد على صدره. وصمت الحشد في دهشة. وتشاور الفينيقي مع الكاتب، وابتسم، وصاح بالكلدانية، رافعًا ذراعيه اللتين ملئتا بأساور من الكورال:

- اسمعوا! في عيدكم هذا، عيد الفصح، اعتاد حاكم القدس وقاضيها، منذ أن أقر ذلك "فاليريوس جراتوس"، وبموافقة قيصر، أن يعفو عن مجرم.. والحاكم يقترح عليكم المغفرة لهذا. اسمعوا كذلك! لديكم أيضًا الحق في الاختيار بأنفسكم بين المدانين.. والحاكم بين يديه، في سجون "هيرودس"، رجل آخر حُكم عليه بالإعدام...

وتردد، وانحنى على موطئ قدميه، ومرة أخرى استجوب الكاتب، الذي أخذ يقلب في بردياته وكتبه. وأخذ "ساريتاس" يهز طرف عباءته ويُظهر دهشته من الحاكم، ويداه مفتوحتان في الهواء. لكن المترجم كان يصرخ بالفعل، ورفع وجهه المبتسم مرة أخرى:

- أحد هؤلاء المحكوم عليهم هو الحاخام "جوشوا"، الموجود هناك، والذي قال عن نفسه إنه ابن داوود.. وهو من يقترح الحاكم العفو عنه. أمَّا الآخر، فهو ضليع في الإجرام، سُجن بسبب قتله جنديًا رومانيًّا، غدرًا، في مشاجرة عند سفح الجبل. اسمه "باراباس".. اختاروا!

وعلت صرخة صاخبة مفاجئة بين "الفريسيين":

- "باراباس"!

هنا وهناك، في الرواق، كان اسم "باراباس" يجلجل. واقترب عبد من عبيد المعبد، يرتدي تنورة صفراء، وقفز إلى الكرسي فوق الدرج، وصرخ في وجه "بيلاطس"، وهو يضرب فخذيه بغضب:

- "باراباس"! استمع جيدًا! "باراباس"! الشعب يريد فقط "باراباس"!

وضربه جندي بعصاه فسقط متدحرجًا على الدَرَج. لكن كل الحشود، التي كانت أكثر انصياعًا وأكثر قابلية للاشتعال من قشة في قلب النار، نادوا باسم "باراباس". وأخذ البعض، في حالة من الغضب، يضربون بصنادلهم وعصيهم ذات القاعدة الحديدية على الأرض كي يهددوا الحاكم بالهلاك؛ والبعض الآخر من بعيد، وقفوا في الشمس، غير مبالين بالألم، ورفعوا أصابعهم. حتى باعة المعبد الجائلون ملأهم الحقد، وأخذوا يلوحون بالموازين الحديدية، ويدقون الأجراس، ويصبون اللعنات على الحاخام: "باراباس هو الأفضل" وحتى العاهرات من طبريا، وقد دهنَّ وجوههن باللون الأحمر كالأصنام، كُنّ يلوثن الهواء بصراخهن الوحشي:

- "باراباس"! "باراباس"!

كان القليل منهم من يعرف "باراباس". وكان الكثير منهم، بالتأكيد، لا يكره الحاخام، ولكن كلهم كان يشارك في زيادة الاضطراب، ولديهم الشعور بأن المطالبة ببراءة سجين اعتدى على جندي روماني هو إهانة للحاكم، الذي يلبس عباءة الحكم في جلال ويجلس في محكمته. وفي هذه الأثناء كان "البنطي"، غير مكترث، يكتب على لوح عريض من الرق على ركبتيه. وحوله صرخات منضبطة تهتف في إيقاع، مثل المطارق في مسبك الحدّاد:

- "باراباس"! "باراباس"! "باراباس"!

ثم استدار يسوع ببطء إلى العالم القاسي المتمرّد الذي أدانه؛ وفي عيونه المتألقة الرطبة، وفي الرجفة الهاربة من شفتيه، وفي هذه اللحظة فقط بدا عليه غمّ ومرارة من فقدان الوعي المعتم للبشر، الذين دفعوا للموت أعز صديق للبشرية.. جفف العرق على وجهه بيديه المقيدتين. ثم وقف أمام الحاكم، وهو هادئ لا يلوي على شيء، كما لو أنه لم يعد ينتمي إلى الأرض. ونادى الكاتب باسم قيصر وهو يضرب بمسطرة حديدية في يده على رخام المائدة ثلاث مرات، وتلاشت الجموع الغاضبة. وقام "البنطي"، تبدو عليه علامات الجد، دون غضب أو نفاد صبر، ونطق حكمه الأخير:

- خذوه، واصلبوه!

ونزل من فوق المنصة بينما كان الجميع يصفق. ظهر ثمانية جنود من البلاط السوري، مجهزين بالعتاد، بدروعهم المبطنة بالخيش، يحزمون أدواتهم، وقربة كبيرة من الماء والخل. أمَّا "ساريتاس"، المتحدث باسم "السنهدريم"، فلمس كتف يسوع، وأسلمه إلى قائد الفصيلة؛ قام جندي بفك قيوده، وخلع عنه جندي آخر عباءة الصوف. ورأيت حاخام "الجليل" الحبيب يخطو خطوته الأولى نحو الموت.

وغادرنا قصر "هيرودس" مسرعين، وأنا أجهِّز سيجارًا، عبر طريق يعرفه "توبسيوس" جيدًا. كان طريقًا مظلمًا ورطبًا، ومن خلال شقوق في الجدران كنا نسمع غناءً حزينًا للعبيد المسجونين.. وخرجنا إلى أرض واسعة، محمية بجدار حديقة مزروعة بأشجار السرو. رأينا جملين جاثيين يجتران الطعام إلى جوار كومة من الأعشاب المقطعة. واتجه المؤرخ الممشوق في طريقه إلى المعبد، عندما، رأينا تحت أنقاض قوس مغطى باللبلاب، أناسًا يتزاحمون حول واحد من جماعة الزهاد يضرب الهواء بذراعه المغطاة بالكتان الأبيض مثل أجنحة الطيور الغاضبة. كان الرجل هو "جاد"، وكان غاضبًا من الذل، ويصرخ في

رجل شارد الذهن، له لحية شقراء ضئيلة، ويلبس قرطًا ذهبيًا سميكًا في أذنيه، يرتجف ويتلعثم:

- لا، لستُ أنا، لم أكن أنا...

- بل أنت!

صرخ الزاهد، وضرب بصندله على الأرض:

- أنا أعرفك جيدًا. أمك هي حلّاقة الغنم في "كفر ناحوم"، وعليها اللعنة لما أرضعتك من لبنها!

انحنى الرجل، وخفض رأسه كحيوان مسحوب رغمًا عنه:

- لم أكن أنا! أنا "رفرائيم"، ابن "إليعيزر"، من "الرامة"! الجميع يعرفني بقوتي وصحتي مثل شجرة النخيل الفتية!

- بل كنتَ أحول عديم الفائدة كفرع كرمة ذابل، كلبُ وابنُ كلب!

صاح به "جاد":

- لقد رأيتك جيدًا.. لقد كان ذلك في "كفر ناحوم"، في الزقاق بجانب النافورة، أمام الكنيس، عندما ظهرت ليسوع، حاخام الناصرة! كنت تقبّل صندله، وتقول: "اشفني يا حاخام، اشفني! انظر هذه اليد التي لا تستطيع العمل!"، وأظهرت له يدك، هذه، اليمنى، كانت جافة، ذابلة وسوداء، مثل الفرع الذي ذبُل على عوده! كان ذلك في يوم سبت. وكان رؤساء الكنيسة الثلاثة حاضرين مع "شمعون" و"إليعازر". ونظروا جميعًا إلى يسوع ليروا إن كان قادرًا على شفائك في يوم الرب. وكنت تبكي من الذل على الأرض. وهل رفضك الحاخام؟ أرسلك للبحث عن جذر البرص؟ آه يا كلب، يا ابن الكلب! ولم يأبه الحاخام باتهامات الكنيس، ولم يسمع سوى صوت رحمته، فقال لك: "امدد

يدك!" ومس عليها فبرأت وعادت نضرة كنبات جاف سُقي من فيض السماء! عادت يدك قوية ثابتة، وأخذت تحرك إصبعًا تلو الآخر وأنت ترتجف وفي غاية الدهشة. وساد همس بين الحضور ابتهاجًا وإعجابًا بتلك المعجزة الحلوة.

وتعجَّب الزاهد، ويديه ترتجف في الهواء:

- هكذا كانت شفقة الحاخام! هل بسط لك طرف ردائه مثلما يفعل حاخامات أورشليم حتى تلقي له عملة فضية؟ لا، لقد أمر الحواريين بأن يعطوك ما يكفيك من العدس. وأطلقت ساقك للريح وقد برئت وملأك النشاط، وأخذت تصرخ فرحًا وأنت عائد لمنزلك: "يا أمي، يا أمي، لقد شفيت!". أنت، يا خنزير وابن الخنزير، أنت طالبت منذ قليل بصلب الحاخام أمام الحاكم، وناديت بنجاة "باراباس"! لا تنكر أيها الفم القذر. لقد سمعتُك، كنتُ وراءك وشهدت انتفاخ عنقك بغضب الجحود وأنت تصرخ!

صاح البعض: "اللعنة! اللعنة!"، وأمسك رجل مسن بحجرين استعدادًا لقذفه بهما. ورجل كفر ناحوم، جلس منطويًا على نفسه.. مهزومًا، وما زال يتمتم دون توقف:

- لم يكن أنا، لم يكن أنا.. أنا من الرامة!

وأمسكه "جاد" وهو غاضب من لحيته:

- في هذه الذراع، عندما وضعتها أمام الحاخام، رؤوا جميعًا ندبتين غائرتين، وكأنه جرح بالسكين! وسوف ترينا إيَّاهما الآن، يا كلب، يا ابن الكلب!

ثم مزَّق كم ثوبه الجديد؛ وسحبه ودار به، ممسكًا به بيديه البرونزيتين. كانت الندبتان ظاهرتين بوضوح تحت الشعر الأصفر. وطرحه في ازدراء بين الناس، الذين هالوا عليه تراب الطريق، وطاردوه بالسباب والحجارة. اقتربنا من "جاد" مبتسمين.. نمتدح إخلاصه ليسوع. كان قد هدأ، ومد يده إلى بائع

الماء، الذي غسلها بسرسوب طويل من الماء من قربته الجلدية؛ ثم مسحها بقماشة من الكتان معلقة في حزامه:

- اسمعا! إن "يوسف الرامي" طالب بجسد الحاخام. وقد وافق الحاكم الروماني على هذا.. انتظراني في تمام الساعة التاسعة في باحة "جمالائيل".. إلى أين ستذهبان الآن؟

اعترف "توبسيوس" بأننا ذاهبان إلى المعبد، لأسباب فكرية وفنية، تخص علم الآثار. وهمس الرجل المثالي المزهو:

- من يُعجَب بالحجارة فهو شخص فارغ!

قالها ثم توارى، وهو يسحب غطاء رأسه على وجهه، بين دعوات الناس الذين يؤمنون بالزهاد ويحبونهم. ولكي نختصر الطريق الوعر إلى المعبد؛ سرنا عبر وادي "تيروبي" وجسر "حجر الشست"، وأخذنا اثنين من الحمَّالات - التي كان يؤجرها رجل حرره "البنطي" حديثًا، وحملونا عليهما بجانب الحاكم كعادة الرومان في شوارع روما.

ولما كنت أشعر بالتعب، تمددت على فراش من الأوراق الجافة التي تفوح منها رائحة الآس ثم وضعت يدي على رأسي. بدأ قلق غريب وخوف يتسلل ببطء إلى روحي. كان الخوف قد بدأ يتملكني عندما كنت في قاعة المحكمة، فجعلني كطائر مرتعش من الرعب، فهل سأبقى إلى الأبد في هذه المدينة اليهودية القوية؟ هل سأفقد هويتي الفردية كـ"رابوزو"، الكاثوليكي، الحاصل على الليسانس، والمعاصر لصحيفة التايمز، ومصابيح الغاز، والذي أصبح رجلًا غريبًا في العصور القديمة، من زمرة "تيبيريوس"؟ وهل إذا ما رجع بي الزمان بهذا الشكل العجيب، وعدت إلى موطني فماذا سأجد على ضفاف نهر "التاج" الصافي؟ بالتأكيد سأجد مستعمرة رومانية على منحدرات أروع تلة، ومبنى

حجريًّا حيث يعيش نائب القنصل الروماني؛ بجانب معبد صغير لأبولو أو المريخ، مغطى بألواح حجرية منقوشة. وفوق التل، سأرى حقولًا محروثة ومخططة حيث سيجد الجنود الرومان؛ وحول القرية البرتغالية، تجد الأكواخ المتناثرة والمبنية من الأحجار المرصوصة، وفي وسطها طرق برية، والرعاة يجمعون الماشية، والمراكب الشراعية راسية في الوحل وهي مروبطة في الأوتاد.. هكذا سأجد موطني. وماذا سأفعل هناك، وأنا مسكين، وحيد؟ هل سأكون راعيًا في الجبال؟ هل سأقوم بمسح سلالم المعبد، أو سأجمع الخشب وأجهزه للقصر كي أحصل على راتب شهري من روما هذا بؤس لا مثيل له! لكن إذا بقيت في القدس؟ ما المهنة التي سأتخذها في هذه المدينة الآمنة الآسيوية المقدسة؟ هل سأعتنق اليهودية، وأصلي صلاتهم، وأحترم يوم السبت، وأعطِّر لحيتي بالطيب، وأذهب لأسترخي في أروقة الهيكل، وأتبع تعليمات الراهب، وأقضي فترة ما بعد الظهر ومعي عصا ذهبية، في حدائق "جريب" بين مقابر اليهود؟ بدت لي الحياة في هذا المكان مرعبة أيضًا.. لا! هل سأصبح سجينًا في العالم القديم مع العالم "توبسيوس"، إذًا يجب علينا أن نعثر على يوسف في الليلة نفسها عندما يعلو القمر. ومن هناك نعبر البحر في أي مركب فينيقي يمر على إيطاليا. فننزل ونسكن روما.. حتى ولو كنا سنسكن في زقاق مظلم حتى ولو كان أحد الأزقة المظلمة في منطقة "فيلابرو"، في واحد من تلك الميادين التي بها مائتا سلمة تتسلقها كي تصل لبيتك وتمر على الأكواخ ذات الشبابيك التي تفوح منها رائحة عفنة من الثوم والأمعاء المطهية، والتي نادرًا ما تمضي عليها شهران دون أن تنهار أو يشب بها حريق.

كنت مستغرقًا هكذا عندما توقف الحمّال. فُتحت الستائر، ورأيت أمامي حجر الصوان الخارجي لجدار المعبد. واخترقنا تحت قبو بوابة "خلدة"؛ وكنا نستريح بينما كان حراس المعبد يطردون راعيًا عنيدًا، وغير مهذب بالعصي

المسلحة بالمسامير لأنه يريد عبور الحرم. أمَّا الضجيج المدوّي الذي جاء بعيدًا من الأروقة فأخافني بالفعل؛ تمامًا كما تخيفني الغابة أو البحر الهائج. عندما خرجنا أخيرًا من القبو الضيق، أمسكتُ بذراع مؤرخ "آل هيرودس" النحيفة في أثناء مرورنا وسط الأجواء التي أخذت بلباب عقلي وأنا مشدوه والرعب يملؤني! كان بريق الثلج والذهب يتلألأ بغزارة في الهواء الذي يدعو للكسل، ويخترقني ضوء الرخام الناصع بشعاعه، والجرانيت المصقول، والزخارف الثمينة التي تغمرها شمس شهر أبريل المباركة. وأصبحتْ أرضية الباحات الخالية التي رأيتها في الصباح، ساكنة مثل مياه البحيرة الراكدة، تختفي الآن تحت أرجل الناس الذين ملؤوها بالأنس والاحتفال. وانتشرت الروائح؛ حادة وحامضة، منبعثة من المفروشات المصبوغة، وصمغ الراتنج العطرية، وحرق الدهون على النار. وعلاوة على الضوضاء الكثيفة كنا نسمع خوار الثيران. وكانت الأبخرة تتصاعد باستمرار إلى عنان السماء. همستُ في دهشة:

- يا إلهي! هذه أبهة لا نهاية لها!

دخلنا إلى أروقة "سليمان"، حيث أذهلني الصخب كما لو كنا في سوق. فهؤلاء صيارفة جلسوا خلف صناديق سميكة يطوون أرجلهم أسفلهم ويضعون عملات ذهبية في آذانهم. كانوا يغيرون مال الكهنوت للمعبد بالقطع النقدية الوثنية من جميع البلاد، وجميع العصور؛ من العملات المصقولة لعصر "لاتسيو" القديم والأثقل من الدروع في وزنها، وحتى قطع القرميد المنقوشة التي يتم تداولها كأوراق مالية في أعياد "آشور".

في المقدمة، تلألأت حبات الرمان بنضارة ووفرة بستان ساطع؛ وهي مشققة بعدما نضجت على شجرها، وخرج حبها من قشرتها. وجلس أصحاب البساتين يعلقون فروعًا من اللوز على رؤوسهم وينادون على أكاليل الزهور أو أعشاب عيد الفصح المريرة؛ كما وُضعت أمامهم جرّات من الحليب النقي على أجولة

العدس. والحملان، ملقاة على الأرض، مقيدة من أرجلها إلى الأعمدة.. أخذت تموء حزينة من العطش. لكن، الجموع تزاحمت وتنهدت من جشع التجار، خاصة حول الأقمشة والجواهر. كان التجار من المستعمرات الفينيقية ومن الجزر اليونانية، وبلاد ما بين النهرين، و"تَدْمُر". باع بعضهم معاطف صوفية مطرزة رائعة، والبعض الآخر باع معاطف من الجلد الخام المنقوش، وأخذوا يفردون أقمشة عليها صور زرقاء تحاكي وَهَج سماء الشرق الحامي، وحرير سبأ المثير الشفاف الأخضر والذي يطير في النسيم، وهذه المفروشات البديعة من بابل التي كنت أهيمُ بها دومًا: سوداء منقوشة بزهور كبيرة حمراء بلون الدم.. وبداخل صناديق خشب الأرز، المفروشة على سجاد غلاطية بوسط الأناضول لمعت المرايا الفضية على شكل القمر وشعاعه، والأختام المصنوعة من الأحجار الكريمة والتي يستخدمها العبرانيون كميدالية على الصدور، ومجوهرات عبارة عن عقود من الأحجار وقرون الظباء، وأطواق من الملح الصخري التي يتزين بها العروسان؛ وتعويذات وتمائم بدت لي صبيانية، كانت محفوظة كالجواهر، عبارة عن قطع من جذور، وصخور سوداء، وقطع من الجلد المنقوش، وعظام نُقشت عليها الحروف.

كان "توبسيوس" ما زال واقفًا بين حوانيت العطور، يتأمل عصا رائعة من جزيرة "تيلوس". كانت مصنوعة من الخشب النادر المرقش مثل جلد النمر، ولكن سرعان ما فررنا من رائحة حريق كادت تخنقنا هناك، من حريق صمغ الراتنج العضوي، والصمغ من بلاد أفريقيا، ومن خليط ريش النعام والمر من نهر "العاصي"، وشموع "برقة"، وزيوت "سيسكو" العطرية، وأغطية كبيرة من جلد كامل لفرس النهر مليء بالبنفسج المجفف وأوراق الأمارو العطرية. ودخلنا بعد ذلك إلى الرواق الذي أطلق عليه اسم "الرواق الملكي"، والذي خُصِص بالكامل للعقيدة والشريعة. هناك، في كل يوم، تعلو الأصوات بالخلافات في

وجهـات النظـر بـين طبقـة "الصـدوقيين" الأرسـتقراطية، والكتبـة، و"الصـفوريين"، و"الفريسيين"، وأتباع "اسكيمايا"، وأتباع "هليل"، والقضاة، والنحاة، والمتعصبين من كل أرض يهود. وبجانب الأعمدة الرخاميـة اتخـذ العلـماء مقاعـدهم عـلى كـراسي عاليـة، وبجانبهم أطباق معدنية لتلقي الصدقات من المؤمنين. ومـن حـولهم، جلـس الطلاب من الشباب والعجائز متربعين على الأرض ومعلقين أحذيتهم حول أعناقهم، ودفـاترهم مفرودة على أرجلهم تمتلئ بأحرف حمراء، ويهمسون بالمقرر وهم يتمايلون ببطء.

وهنا وهناك، في وسط المتعبدين المنهمكين، كان اثنان من العلماء يتنازعـان، وقـد انتفخت أوداجهما، على نقاط خلافية من العقيدة. "هل يمكن أن تؤكل بيضة دجاجـة بيضت يوم السبت؟"، و"لماذا يبدأ البعث بعظمة العمود الفقري في القيامة؟"، وضحك الفيلسوف "توبسـيوس"، متخفيًـا في ثنايـا عباءتـه؛ لكنـي كنـت ارتجـف عنـدما هـدد العالمـان النحيفـان ذوا اللحـى الطويلـة بعضـهما بعضًـا وأخـذا يتصـايحان: "أحمـق! أحمق!"، ويدسان أيديهما في جيد ردائهما، باحثين عن أسلحة مخفية. وفي كل مرة نمـر فيها بالـ"فريسـيين" الطنـانين الفـارغين كـما الطبـول، والـذين يـأتون إلى أرض الهيكـل ليتظاهرون بتقواهم؛ نجد البعض يميلون مطأطئين رؤوسهم من عظم الذنب الإنساني؛ وآخرين، يتعثرون ويتحسسون الهواء مغمضي الأعين، حتى لا يرون قـدود النسـاء غـير الطاهرة؛ والبعض ملثمين باللون الرمادي، يئنـون، ويضـغطون بأيـديهم عـلى بطـونهم كـدليل عــلى صـيامهم القــاسي! ثــم أراني "توبسـيوس" حاخامًــا مــفسرًا للأحــلام. وهو ساحر مفعم بالحيوية، تتوهج عيناه العميقتـان بحـزن مصـابيح القبـور. وجلـس عــلى أكيــاس مــن الصــوف، يغطــي كــل مــؤمن جــاء يجثــو راكعًــا عــلى قدميــه العاريتين، بطرف عباءة سوداء واسعة رُسمت عليها علامات بيضاء. ودفعنـي الفضـول إلى استشارته، ولكن، فجأة تـرددت صرخـات اسـتغاثة في القاعـة. فلـما ركضـنا ناحيـة

الصوت وجدنا اللاويين، ومعهم الحبال والعصي، يعـاقبون بشراسـة رجـلًا أبـرص دخـل ساحة إسرائيل على غير طهارة. وتطاير الدم عـلى الـبلاط. وكـان الأطفـال مـن حـولهم يضحكون. وكانت وقت ساعة اليهود السادسة قد حـان، وهـي السـاعة الأكـثر مرضـاة للرب، عندما تتجه الشمس في مسيرتها إلى البحر، وتتوقف على مدينة القـدس تتأملهـا في حنان. وحتى نقترب من "محكمة إسرائيل"، أخـذنا نشـق الصـفوف بشـق الأنفـس، وكانوا يطوفون هناك قادمين مـن كـل حـدب وصـوب سـواء مـن الباديـة أو الـحضر.. واختلط جلد التنورة الخشن الذي يلبسه حجاج من "أودمية" مـع عبـاءات اليونـانيين القصيرة المربوطة فوق الكتف، والذين جاءوا حليقي الوجه وأشـد بياضًـا مـن الرخـام. وكان هناك رجال مهيبون من سهل "بابل". وكانوا يضعون لحاهم داخل أكياس زرقـاء، ويعلقون قبعاتهم المثلثة المصنوعة من الجلد المصبوغ بسلسلة من الفضـة. كـما كـان هناك أناس شُقر من "الغال" وهـم الفرنسـيون الآن، وشـواربهم مفتولـة مثـل عشـب بحيراتهم. كانوا يضحكون ويتغامزون وهم يلتهمون قشر الليمون السـوري الحلـو. وفي بعض الأحيان كان يمر روماني في عباءته المميزة، وتبدو عليه علامات الجد كما لـو كـان نزل لتوه من فوق قاعدة تمثال. ورأينا أناس من شعب منطقـة "داقيـة" بشرق أوروبـا وشعب منطقة "ميسيا" الواقعة بالشمال الغربي لجزيرة الأناضول، الذين يربطون سيقانهم بضمادات من الصوف، ويتعثرون في أثناء مشيهم مبهورين بروعة الرخام الناصع. ولم يكن وجودي، أنا "تيوديريكو رابوزو"، أقل غرابة عنهم، وأنا أمشي مرتـديًا حـذاء ركـوب الخيـل خلف كاهن ضخم من "المولوكيين". كان يبدو شهوانيًا في عباءته الأرجوانيـة. سـار وسـط حشد من تجار بلدة "صرفند" الفلسطينية، وعلى وجهه نظرة ازدراء لهذا المعبد الـذي لا صور فيه ولا تماثيل ولا بساتين. كان المكان أكثر ضجيجًا من سوق فينيقـي.. وهكـذا وصـلنا بشـق الأنفـس إلى البوابـة التـي تسـمى "البهيـة"، والتـي تـفضي إلى الـرواق

المقدس لإسرائيل. كانت بوابة بهية حقًّا، وتبدو عليه علامات الثراء والمجد. وقفت البوابة من فوق أربع عشرة درجة من رخام نوميديا الأخضر، المرقش بالأصفر. كان مصراعا الباب كبيرين ومغطيين برقائق الفضة ويلمعان كغطاء وعاء الذخائر المقدسة، أمَّا حلق الباب فكان يشبه زعفتي نخيل كثيفتي الأوراق، ويتكئ عليه برج أبيض مستدير، ومحاط بدروع استولى عليها اليهود من أعدائهم، تلمع في ضوء الشمس كقلادة للمجد على رقبة بطل قوي! ولكن أمام هذا الباب الرائع ارتفع عمود تعلوه لوحة سوداء مكتوبة بحروف من الذهب، وفيها كُتب هذا التهديد باليونانية واللاتينية والآرامية والكلدانية، ويقول: "لا يُسمح بدخول الأجانب، الدخول يعرضك لعقوبة الإعدام"! ولحسن الحظ رأينا "جمالائيل" النحيل، الذي كان يسير متجهًا إلى الفناء المقدس، حافي القدمين، ويحمل بين ذراعيه حزمة من سنابل النذور. وبصحبته رجل ناعم وباسم الثغر، وجهه بلون الخشخاش، ويرتدي طاقية مثلثة، وسوداء، وضخمة من الصوف، ومزينة بخيوط بلون المرجان. انحنينا مرحبين بعالم الشريعة المتقشف. فتمتم على الفور، وجفونه مغلقة:

- مرحبًا بكما.. هذا هو أفضل وقت لاستقبال نعم الرب، الذي يقول: "اخرجوا من مساكنكم، وتعالوا إليَّ حاملين بشائر الفاكهة، وسوف أبارك لكم في كل عمل تعمله أيديكم..." أنتما تنتميان الآن بأعجوبة إلى شعب إسرائيل. اصعدا إلى بيت الرب. هذا الرجل الذي بصحبتي هو "إليعازر" من بلدة "سلواد"، وهو حكيم وعليم بكل ما في الطبيعة.

أعطانا سنبلتين من القمح. وسرنا خلفه نطأ بنعالنا المميزة، المكان المنيع من حرم يهوه.

وسألني "إليعازر"، وأنا أسير بجواره، بأدب ولطف، عن بلدي وهل هي بعيدة وهل طريق الوصول إليها محفوف بالمخاطر؛ فأجبته همسًا وأنا متردد:

- نعم.. جئنا من "أريحا".

- جيد، ما أخبار حصاد البيلسان؟

- وفير!

قاطعته بحرارة، وأكملت:

- الحمد لله، فقد حلت علينا بركته هذا العام وحصدنا حصادًا وفيرًا!

بدا مبتهجًا، وصارحني بأنه كان من الأطباء المقيمين في المعبد؛ إذ إن الكهنة والحجَّاج يعانون بشكل دائم "الاضطرابات المعوية"، بسبب سيرهم حفاة ومتعرقين على ألواح الرخام الباردة للهيكل. همس لي ووجهه متهلل:

- لهذا السبب يدعونا الناس في "صهيون" بأطباء الأمعاء!

لم أستطع التوقف عن الضحك لشدة إعجابي بهذه المزحة الطريفة في بيت الرب المتقشف، ثم تذكرت مشكلاتي المعوية في "أريحا"، لفرط محبتي لثمار البطيخ السورية اللذيذة والمغرية، وسألت الطبيب الظريف عمَّا إذا كان يوصي في هذه الحالات بتناول "البزموت". لوَّح الرجل المهيب بحذر بطاقيته المنتفخة. وبعد ذلك، رفع إصبعًا في الهواء، وخصني بهذه الوصفة التي لا تضاهى:

- خذ صمغًا سكندريًا، وزعفران البستان، وبصلة من بلاد فارس، ونبيذًا أسود من حماة..

- اخلطها ثم اغلها، ودعها تبرد في إناء من الفضة، ثم قم بوضعها عند مفترق طرق عند شروق الشمس.

لكنه صمت فجأة، وذراعاه ممدودتان، ووجهه في الأرض. فقد وصلنا لفناء الكنيس الرائع، والمسمى "فناء النساء". وفي تلك اللحظة، انتهى الوقت الذي يأتي فيه الكاهن في الساعة السادسة ليبارك المكان من أعلى باب "نيكانور".

كان الباب ضخمًا ومن البرونز، واستطعنا من خلال فتحاته أن نرى الجواهر، والألماس، وأحجار المعبد الكريمة، تتلألأ في سلام. وعلى السلالم الواسعة، الأكثر لمعانًا من المرمر، انتشر في المكان جماعتان من اللاويين، يركعون بملابسهم البيضاء؛ بعضهم يمسك بوقًا معقوفًا، والبعض الآخر يداعب بأصابعه أوتار قيثارة مكتومة. ومن بين هذه الأمواج من الرجال الساجدين، هبط رجل عجوز جدًّا ونحيل درجات السلم، ومعه مبخرة من الذهب في يده.. كان يلبس سترة ضيقة، وأطرافها مطرزة بحبات الزمرد، وكانت مرصوصة بشكل أنيق. وكانت قدمه الحافية مخضبة بالحناء فبدت كالمرجان. وفي منتصف الحزام الذي يلف خاصرته النحيلة تلألأ قرص شمس كبير، مطرز بالذهب. كان المؤمنون راكعين، في هدوء من دون همس، وكادوا يلمسون البلاط برؤوسهم التي غطتها طواقي العباءات أو النقاب. كانت ألوانها احتفالية، ويسيطر عليها لون شقائق النعمان الحمراء وأشجار التين الخضراء، وصار الفناء مثل بستَّان مليء بالزهور وأوراق الشجر، في صباح مشرق بالانتصارات مثل أيام النبي سليمان! ورفع الرجل العجوز لحيته المدببة إلى السماء، وأطلق البخور ناحية الشرق حيث الصحراء، ثم ناحية الغرب حيث البحار. وكان الجمع شديد الانفعال إلى درجة أننا كنا نسمع صوت خوار الثيران من أعماق الحرم. ونزل سلمة أخرى ورفع العمامة المرصعة بالمجوهرات، وألقى بالمبخرة التي تألقت في ضوء الشمس ودخان البخور الأبيض يتصاعد منها دائريًّا ومعطرًا ورقيقًا، وينشر فوق بني إسرائيل بركة الرب القوي.

وعزف اللاَّوِيُّونَ على أوتار قيثاراتهم، وعلى الأبواق المنحنية التي أصدرت أصواتًا نحاسية. ووقف الشعب بأكمله، رافعين أيديهم للسماء ومرددين مزمورًا يمجِّد أبدية يهوه.. وفجأة توقفوا جميعهم؛ واجتمع اللاويون فوق الدرج الرخامي دون صوت من أقدامهم الحافية. وكان "جملائيل" وصاحبه

"إليعازر" قد اختفيا تحت بوائك الأعمدة. وكانت ساحة الفناء من حولنا ساطعة ومليئة بالنساء وأحجار المرمر اللامعة التي تبطن الجدران مصقولة كالمرايا. وقف "توبسيوس" أمامها يصلح هندامه؛ وكانت كل ثمار آسيا وزهور بساتينها تتشابك في أعمال فنية من الفضة، مرسومة على أبواب غرف الطقوس حيث الزيوت العطرية تنساب، تطهِّر الأخشاب، وتبرئ من يعاني الجذام. وبين الأعمدة عُلِّقت الأكاليل، وسلاسل سميكة من اللؤلؤ، ومسابح العقيق، وبدت متزاحمة وأكثر عددًا من تلك التي تزيِّن صدر العروس؛ وحصَّالات النقود البرونزية التي تشبه أبواق الحرب الضخمة والتي كانت تتكئ على الأرض، وكانت النقوش الدائرية اللامعة التي تطلب التبرعات مطعَّمة بالذهب، وخفيفة الظل كأبيات قصيدة شعر من قبيل: "أحرِقوا البخور وسنبل الطيب، وقرِّبوا الحمائم والقمريات...". لكن، باحة الكنيس المقدس أشرقت بالنساء؛ وسرعان ما تركت عيناي المعادن والمرمر كي تتعلق بهذه النسوة من بنات القدس، المملوءات بالنعمة، والسمراوات مثل الخيام المصنوعة من شجر الأرز! كانت كلهن حاسرات الوجه في المعبد، أو يلبسن مجرد حجاب رقيق من الشاش الخفيف خفَّة الهواء وفق موضة الرومانيات، وهو مثبت في العمامة، ويتدلى على الجانبين فيضفي على البشرة ضياءً تقطعه العيون السوداء اللامعة، والتي يزيد من وسعها الرموش الكثيفة، ويزيدها طولًا الكحل القادم من قبرص.

كانت كميات الجواهر والأحجار تحيطهن بسحر فتَّان. وكانت النعال المزينة بالحلي والميداليات الصغيرة تعزف على البلاط لحنًا رنانًا، وكانت النغمة المتناسقة لحركاتهم المتموجة خطيرة وعظيمة. وكانت ملابسهم المصنوعة من أقطان مدينة "غلاطية" وهي إمارة رومانية واقعة في تركيا، والكتَّان الناعم ذي الألوان المبهجة، وتعطرها روائح العنبر النفَّاذة، والقرفة، وتملأ الهواء بالروائح الزكية وأرواح الرجال بالنعومة. أمَّا أغناهن فكن يمشين في هيبة وسط

الجواري اللواتي يرتدين القماش الأصفر، ويحملن لهن الشمسيات المصنوعة من ريش الطاووس، واللفافات المقدسة المكتوب فيها نصوص الشريعة، وأكياس التمر الحلو، والمرايا الفضية الخفيفة. أمَّا أشدهن فقرًا، فيلبسن قمصانًا بسيطة من القطن البسيط متعدد الألوان، ولا يلبسن من الحلي سوى تعويذة مرجانية خشنة. كنّ يجرين مثرثرات ويظهرن أذرعهن ورقابهن بلونها الذي يشبه نبات القطلب غير الناضج. كانت رغبتي فيهن جميعًا حائرة؛ مثل نحلة مترددة بين زهور مختلفة لكن كلها حلوة! همست لـ"توبسيوس" قائلًا:

- آه "توبسيوس"، يا "توبسيوس". يا لهن من نساء! ما هذه النساء! أكاد أنفجر، يا صديقي الداهية!

ويرد الحكيم، بازدراء، بأنهن لسن أكثر عقلًا من الطواويس. وأن أيًّا منهن لم تقرأ بالتأكيد يومًا لأرسطو أو لسوفوكليس! فأهز كتفيَّ. يا لروعة السماوات! لأعطينّ لأي من تلك النساء اللواتي لم يقرأن لسوفوكليس - لو كنت مكان قيصر - مدينة كاملة في إيطاليا وجزيرة "أيبيريا" كلها. كان عقلي يطير عندما أرى بعضهن بجمال عذراوات التفاني المتألم، اللواتي يعشن في ظلام مستمر في غرف من خشب الأرز وأجسامهن مشبعة بالعطور، والنفس مسحوقة بالصلاة. وتذهلني أخريات بروعة جمالهن القوي الريّان. يا لعيونهن الواسعة السوداء كعيون المعبودات! ويا لطراوة أطرافهن الرخوة الناعمة! ويا لترفهن الفتَّان! ويا لسحرهن عندما تتعرين، وتفردن شعورهن الكثيفة الطويلة على حافة فرشهن الوثيرة، ويكشفن الحجاب بعذوبة عن أجسامهن وملابسهن من قماش مدينة "غلاطية"! كان على "توبسيوس" أن يسحبني من عباءتي إلى أسفل الدرج على سلم "نيكانور". وكنت أتوقف عند كل سلّمة، ضاربًا بعيني النهمتين إلى الخلف، ألهث مثل ثور في شهر مايو على شط نهر خصيب.

- آه، يا بنات "صهيون"! لقد أخذتن بلباب عقلي!

وعند عودتي، وفي أثناء قيام الدكتور المؤرخ بسحبي، اصطدمت بكمامة حمل أبيض يسحبه رجل عجوز من قدمه وقد زُيِّنت رقبته بالورود. وأمامنا كان هناك درابزين طويل من خشب الأرز المشغول، حيث فتحت بوابة مشبكة من الفضة كلها، بمفصلات، تتحرك في صمت، متلألئة. قال العالم "توبسيوس":

- إنه هنا.. المكان الذي تُسقَى فيه المياه المُرّة للزوجات الزانيات. وهناك، سيد "رابوزو"، يتعبد بنو إسرائيل.

كانت تلك هي باحة الكهنة! وارتجفتُ أمام هذا المكان المقدَّس، الذي كان أكثر الأماكن رهبة وإبهارًا. في وسط المكان الواسع الفسيح، ارتفع مذبح "المحرقة" المبني من الأحجار السوداء الضخمة. وثُبِّت بأركانه أربعة قرون نحاسية؛ وعلِّق في أحدها أكاليل من الزنابق، وفي الثاني سلاسل من المرجان، وكان الآخر يقطر دمًا. وارتفع من المصلى الهائل للمذبح دخَّان ضارب الى الحمرة وبطيء. ومن حوله كان المُضحّون، حفاة القدمين، يلبسون البياض، ويمسكون بأيديهم الشاحبة مذراة من البرونز، وأسياخًا فضية، وسكاكين مُعلَّقة في أحزمة بلون السماء.. وفي وسط تلك الضوضاء التي انشغل فيها الجميع بالاحتفال المقدَّس، واختلط مواء الخرفان، بصوت الأطباق الفضية، وبصوت طقطقة الخشب في النار، وبضربات المطارق الصماء، وبخرير المياه البطيء في أحواض الرخام، وصرير الأبواق. وعلى الرغم من البخور المحروق في وعاءٍ من الخزف يُهَوِّي عليه الخدم بمراوح طويلة من سعف النخيل، فإنني وضعتُ وشاحًا على وجهي، لما تقززت من هذه الرائحة الناعمة للحوم النيئة، والدم، والدهون المقلية والزعفران، والتي طلبها الرب من موسى، كأفضل قربان يصعد إليه من الأرض.. وفي الخلفية، تُزيَّن الثيران بالزهور، والعجول البيضاء ذات القرون المذهبة، يهتزون، ويئنون، وينطحون، وتربطهم الحبال بحلقات برونزية قوية. وأبعد من ذلك، على طاولات الرخام، وبين قطع من الثلج،

وُضعت قطع من اللحـم الضـخمة الحمـراء المخضـبة بالـدماء، وقـف اللاويـون عليهـا يهشُّون بمراوح من الريش كي يطردون الذباب.

وتدلَّى من الأعمدة المتوجة بكرات من الكريستال المتلألئ حملان مذبوحـة، والتـي تحميها مآزر جلدية مغطاة بنصوص مقدسة، مع سكاكين كبيرة من الفضة. في حـين أن المضحين يلبسون السترات الزرقاء وتمتد أذرعهم، حـاملين دلاء مملـوءة بالمـاء، وراحـوا ينظفون المكان. أمَّا العبيد من "الأدوميين" فقد لبسـوا عـلى رؤوسـهم أطواقًـا معدنيـة مستديرة، وأخذوا ينظفون الأرضيات باستمرار بالإسفنج؛ والبعض يحملون أكوامًـا مـن الحطب. والبعض الآخر جاثمون ينفخون في مواقد حجرية.

وبين الحين والآخر، يمشي واحد من المضحين العجائز، حافي القدمين، ناحية المـذبح، ويحمل حمَلًا صغيرًا عـلى رقبتـه، لم يثغُ بعـد، مسرورًا ودافئًـا بـين ذراعيـه العـاريتين. يسبقه عازف القيثـارة، ومـن خلفـه يحمـل اللاويـون جـرار الزيـوت العطريـة. وأمـام المذبح، يقف ومن حوله المساعدون، فيرمي بحفنة من الملح عـلى الحمـل. ثـم يهتـف وهو يقطع بعضًا من الصوف من بين قرنيه. فتعزف الأبـواق، ويـتلاشى صراخ الحيـوان المذبوح وسط الشعائر المقدسـة؛ وترتفـع فـوق العمامـة البيضـاء يـدان تسـيل مـنهما الـدماء. ومـن مشـواة المـذبح، تتصـاعد شـعلة مـن الفـرح والقربـان تلهبهـا الزيـوت والشحوم، ويتصاعد منها بهدوء الدخَان الأحمر بطيئًا إلى عنـان السـماء، ويحمـل بـين طيَّاته الرائحة التي يطرُب لها الرب الخالد.

غمغمت في ذهول:

- إنه مجزر! إنه مجزر! يا دكتور "توبسيوس"، لنذهب إلى حيث النساء في الأسـفل مرة أخرى.

نظر الرجل الحكيم إلى الشمس. ثم، بكل جد، وضع يده الصديقة على كتفي، وقال:

- إنها الساعة التاسعة تقريبًا، سيد "رابوزو"! وعلينا أن نخرج من باب القضاء، إلى ما وراء جبل "جريب"، إلى مكان بري يدعى الـ"جُلجُلثة".

هززتُ رأسي، وبدا لي أنني لن أحصل على أي ميزة روحية لنفسي، ولن يتحصَّل صديقي على أي معرفة غير متوقعة يُثري بها علمه بذهابنا ورؤيتنا للمسيح فوق تلة ومن حوله نبات الخلنج وقد رُبِط في جذع شجرة وهو يتألم. كل ذلك ما هو إلا أذى لأحاسيسنا. ولكني رضختُ وتبعتُ صديقي الحكيم عن طريق درج المياه، والذي يؤدي إلى مكان فسيح مبلَّط بحجر البازلت حيث تبدأ أول منازل حي تل "أكرا" المحيط بالحرم، والذي يقطنه الكهنة، وبدا على البيوت التباهي بالاحتفال المقدَّس لعيد الفصح، فهذا سعف نخيل، وتلك مصابيح، ورايات القطيفة تتدلى من الأسطح. وكان البعض يلطِّخ عتبات الباب بالدم الطازج للخراف المذبوحة حديثًا.

وقبل أن ندخل إلى الشارع القذر المتعرِّج تحت المظلات القديمة، استدرتُ إلى المعبد. وساعتها فقط استطعت أن أرى الأسوار الجرانيتية الهائلة، المزودة بحصون على قمتها، شامخة تتحدى الزمن؛ حتى إن اغترارها بقوتها وخلودها ملأ قلبي بالغضب.

وبينما أقف على تلة الموت، المخصصة للعبيد، رأيتُ رجل "الجليل"، والصديق الذي لا يُضاهى للبشرية، وقد ثبطت همته على الصليب، وصمت للأبد ذلك الصوت النقي الذي يدعو للحب والروحانية، وعلى الجانب الآخر يقبع الهيكل الذي قتله، متألقًا ومنتصرًا، بثغاء ماشيته، وأموال الربا تحت أروقته، وأصوات المسفسطين، والدم على مذابحه، وإثم الغرور القاسي، وإزعاج بخوره الذي لا ينقطع.. عندها، ضغطت على أسناني، ولوحت بقبضتي إلى يهوه وقلعته، وصرخت:

- إلى الهلاك، جميعكم!

ولم أنبَّس ببنت شفة، كان حلقي جافًا حتى وصلنا إلى الباب الضيق في جدران "حزقيال"، والذي سمَّاه الرومان باب "القضاء". ثم ارتعدتُ، عندما رأيتُ صحيفة على عمود من الحجر كُتبت فيها ثلاثة أحكام: "حُكِم على لص من بيت بارا، وحُكِم على قاتل من "إيما"، وحُكِم على يسوع الجليلي!". وكان كاتب "السنهدريم" هناك - وفقًا للقانون - يحرس ويجمع أي شهادة تثبت براءة المحكوم عليهم، قبل أن يتم تنفيذ الحكم عليهم، ثم يغادر ومعه دفاتره تحت إبطه، وبعد أن يضع خطًا أحمر غليظًا تحت كل حكم تم تنفيذه في حالة لم يجد ما قد يبرئ المحكوم عليه. وهذا الحكم الأخير، بلون الدم - الذي أكده الكاتب بسرعة ثم ذهب سعيدًا إلى منزله حتى يأكل من لحم حمله - أحزنني أكثر من الحزن الكامن في الكتب المقدسة. كانت أسوار الصبّار تحد الطريق من الجانبين؛ وما وراء ذلك كانت التلال الخضراء حيث أحاطت البساتين الجدران المنخفضة من الحجر السائب، تغطيها الورود البرية. كان كل شيء هناك مشرقًا، واحتفاليًا وسلميًا.

وتحت ظلال أشجار التين وتحت أعمدة الكروم، تربعت النساء على السجاد، ينسجن الكتان أو يضفرن فروع الخزامى والمردقوش كي يبعنها في عيد الفصح. والأطفال حولهن، يلبسون في رقابهم التمائم المرجانية، ويقفزون على الحبال، ويرمون السهام. وعلى الطريق مرت قافلة من الجمال العربية البطيئة تحمل البضائع إلى "يافا". وخلفها رجلان قويان عائدان من رحلة صيد يلبسان أحذية حمراء عالية يغطيها الغبار، وجعبتاهما ترتطمان بأرجلهما كلما سارا، ويسحبان شبكة من خلفهما، وأذرعهما محملة بطيور الحجل، والنسور مربوطة من سيقانها.

ومشى أمامنا رجل عجوز مسكين له لحية طويلة يتكئ على كتف طفل كان يقوده، وقد ربط في وسطه - كما يفعل الشعراء - قيثارة يونانية لها خمسة أوتار، وعلى رأسه تاج من الغار.. وفي آخر جدار مغطى بأغصان اللوز، أمام بوابة مطلية باللون الأحمر، جلس اثنان من الخدم على جذع شجرة مقطوع، وعيناهما على الأرض وأياديهما على ركبتيهما. توقف "توبسيوس"، وسحبني من ردائي، وقال:

- هذا هو بستان "يوسف الرامي"، وهو صديق ليسوع، وعضو "السنهدريم"، روحه لا تهدأ، ويميل إلى الزهاد.. وهنا سوف يأتي "جاد".

ومن داخل البستان، نزل "جاد" بالفعل يجري عبر ممشى محاط بالآس والورود، ويمسك بقُجَّة من الكتان وسلة من الخوص معلقة في عصا. وتوقفنا، ونادى المؤرخ عليه بعد أن اجتاز الباب:

- أيها الحاخام.

فأعطى الزاهد القُجَّة لواحد من العبيد، أمَّا السلة فكانت مليئة بالمر والأعشاب العطرية؛ ووقف أمامنا للحظة مرتجفًا مخنوقًا ويضغط بيده بقوة على قلبه ليخفف من روعه.. تمتم أخيرًا:

- لقد عانى كثيرًا! تألَّم عندما اخترقت يديه المسامير.. وعلاوة على ذلك عندما رُفع عن الصليب.. ورفض في البداية نبيذ الرحمة، الذي كان من شأنه أن يُفقده الوعي؛ فالحاخام يريد أن يموت وروحه نقية ولكي يدعو! لكن "يوسف الرامي" و"نيقوديموس"، كانا هناك يراقبان. وأخذ كلاهما يذكّره بالأشياء التي وعد بها ذات ليلة في "بيثاني".. فأخذ يسوع الشعير من أيدي زوجة "روزموفيم"، وشرب.

وحدَّق الزاهد بعيون لامعة في "توبسيوس"، كما لو كان يستنبط من روحه توصية عليا، فتراجع خطوة وقال في جدية بطيئة:

- الليلة، بعد العشاء، على سطح جمالائيل.

ومرة أخرى اختفى في ممشى البستان العَطِر، بين نبات الآس وأغصان الورود. وترك "توبسيوس" طريق "يافا". وأسرع الخطو عبر طريق قفر، تشابكت فيه عباءتي الطويلة بالأشواك، وأوضح لي صديقي أن نبيذ الرحمة هو نوع قوي من الخمر من مدينة "طرطوس" السورية، مع عصير الخشخاش والتوابل التي تقدمها الأخوات في جمعية خيرية نسائية، لتخدير المحكوم عليهم؛ لكني بالكاد كنت أسمع ذلك الرجل غزير العلم. وفي أعلى تل خشن، مليء بالصخور ونبات الخلْنج، تراءى لنا جمعٌ غفيرٌ من الناس تحت السماء الزرقاء الصافية. وفي وسطهم، برزت ثلاثة أطراف غليظة من الخشب السميك، ومن حولها خوذات الفيلق المصقولة، تلمع في ضوء الشمس. فاضطربتُ، وألقيت بنفسي على حافة الطريق، على جرف أبيض شديد الحرارة.

ولكني رأيت "توبسيوس" يتقدم بهدوء الحكيم الذي يعتبر الموت تطهُّرًا وتحررًا من الأجساد البالية. لم أُرِدْ أن أظهر أقل قوة أو أقل روحانية منه، فخلعت عني العباءة التي كانت تعيقني، وتسلقت بشجاعة ذلك التل المخيف. فمن ناحية، كان تجويف وادي "هنوم" القفر الملتهب، ليس به عشبة واحدة، ولا مكان ظليل، تتناثر فيها العظام، والهياكل العظمية والرماد. كان التل مرتفعًا أمامنا، وبه بقع من نبات شوكي أسود، وأحجار مصقولة وبيضاء كالعظام. وحيثما وطئت أقدامنا كنَّا نخيف السحالي، فكانت تسرع لتختبئ في أطلال كوخ طيني. ورأيت شجرتين من اللوز، بدتا أكثر حزنًا من النباتات التي تنمو في المقابر، وامتدت فروعهما ضئيلة وخالية من الزهور. سمعنا كذلك أصوات الصراصير الحادة. وفي الظل الخافت، جلست أربع نساء حفاة،

شعثاوات الرأس، يبدو على ملابسهن المتواضعة علامات الحداد، كنّ يبكين كأنهن في جنازة.

كانت إحداهن تستند إلى سورٍ وتئنُ بلا توقف تحت طرف عباءة سوداء؛ أمَّا الأخرى؛ فكانت منهكة من البكاء.. راقدة على حجر، ورأسها بين ركبتيها، وقد تهدل شعرها الأشقر الرائع ووصل إلى الأرض. لكن الأخرتان كانتا مذهولتين، ووجهاهما ممتلئتان بالخربشات الدامية، تضربان بيأس على صدريهما، وتهيلان التراب على وجهيهما. ثم رفعتا أذرعهما العارية إلى السماء، وأخذتا تصرخان: "يا عزي، يا كنزي، يا شمسي!" وجاء كلب، يشمشم بين الأنقاض، ثم فتح حلقه، وأخذ ينبح بحزن أيضًا. شعرتُ بالأسى، فسحبت العالِم "توبسيوس" من ردائه وصعدنا إلى أعلى التل، حيث تزاحم عمَّال "جريب" يثرثرون، وخدم المعبد، والصرَّافون، وبعض من هؤلاء الكهنة البائسين في خرقهم البالية، ممن يعيشون على تحضير الأرواح وأموال الصدقات. ولما رآنا اثنان من الصيارفة، يضعان عملات ذهبية في آذانهما، ولاحظا العباءة البيضاء التي يرفل فيها "توبسيوس" ابتعدا وهما يهمسان بدعوات خانعة. وأوقفنا حبل من عشب الحلفاء، مثبتٌ على أوتاد في الأرض لحجب قمة التل عنَّا؛ وفي المكان الذي كنا فيه، كانت هناك شجرة زيتون قديمة تعلَّق بها غصنان، ودروع الجنود، ورداء أحمر. ثم، نظرت إلى أعلى بشوق.. نظرت إلى أعلى صليب، وقد ثُبِّتَ في شقٍ بين الصخور.

كان الحاخام يحتضر. وكان جسده هذه المرة حقيقيًّا ليس من العاج أو الفضة، كان مقوسًا، وحيًّا، ونابضًا، ومُوثقًا بقماش قديم عند وسطه ومسمَّرًا إلى عمود ضخم من الخشب، وقد وضعوا وتدًا بين فخذيه فملأني الرعب والذعر. كان الدم السائل منه على الخشب قد كسى يديه بالسواد بعدما تخثر حول المسامير. أمَّا قدمه فبالكاد لامست الأرض وقد احمرت من الألم، وهي

مربوطة بحبل غليظ. وتخضبت رأسه من جانب بسيل من الدماء، أمَّا الجانب الآخر فكان أكثر لمعانًا من الرخام، وهو يديرها من ناحية لأخرى بلطف. ومن خلف شعره المتشابك، الذي ملأه العرق، اختفت عينه، خاضعة وذابلة، وكأن نورها يختفي ويختفي معه كل الضياء وكل الآمال على الأرض... وكان قائد القوات، يقف دون عباءة، وذراعاه مطويتان، ويلبس درعًا على هيئة قشور السمك، ويجول بصرامة عند صليب الحاخام، وكان أحيانًا يرمق عمَّال المعبد بنظرة ثاقبة، وهم يضجون ويضحكون. أشار لي "توبسيوس" إلى الأمام مباشرة، بالقرب من الحبل، حيث وقف رجل اختفى وجهه الأصفر الحزين، بين خصل الشعر السوداء الطويلة التي تدلت على صدره. وكان يفتح ويطوي بفارغ الصبر لفافة مكتوبة، ويلقي بنظرة إلى الشمس مرة، أو يتحدث مرة أخرى إلى عبد بجانبه بصوت خفيض. همس المؤرخ العليم في أذني:

- إنه "يوسف الرامي".. هيَّا بنا إليه، نسمع منه ما نرغب في معرفته.

لكن في تلك اللحظة، خرج من بين الفرقة الدنيئة من خدَّام المعبد والكهنة البائسين الذين يعيشون على فتات الأضاحي، ضجيج عال كنعيق الغربان عندما تحلِّق عاليًا. رفع واحد من بينهم - ضخم الجثة، ورديء المنظر، ووجهه مُليء بالندبات من أثر طعنات السكين - ذراعيه صوب صليب الحاخام، وصرخ في صوت متأثر بشربه للنبيذ، وقال:

- أنت يا من تدَّعي القوة، يا من كنت تريد تدمير المعبد وأسواره، لماذا لا تكسر على الأقل عصا ذلك الصليب؟

وانفجر مَنْ حوله ضاحكين ومستهزئين. ومد آخرُ يديه إلى صدر الحاخام المحني، وقال بسخرية لا نهائية:

- يا وريث داوود، يا أميري، ما رأيك في هذا العرش؟ يا ابن الرب! ادع والدك! لنرى ما إذا كان سيأتي لينقذك!

وارتجف رجل عجوز نحيل بجانبي، وأخذ يهز لحيته ويشدها وهو يتكئ على عصاه.

كان بعض البلهاء من الباعة الجائلين يلتقطون الطوب ويبصقون عليه ثم يقذفون به الحاخام، حتى قذف أحدهم بحجر اصطدم بخشب الصليب فأصدر صوتًا عاليًا؛ فهرول ناحيتهم قائد المئة، ساخطًا. وقد رفع نصل سيفه العريض في الهواء. فتراجع الجمع مهزومين، بينما أخذ البعض الآخر يلفون أصابعهم بضمادات لما سال منها الدم من كثرة القذف.

اقتربنا من "يوسف الرامي". ولكن الرجل هز رأسه رافضًا بطريقة فجة ليهرب من ملاحقة المؤرخ غير المناسبة. ولما اندهشنا من خشونته، وقفنا إلى جوار شجرة زيتون جافة، أمام الصلبان الأخرى.

وأفاق المحكوم عليهما الآخران من أول إغماءة لما هب نسيم العصر البارد. كان أحدهما رجلًا ضخمًا، ومشعرًا، ذا عينين منتفختين. يميل بصدره إلى الأمام، ويلتقط أنفاسه في حدة كما لو كان يحاول في يأسٍ أن يحرر نفسه من الصليب. كان يصرخ دون توقف، مرعوبًا. كان دمه يقطر قطرات بطيئة من أقدامه السوداء، ومن يديه المسمرتين. وكان وحيدًا، لم يتعاطف أحد معه أو يرق لحاله، كذئب جريح يعوي ويموت في مستنقع. أمَّا الآخر، فكان نحيفًا أشقر تعلَّق دون أنين، مثل جذع نبات مكسور. وأمامه وقفت امرأة، هزيلة تلبس خرقة بالية، تمر برجليها كي تعبر الحبل بين الحين والحين، وتمتد يدها بطفل عارٍ بين ذراعيها، وهي تبكي، وتصرخ بصوت مجروح: "انظر إليه، ما زلت تستطيع أن تفعل هذا!" ولم يحرك الرجل جفنيه. وجاء رجل أسود، كان يحزم أدوات الصلب، ودفعها بلطف. فكتمت صوتها، وضغطت على ابنها

بشدة، حتى لا يحمله هو أيضًا. كانت أسنانها تصطك وجسمها كله يرتجف. وكان الطفل الصغير يبحث عن الحضن الرقيق بين الخرق.

جلس بعض الجنود على الأرض يفتشون ملابس المحكوم عليهم. والبعض الآخر، يعلقون خوذاتهم في أذرعهم، ويمسحون عرقهم، أو يرشفون شراب "البوسكا" (ماء مخلوط بالخل) ببطء من طاسات حديدية. وفي الأسفل، على تراب الطريق، تحت أشعة الشمس اللطيفة، مرّ الناس بسلام عائدين من الحقول والبساتين. مر رجل مسن يسوق بقراته ناحية باب "جنة"، ومرت نساء يغنين ويحملن الحطب؛ وفارس يركض، ملفوف برداء أبيض.

في بعض الأحيان، كان أولئك الذين يعبرون الطريق أو يعودون من بساتين "جريب" كلما مروا على الصلبان الثلاثة المرتفعة غطوا أنفسهم بثيابهم، وصعدوا التل المرتفع ومروا من بين نباتات الخلنج. وكان الاسم الذي وُضع على صليب الحاخام، المكتوب باليونانية واللاتينية، مثير للدهشة. وهو: "ملك اليهود". فيتعجب الناس: "من كان هذا؟"، وجاء اثنان من الشباب من نبلاء "الصدوقيين"، يلبسان أقراط اللؤلؤ فى آذانها، وعباءاتهما مطرزة بالذهب، وسألا قائد الجند في دهشة: "لماذا كتب الحاكم على الصليب "ملك اليهود"؟ هل ذلك الرجل المصلوب هو القيصر "كايوس تيبيريوس"؟ فلم نعرف لـ"يهودية" ملك سوى "تيبيريوس"! إذا كان الحاكم يريد الإساءة لإسرائيل! فهو في الحقيقة لم يسِء إلا لقيصر!".

كان قائد القوّات غير مكترث بهما، وأخذ يتكلّم مع اثنين من الجنود اللذين كانا يفتشان على الأرض في قضبان حديدية سميكة. وجاءت امرأة بصحبة "الصدوقيين"، كانت فتاة صغيرة رومانية سمراء تلبس شرائط أرجوانية في شعرها الذي أهالت عليه مسحوقًا أزرق، وأخذت تتأمل الحاخام بلطف، وهي

تشم زجاجة عطرها، وترثي هذا الشاب بالتأكيد، ذلـك الملـك المهـزوم، الملـك البربـري، الذي صُلب في مكان العبيد.

عندما أحسستُ بالتعب، ذهبتُ لأجلس مع "توبسـيوس" عـلى صـخرة مـا. كانـت الساعة الثامنة اليهودية قد قاربت. والشمس هادئة كبطل أصابته الشيخوخة، وتغرب ناحية البحر فوق أشجار النخيل في "بيثـاني". وأمامنـا، كانـت حقـول جريـب الـخضراء تملؤها الحدائق. وبالقرب من الجدران، في حي "بيزيتا" الجديد، كانت قطع كبيرة مـن الأقمشة الحمراء والزرقاء قد عُلِّقت على الحبال كي تجف عند أبواب محلات الصباغة. وكانت النيران تلتهب في أعماق المسبك؛ والأطفال يركضون ويلعبون على حافة بركة.

وإلى الأمام، في الجزء العلوي من "برج الفروسية"، الذي امتدت ظلالـه فـوق وادي "هنوم"، والجنود يقفون على الحواجز الحديدية ويصوبون سـهامهم إلى النسـور التـي تحلق في الفضاء. ومن خلفهم، بين البساتين، ارتفعـت شرفـات قصر "هـيرودس" رطبـة ومنتعشة ووردية في وقت العصر. جلسـتُ حزينًـا.. روحـي هائمـة، أفكـر في مصر، وفي خيامنا، وفي الشمعة التي نسيتها مشتعلة هناك، تصدر دخانهـا الأحمـر. فجـأة، رأيتـه يصعد التل ببطء متكئًا على كتف الطفل الذي كان يقوده؛ إنـه الرجـل العجـوز الـذي كنا قد مررنـا بـه عـلى الطريـق إلى "يافـا"، وقيثارتـه معلقـة بـخصره. كانـت خطواتـه مترددة، يبدو عليها تعب رحلة مؤلمة. وكان الحزن قد أهدل لحيتـه البيضـاء المموجـة على صدره، وتحت الرداء الأحمر بلون النبيذ الذي يغطـي رأسـه، كانـت أوراق إكليـل الغار قليلة وذابلة.

صاح "توبسيوس" مناديًا إيَّاه:

- يا مغني الملاحم!

وعندما اقترب منه، محاولًا أن يزيل نبات الخلنج من الطريق، سأله المؤرخ المتعلم عمَّا إذا كان هناك أية أغنيات حلوة جديدة من جزر البحر. فنظر الرجل العجوز نظرة أسف، وهمس بنبل شديد بأن التحديث قد طرأ على الأغاني اليونانية القديمة بطريقة غير محسوسة. ثم أسند ساقه على حجر وأخذ القيثارة في يديه بتؤدة. ووقف الطفل مستعدًا، ورموشه ناعسة، ووضع ناي القصب في فمه. وفي توهج عصر يوم كان يلف صهيون ويصبغها بلون الذهب، صدح شاعر الملاحم بأغنية مرتعشة، كانت تمتلئ عظمة وخشوعًا كما لو كانت تُغَنّى أمام مذبح معبد في شاطئ الأيونيين.. وأدركت أنه يتغنى بالآلهة وجمالهم ونشاطهم البطولي. كان يحكي عن "الدلفيّ" (نسبة إلى دلفا) حليق الذقن ذي اللون الذهبي الذي نقَّى الفكر البشري من خلال إيقاع آلة السيتار الهندية. وأثينا، المسلحة الدؤوبة، التي أرشدت أيادي الرجال إلى العمل على الأنوال؛ وزيوس، أبو الآلهة الهادئ، الذي يهب الجَمَال لسلالات البشر، والنظام للمدن؛ وقبل كل شيء، أغاني الفادو الفضفاضة التي لا تلتزم بشكل غنائي محدد، لكنها الأقوى بين الجميع!

ولكن فجأة صرخ صرخة وصلت للسماء العالية فوق التل، مهيمنة وحماسية كالتحرر من الأغلال! كانت أنامل الرجل العجوز الماهرة تصمت بين الأوتار المعدنية. وكانت رأسه مائلة لأسفل، وإكليل الغار الملحمي - وقد طارت نصف أوراقه - كان كمن يبكي على نغمات القيثارة اليونانية، من الآن فصاعدًا، ولعصور طوال سوف تصمت وتظل بلا فائدة. وبجانبه أخرج الطفل الناي من بين شفتيه، وأخذ ينظر بعينيه الملونتين إلى الصلبان السوداء؛ حيث زاد فضوله وشغفه باكتشاف إلى ألم جديد.

وسأل "توبسيوس" الرجل العجوز عن قصته. فقصها عليه بمرارة. فقد جاء من جزيرة "سامنوس" اليونانية إلى "قيصرية" وعزف على آلة "القنور" بجانب معبد هرقل. لكن الناس قد تخلت عن العبادة الخالصة للأبطال؛ ولم

يبقَ هناك سوى الأعياد والقرابين للآلهة السورية الطيبة! وأنه رافق بعد ذلك التجار إلى "طبريا". لكن الرجال هناك لا يحترمون الشيخوخة، وكانت قلوبهم أنانية كما العبيد. ثم تابع السير في الطرق الطويلة، وأخذ يتوقف في المحطات الرومانية حيث يستمع الجنود الرومان إليه؛ وفي قرى "السامرة" كان يطرق أبواب الطواحين.

ولكي يكسب عيشه، كان يعزف على آلة السيتارا الهندية في جنازات البرابرة. أمَّا الآن فقد أخطأ هنا، في هذه المدينة التي بها معبد كبير، وإله شرس، ليس له شكل معين وتهابه الناس. وأن أمنيته الآن هي العودة إلى موطنه في مدينة "ميليتوس". وأن يسمع خرير مياه نهر "ميناندر" العذب. وأن يلمس الرخام المقدس لمعبد "فيبو ديديموس"؛ حيث كان يُحمل في سلة وهو طفل يغني حلقات شعره الأولى. وسال الدمع على وجهه، حزينًا كالأمطار عبر جدار مدمر. وكانت شفقتي على هذا الشاعر الذي ينتسب إلى الجزر اليونانية عظيمة، والذي أحس بالضياع في هذه المدينة اليهودية القاسية، بعدما حاصره نفوذ مشئوم لذلك الإله الغريب! أعطيته آخر عملة فضية كانت معي. نزل إلى أسفل التل، متكئًا على كتف الطفل، بطيئًا ومنحني الظهر، وحاشية عباءته الخشنة ترفرف على ساقيه العاريتين، والقيثارة البطولية ذات الأوتار الخمسة التي تتعلق بالكاد في حزام وسطه.

وفي هذه الأثناء، أخذ ضجيج الثورة يتعالى حول الصلبان، هناك في أعلى التل. وذهبنا فوجدنا خدم الهيكل يلوحون بأيديهم في الهواء، موضحين أن الشمس تغرب مثل درع ذهبي ناحية بحر صور، ليحثوا قائد القوات على إنزال المدانين من فوق الصليب قبل أن تحين الساعة المقدسة لعيد الفصح! وطالب أكثرهم تقوى بأن يتم تطبيق الصلب الروماني على المصلوبين، إذا كانوا لا يزالون أحياءً، بكسر عظامهم بقضبان من الحديد ورميهم من فوق حافة وادي

"هينوم". وأدى عدم اكتراث قائد المئة إلى إثارة حماسهم الديني الزائف. هل سيجرؤ على تدنيس يوم السبت، تاركًا الجثث في الهواء؟ وشمَّر البعض عباءته استعدادًا للجري حتى تل "أكرا" ليعلموا الحاكم بذلك.

- إن الشمس تغرب! إن الشمس ستغرب عن "الخليل"!

صاح لاوي مذعورًا من فوق حجر.

- اقضوا عليهم، اقضوا عليهم!

وإلى جانبنا، صاح شاب وسيم، وهو يرمش بعينيه الناعستين، ويحرك ذراعيه المملوءتين بالأساور الذهبية:

- ألقوا بالحاخام إلى الغربان! أعطوا الطيور الجارحة وجبة الفصح!

وكان قائد المئة، يقف أعلى "برج ماريان"، حيث تلمع الدروع المعلقة في شمس الغروب. وأشار بسيفه إلى اثنين من الجند، كانا يضعان القضبان الثقيلة على أكتافهما، وسارا صوب الصلبان. تجمدت مكاني، وأمسكت بذراع "توبسيوس". ولكن أمام صليب يسوع، توقَّف قائد المئة، ورفع يده. كان جسد الحاخام الأبيض القوي في هدوء شخص نائم. القدمان المتربتان، التي كان الألم يلفها منذ قليل داخل الحبال، واقفة الآن مباشرة على الأرض، كما لو كانت قد تعفرت من أثر المشي لخطوات قليلة. ووجهه لا يمكن رؤيته، فقد كان مُلقى إلى الخلف ويتكئ على أحد ذراعي الصليب، ويتجه إلى السماء مصليًا.. ونظرتُ أنا أيضًا إلى السماء. فوجدتها تتلألأ بالنور ليس فيها ظلام، ولا سحابة واحدة.. ناعمة، وصافية، وصامتة، وبعيدة جدًّا، ومليئة بالسكون. صاح قائد المئة، وهو ينظر حوله:

- من طالب بجسد هذا الرجل؟

- أنا، أنا الذي أحببته حيًّا!

وتقدم "يوسف الرامي"، وتخطَّى الحبل ناحية الصليب.

وترك العبد، الذي كان ينتظر إلى جواره، لفافة الكتان على الأرض، وجرى ناحية أنقاض الكوخ حيث كانت النساء يبكين بين أشجار اللوز. ومن ورائنا، اجتمع "الفريسيون" و"الصدوقيون" مندهشين في حيرة من أمر "يوسف الرامي"، وهو عضو في "السنهدريم": كيف له أن يطلب جسد الحاخام ليعطره، ويجعل المزامير تعزف من حوله في جوقة جنائزية. وانبرى واحد من بينهم، أحدب، تتدلى من رأسه ضفائر لامعة من أثر الزيت عليها، وقال إنه كان يعرف أن "يوسف الرامي" دائمًا ما يميل إلى كل المجددين، وكل مثيري الفتن، وأنه رآه أكثر من مرة يتحدث مع هذا الحاخام بالقرب من ميدان الصباغين. وكان معهم "نيقوديموس"، الرجل الغني الذي يمتلك الماشية، وحقول الكروم، وجميع المنازل التي هي على جانبي معبد برقة.. وانبرى آخر، أحمر الوجه منعمًا، وصاح:

- ما مصير الأمة، إذا كان من هم أعلاها شأنًا ينضمون إلى من يتملقون الفقراء، ويعلِّمونهم أن ثمار الأرض يجب أن تُوزَّع بالتساوي بين الجميع!

- أتباع المسيح!

صرخ أصغرهم غاضبًا، وألقى بعصاه ناحية نبات الخلنج، أكمل قائلًا:

- كلما زاد أتباع المسيح كان في ذلك دمار إسرائيل!

لكن الرجل الصدوقي ذو الخصلات اللامعة رفع يده بهدوء وتدلت منها العصابات المقدسة، وقال:

- اهدؤوا.. إن الرب عظيم، وكل شيء في الحقيقة سيصير أفضل. ففي المعبد وفي المجلس لن ينقصنا الرجال الأقوياء الذين سيحافظون على النظام القديم. ولحسن الحظ؛ فالصلبان دائمًا ما تعلو الجماجم.

وهمسوا كلهم:

- آمين!

ولكن، قائد المئة وجنوده من خلفه يحملـون قضـبان الحديـد، سـاروا إلى الصـلبان الأخـرى حيـث كـان المحكـوم علـيهما الآخـران لا يـزالان عـلى قيـد الحيـاة يحـتضران، ويطلبان الماء. كان أحدهما يئن وهو يتدلى على الصليب. والآخر مائل ويداه ممزقتـان، ويزأر بشكل رهيب. وابتسم "توبسيوس" ببرود، وغمغم:

- لقد حان الوقت، دعنا نذهب.

ونزلتُ وعيني تفيض من الدمع، أتعثَّر فى الحجارة، إلى جانب الناقد العالم من فوق تل التضحية. وشعرت بالحزن العظيم يقبض على روحي وأنا أفكر في تلـك الصـلبان في المستقبل، والتي أعلن عنها ذلك المحافظ ذو الشعر اللامع.. الذي كان له ما أراد، يا له من بؤس عظيم! نعم! من الآن فصاعدًا وعلى مـر القـرون القادمـة، سـيكون الصـليب دائمًا هو نقطة البداية، حول خشب المحارق، تحت الصقيع بجانـب الأبـراج المحصـنة، وبجانب سلالم المشانق.

- إنها لفضيحة عظيمة، تلك التي اتحد فيها الكهنة مع القضـاة الأرسـتقراطيين مـع الجنود والعلماء والتجَّار كي يقتلوا بوحشية، على رأس تلة، ذلـك الرجـل العـادل الـذي امتلأت نفسه ببهاء الرب، والذي تعلَّم العبادة بالروح، والذي امتلأ قلبه بحـب النـاس، وبشَّر بمملكة العدل!

بهذه الأفكار عدتُ إلى القدس؛ في حين أن الطيور، التي هي أكثر سعادة من البشر، أخذت تغني على أشجار الأرز في حقول "جريب". كان الظلام قد حـل، وكانـت سـاعة عشاء عيد الفصح قد حانت عندما وصلنا إلى منزل "جمالائيل". وفي الفناء، كان الحمار مربوطًا في حلقة ومغطى بقطعة قـماش سـوداء، كـان ذلـك حـمار الطبيـب الظريـف "إليعازر" من "سيلو".

وفي الغرفة الزرقاء، المسقوفة بخشب الأَرز، المعطَّرة بروائح القرفة، نظر إلينا العالم المتقشف وهو ممدد على أريكة ذات فُرُش بيضاء. كان حافي القدمين، وأكمامه الواسعة مشبوكة من فوق الكتف، وبجواره عصا يتكئ عليها في أسفاره، وقرعة بها ماء وصرَّة من الثياب، وشعارات تعبدية من رحلة الخروج من مصر. وأمامه، فوق منضدة مُطعَّمة بالصَدف وبين الأواني الفخَارية المزينة بالزهور، وُضِع سبت صغير من الفضة المجدولة، يمتلئ بالفاكهة وقطع الثلج اللامعة، وبجانبه شمعدان على شكل شجيرة، وفي طرف كل فرع وُضعت شمعة شاحبة زرقاء. وكان طبيب الأمعاء الحاذق يجلس وعيناه شاردتان في ضوء الشمعدان المرجف، ويداه مطويتان على بطنه يبتسم بسعادة وهو متكئ على وسادة جلدية. وبجانبه كان هناك مقعدان خفيضان مغطيان بسجاد من "آشور"، في انتظاري أنا والمؤرخ الحكيم.. همس "جمالائيل":

- مرحبًا بكما! تبارك الرب العظيم. لا بدَّ وأنكما جائعان.

وصفَّق صفقة خفيفة. فدخل العبيد، يمشون بلا ضجيج بصنادلهم المصنوعة من الشعر، ويسبقهم الرجل البدين ذو العباءة الصفراء، ويرفعون لأعلى أطباقًا واسعة من النحاس يتصاعد منها الدخان. وعلى جانب المائدة، وُضعت كومة من الدقيق الأبيض الرقيق الناعم كقطعة من قماش الكتَّان، حتى ننظف أيدينا بها. وعلى الجانب الآخر، وعلى طبق واسع مرصع بحبَّات من اللؤلؤ، وبين أغصان البقدونس، وُضعت كومة من حشرات "السيكادا" المقلية؛ وعلى الأرض وُضعت أباريق من ماء الورد. وعندما انتهينا من الاغتسال، قام "جمالائيل"، بعد أن طهَّر فمه بقطعة من الثلج، بأداء الصلاة الطقسية على صينية الفضة الهائلة، التي وُضع عليها الحمل المشوي الذي تصاعدت منه رائحة الزعفران وصلصة السومور. وبما أن "توبسيوس"، يعرف جيدًا العادات والتقاليد الشرقية، فقد تجشَّأ بشدة، من باب المجاملة، كي يُظهر رضاه عن الطعام وسروره. ثم، أكد

وهو يمسك بقطعة من لحم الحمل بين أصابعه، ويبتسم للعلماء أن القـدس بـدت لـه رائعة أنيقة وصافية ومباركة بين المدن.

جاء "إليعازر" من "سيلو"، وقد أغلق عينيه من المتعة، كما لو كانوا يداعبونه:

- إنها جوهرة أفضل من الألماس، وقد أنشأها الـرب في وسـط الأرض، حتـى يبعـث بضيائه منها بالتساوي إلى كل البقاع.

- في وسط الأرض!

تذمَّر المؤرخ، وقريحته العلمية في اندهاش.

- نعم!

وغمس قطعة من الكعك في صلصة الزعفران، وأخذ الطبيب المتبحر يشرح خريطة الأرض. إنها مسطحة ومستديرة أكثر مـن القـرص. في الوسـط القـدس المحرمـة كقلـب مليء بحب الرب العـلي. ومـن حولهـا "يهوديـة"، الغنيـة بالبيلسـان وأشـجار النخيـل، ومحاطة بالظل والروائح العطرة؛ ومن ورائها يعيش الوثنيون في المناطق القاسية حيث لا عسل فيها ولا حليب غني. وبعدها البحار المظلمة، ومن فوقهم السـماوات جامـدة ورعدية.

- جامدة!

تمتم صديقي الحكيم، مندهشًا.

وقـدَّم لنـا العبيـد في الأطبـاق الفضـية بـيرة صـفراء مـن المـدائن. وألـح عـليَّ " جمالائيـل" بـكسر حشرة "السـيكادا" المقليـة وأكلهـا مـع البـيرة ليكـون طعمهـا أفضـل. بيـنما انشـغل الحاخـام "إليعـازر" بشرح البنـاء الإلهـي للسـماء لــ" توبسـيوس". وأنهـا بُنيـت مـن سـبع طبقـات صـلبة ورائعـة ولامعـة مثـل طبقـات الكريسـتال. وتمـوج الميـاه مـن فوقهـا عـلى الـدوام. وعـلى الميـاه تطفـو، في تـوهج

عظيم، روح يهوه. هذه الطبقات البلورية، المثقوبة مثل المنخل، تنزلق فوق بعضها بعضًا في موسيقى حلوة وبطيئة، والتي يسمعها أنبياء الله المقربون أحيانًا.. وأنه هو نفسه ذات ليلة كان يصلي على سطح منزله في "سيلو"، فشعر شعورًا غريبًا، بفضل نادر من الرب، بهذا التناغم النفَّاذ الهادئ، حتى صارت تتساقط في يديه المفتوحتين واحدة تلو الأخرى. والآن في شهري "كيسليف" و"تيبيه" من التقويم العبري يتصادف وجود الثقوب أمام بعضها بعضًا، ومن خلالها تتساقط قطرات المياه الأبدية على الأرض فتجعل الحقول تنمو! سأل "توبسيوس" باحترام:

- المطر؟

- إنه المطر!

أجاب "إليعازر" بكل هدوء.

وكتم "توبسيوس" ابتسامته، وتوجَّه إلى "جمالائيل" بنظارته الذهبية، والتي تأججت بسخرية حكيمة. ولكن "ابن سمعان" التقِيّ احتفظ على وجهه بهدوء لا يمكن التأثير عليه.. وجهه الذي شحُب من كثرة دراسة الشريعة. ثم أراد المؤرخ، وهو يأكل الزيتون، أن يعرف، من الطبيب المستنير، لماذا اتخذت هذه البلورات اللون الأزرق الذي تسحر الروح.

وأوضح "إليعازر" من "سيلو":

- إن جبلًا أزرق عظيمًا لا يمكن أن يراه البشر حتى اليوم يوجد في الغرب. وعندما تغرب الشمس، يغمر ضياؤها السماء ويكسوها. وربما على هذا الجبل تعيش أرواح الأبرار!

وتنحنح "جمالائيل" بهدوء وهمَسَ:

- دعونا نشرب، ونشكر الرب!

ورفع كأسًا ممتلئة بنبيذ مدينة "شكيم"، وباركها، ثم أعطاها لي، متمنيًا السلام لقلبي. وتمتمت:

- ولقلبك، وليزيدنا الرب ويسعدنا.

أمَّا "توبسيوس"، فتلقى الكأس بالتبجيل، وشرب قائلًا:

- لتزدهر إسرائيل، ولتقوى ويزداد علمها!

جاء الرجل البدين ذو العباءة الصفراء، والذي كانت عصاه العاجية تصدر صوتًا مدويًا عند ارتطامها بالبلاط. وبعد أن دخل، أحضر الخدم طعام عيد الفصح الأكثر ورعًا؛ وهي الأعشاب المُرّة. كانت الصينية مليئة بالخس، والجرجير، والهندباء، والبابونج، مع الخل وحصى الملح الكبيرة. وأخذ "جمالائيل" يمضغ بشكل رتيب، وكأنه يؤدِّي طقسًا؛ فهذه الأعشاب تمثِّل مرارة إسرائيل في سنوات الأسر في مصر. وأعلن "إليعازر"، وهو يمص أصابعه، أنها لذيذة ومحصنة للبدن، وتمتلئ بالدروس الروحانية العالية.

لكن "توبسيوس" ذَكَر، حسبما قرأ عن المؤلفين اليونانيين، أن جميع الخضراوات تخفف من حدة الرجولة في الإنسان، وتقلل من بلاغته، وتقضي على بطولته. وتحدث بعلمه الغزير عن العالم الإغريقي "ثاوفرسطس" والعالم الإغريقي "أوبولوس"، والشاعر والطبيب اليوناني "نيكاندر" في الجزء الثاني من قاموسه، و"فينياس" في رسالته عن النباتات و"ديفيلو" والكاتب المسرحي والفيلسوف اليوناني "أبيكارموس"!

وأدان "جمالائيل" بجفاف تفاهة هذا العلم - لأن "هكتيوس الملطي"، ارتكب في كتابه الأول من وصفه لآسيا، ثلاثة وخمسين خطأً، وأربعة عشر تضليلًا، ومئة وتسعين سهوًا - إن هذا اليوناني التافه قال عن البلح، وهو هدية رائعة من الرب العلي، إنه يضعف الفكر! صاح توبسيوس بحماس:

- ولكـن.. ولكـن الـرأي نفسـه يؤيـده "زينوفـون" في المجلـد الثـاني مـن كتابـه "أناباسيس".

ورفض "جمالائيل" أن يرجع لـ"زينوفون". واحمَّر وجـه "توبسـيوس" وأخـذ يضرب بالملعقة الذهبية على حافة الطاولة، وأشاد ببلاغة العـالم الإغريقـي "زينوفـون"، ونبـل مشاعره، واحترامه الكبير لسقراط! وبينما كنت آكل مـن طبـق حلـوى الأرز السـوري، كان العالمان المطلعان، يتناقشان بحدة حـول سـقراط. وأكـد "جمالائيـل" أن الأصـوات السرية التي كان سقراط يسمعها، والتي كانت تهديه بطريقة إعجازية خالصـة كانـت مجرد همسـات بعيـدة جاءت إليـه مـن "يهوديـة"، وكانـت هـي أصـداء كـلام الـرب المعجزة. وقفز "توبسيوس"، وضم كتفيه، بسخرية يائسة.

- سقراط مستوحى من يهوه! ما هذا الهراء!

ومع ذلك فإنه كان على حق (أصر "جمالائيل"، وهـو غاضـب)، إن الـوثنيين صـاروا يخرجون من الظلام، يجذبهم الضوء القوي والنقـي الـذي تشـعه القـدس. لأن تبجيـل الآلهة ظهر في أعمال إسخيليوس عميقًا ومليئًا بالإرهاب؛ وفي أعمال سوفوكليس، محببًا إلى النفس ومليئًا بالصفاء؛ وفي أعمال يوريبيدس، سطحيًّا ومليئًا بالشك.. وهكذا خطى كل واحد من هؤلاء الكتَّاب، وعلى نطاق واسع، خطوة نحو الإله الحقيقي!

- يا "جمالائيل"، يا ابن "شمعون".

ناداه "إليعازر" من "سيلو":

- أنت يا من تملك الحقيقة.. كيف تسمح للوثنيين أن يصلوا إلى روحك؟

أجاب "جمالائيل":

- لأحتقرهم في داخلي، لكن عن علم!

وعندما تعبت من هذا الجدل التقليدي، قرّبت من "إليعازر" طبقًا من عسل "الخليل"، وحكيت له كيف أن طريق "جريب" بين البساتين أعجبني كثيرًا. ووافقني الرأي بأن القدس، التي تحيطها الحدائق، تبدو حلوة في الأفق مثل وجه العروس الملفوفة في شقائق النعمان. ثم استغرب كيف أختار - عندما أتنزه - تلك المناطق المحيطة بالجبانة، المليئة بالجزارين، والتلال الصخرية حيث يقيمون الصلبان، وأنه كان من الأفضل لي أن أمشي عبر طريق "شيلوم" العطر.

- ذهبت لرؤية يسوع.

قلتها بشكل صارم:

- ذهبت لرؤية يسوع، المصلوب بعد ظهر اليوم بأمر من "السنهدريم".

ضرب "إليعازر" على صدره، كنوع من المجاملة، وأظهر الحزن. وأراد أن يعرف ما إذا كان "يسوع الجديد" ينتمي إلى عائلتي، أو أنه كان يشترك معي في خبز العهد، ذلك اليسوع الذي ذهبت لحضور صلبه كالعبيد.

وتأملته، فأجبته بدهشة:

- إنه المسيح!

تأملني هو أكثر اندهاشًا، وخيط من العسل يسيل من لحيته.

- يا له من أمر غريب! أتظن أن "إليعازر"، طبيب المعبد، وفيزيائي "السنهدريم"، لم يكن يعرف "يسوع الجليلي"! وأنه مشغول مع المرضى الذين يملؤون القدس في عيد الفصح، وأنه لم يذهب إلى ميدان الألعاب عند الصخرة، أو متجر عطور "كليوس"، أو إلى بلدة "بيت حانون"، حيث تطير الأخبار إلى هناك أسرع من طير الحمائم.

ولذلك لم يسمع شيئًا عن ظهور المسيح.. وأضاف أنه لا يمكن أن يكون هو المسيح! فالمسيح سيكون اسمه "مناحم" أي "المرضي"، لأنه سيجلب الرضا لبني إسرائيل. وسيكون هناك مسيحان: أولهما من "سبط يوسف" وسيهزمه يأجوج. والثاني، من نسل داوود وسيكون ممتلئًا بالقوة، وسيهزم مأجوج. وقبل أن يُولد، سيأتي على الناس سبع سنوات من العجائب؛ ستتبخر البحور، وتتساقط النجوم من السماء، وستقع المجاعات، وسنوات خير، حتى الصخور سوف تطرح ثمارًا؛ وفي السنة الأخيرة سيتدفق الدم بين الأمم؛ وفي النهاية سوف يصدح صوت باهر؛ وعلى جبل "الخليل" سوف يظهر المسيح بسيف من نار.

كان يحكي هذه القصص الغريبة وهو يقشّر لحاء تينة في يده. ثم تنهد، وقال:

- حسنًا، لم تحدث أي من تلك العجائب بعد يا بُني، والتي تنبئ برضاء بني إسرائيل!

والتهم التينة.

وكنت أنا، "تيوديريكو"، الإيبري، من بلدة رومانية نائية، الذي أخبرت طبيبًا من أورشليم، تربى بين جدران المعبد الرخامية، عن حياة الرب! وحكيت له عن الأشياء الحلوة والأشياء القوية. عن النجوم الثلاثة الواضحة على مهده، وعن كلمته التي روضت مياه "الجليل". وعن قلوب البسطاء التي دقت من أجله؛ وعن ملكوت السماوات الذي بشر به، وعن وجهه المهيب الذي تلألأ أمام الحاكم الروماني.

- ثم يصلبه الكهنة، والأرستقراط والأغنياء!

وعاد الدكتور "إليعازر"، يفتش في صينية التين مرة أخرى، وهمس وهو يفكر:

- هل أنت حزين، ما زلت حزينًا! يا بني، إن مجلس "السنهدريم" كان رحيمًا؛ ففي سبع سنوات، منذ أن خدمت فيه، لم يصدر سوى ثلاثة أحكام بالإعدام.. نعم، يحتاج العالم بالتأكيد إلى سماع كلمة الحب والعدالة. لكن

إسرائيل عانت الكثير مع المبتكرين، ومع الأنبياء! على أية حال، لا ينبغي لأحد أن يسفك دماء الإنسان. والحقيقة هي أن هذه التينات، من بيت "فاجي"، لا ترقى لمستوى التين الذي أحضرته من "سيلو"!

رحت ألف سيجارة في صمت. وفي تلك اللحظة، كان العالم "توبسيوس" لا يزال يناقش مع "جمالائيل" الحضارة الهيلينية والمدارس السقراطية، وقال بحدة ذلك الملخص القوي ونظارته على طرف أنفه:

- سقراط هو البذرة وأفلاطون هو النبتة وأرسطو هو الثمرة.. ومن هذه الشجرة، بعد اكتمالها، تتغذى الروح البشرية!

لكن "جمالائيل" نهض فجأة ومعه الدكتور "إليعازر" أيضًا، وتجشئا بصوت عالٍ. وأخذا عصاتهما، وصاحا معًا:

- تبارك الرب! سبِّحوا الرب الذي أخرجنا من أرض مصر!

وبانتهاء عشاء عيد الفصح. قام المؤرخ البارز، ومسح العرق من أثر الجدال، وألقى نظرة سريعة على ساعته، ثم طلب من "جمالائيل" بأن يسمح لنا بالصعود إلى الشرفة، حتى ينعش مشاعره في هواء الجبل الناعم.. أخذَنا عالم الشريعة إلى الشرفة، التي كانت تضيؤها مصابيح من حجر البلق إضاءة خافتة، وأشار لنا إلى الدرج الأبنوسي المؤدي إلى سطح المنزل؛ ودعا لنا بنعمة الرب، ثم دخل مع "إليعازر" في غرفة مغلقة بستائر من بلاد ما بين النهرين، كانت تصدر منها رائحة عطرية، وصوت ضحكات رائع، وأصوات عزف قيثارة بطيء.

ما أحلى الهواء هنا في الشرفة! وما أسعدها من ليلة عيد فصح في القدس ! غير أن السماء الصامتة المغلقة كالقصر الذي به حداد، لم يكن فيها أي نجم مضيء. لكن قرية داوود وتل "أكرا"، بأضوائها الطقسية، بدت وكأنها مرصعة بالذهب. وعلى كل سقف، وُضعت الأواني ذات الخيش المشتعل بالزيت فاهتزت

منها ألسنة اللـهب الحمراء. هنا وهناك، وفي بعض البيوت العالية، تلمع سلاسل النور على الجدار المظلم كقلادة من الجواهر على صدر امرأة سوداء.

كان الهواء الحلو يحمل إلينا صوت أنين الناي، ونغمات أوتار آلة الـ"كنور" الخافتة، وفي الشوارع المضاءة بمواقد النار الكبيرة، رأينا عباءات إغريقية بيضاء قصيرة تهتز وتتراقص برقصات إغريقية خالصة. ولم يبق سوى الأبراج فقط في ظلام، وهي أبراج "هيبيكا"، و"ماريانا"، و"فرسالا". وأحيانًا يُسمع هدير أبواقها، أجش وقوي، مثل التهديد، لتنشر الأمن على المدينة المقدسة في الأعياد. لكن ما وراء الأسوار، بدأت فرحة ليلة عيد الفصح مرة أخرى. كانت هناك أضواء في "سلوام". في المعسكرات، وعلى جبل الزيتون، كانت النيران مشتعلة. ولأن الأبواب كانت مفتوحة، كانت صفوف من المشاعل تدخن في الشوارع، وسط ضجيج الأغاني.

فقط تلة واحدة، وراء "جريب"، قبعت في الظلام. في هذا الوقت، من تحتها، وفي وادٍ بين الصخور، كانت مناقير النسور تنهش في جثتين ممزقتين. وكانت تلتهم وجبة عيد الفصح الخاصة بها. وعلى الأقل جسد آخر، جسد ثمين يضم روحًا سامية، يرقد في قبر جديد، ملفوف بالكتان الناعم، ممسوح، ومعطَّر بالقرفة والحانوت. هكذا تركه في تلك الليلة، أقدس ليالي إسرائيل، أولئك الذين أحبوه والذين منذ ذلك الحين، إلى الأبد، سوف يحبونه بعمق أكثر.. هكذا تركوه بحجر أملس فوقه. والآن، من بين بيوت القدس، المليئة بالضوء وبالأغاني، كان هناك بيت مظلم ومغلق، حيث تتدفق فيه الدموع دون عزاء. هناك صار المنزل باردًا ومظلمًا. هناك يخبو المصباح الحزين في الكوّة؛ ويجف الماء من البئر، لأنه لا أحد يذهب إليها. وفي بيت السيدة العذراؤ تجلس النساء على الحصير، بشعورهن المنكوشة، ومن كنّ يتبعنه من "الجليل" ويتحدثن عنه، وعن الآمال الأولى، وعن الحكايات التي تحكى بين حقول القمح، وعن المعابد الناعمة على

ضفاف البحيرة.. وبينما أفكر هكذا وأنا متكئ على الحائط، وأنظر إلى القدس إذا بطيف ملفوف في الكتان الأبيض يبرز لي من الشرفة دون ضوضاء، تفوح منه رائحة القرفة وسنبل الطيب. وبدا لي أن هناك ضوءًا ينبعث منه، وأن قدميه لم تمسا الأرض، وارتعد قلبي. لكن من بين القماش الباهت، خرجت تحية، جادة ومألوفة:

- السلام عليكم.

آه! يا لها من راحة! كان "جاد".

- وعليك السلام!

وقف الزاهد أمامنا، صامتًا. وشعرت أن عينيه تبحث في أعماق روحي، كي تتحقق من وجود القوة والبأس. في النهاية تمتم، بلا حراك مثل شبح في قبره بملابسه البيضاء الفضفاضة:

- سوف يولد القمر.. وكل ما نتمناه سوف يتحقق. والآن، أخبراني! هل تملكان قلبين قويين جديرين بمصاحبة يسوع، وحراسته حتى واحة "إنجادا"؟

فنهضتُ، ورفعت ذراعيَّ في الهواء، في رعب! نصطحب الحاخام! ألم يُدفن، ميتًا، ومكفنًا ومعطرًا، تحت حجر، في بستان جريب؟ هل كان حيًّا! عند مولد القمر، بين أصدقائه، ويرحل إلى "إنجادا". كنت أتشبث بكتف "توبسيوس" بقلق، مستعينًا بمعرفته وسلطته القوية.

لكن صديقي العالم بدا مشوشًا، يتملكه الشك الشديد:

- نعم، ربما.. نملك قلبين قويين، ولكن.. عدا ذلك لا نملك سلاحًا!

- تعالا معي!

واقترب "جاد"، بحماس، أكمل قائلًا:

- سنمر على منزل شخص يخبرنا بما يجب أن نعرفه، وسيعطيكما السلاح!

وكنتُ ما زلتُ أرتجف، وظللتُ ملتصقًا بالمؤرخ العليم، وجمعت شتات نفسي وهمستُ:

- ويسوع؟ أين هو؟

- في منزل "يوسف الرامي".

همس الزاهد، وهو يلتفت حوله كالبخيل الذي يتحدث عن كنز.

- حتى لا يشك رجال المعبد في شيء، وضعنا الحاخام في قبر جديد في وجودهم، وهو في بستان يوسف. وظلت النساء تبكين عند الحجر الذي لا يُغلق القبر تمامًا وفقًا للطقوس، كما تعلمون، تاركًا شقًا واسعًا يمكن من خلاله رؤية وجه الحاخام. فنظر إليه بعض خدام المعبد وقالوا: "حسنًا". وذهب كل واحد منهم إلى منزله.. ودخلت عبر بوابة "جينا"، ولم أرَ أي شيء آخر. ولكن بمجرد حلول الظلام، لا بدَّ وأن يوسف ومعه شخص آخر، من المخلصين تمامًا، ذهبا في طلب جسد يسوع، ومعهم الوصفات التي أتوا بها من كتاب سليمان، حتى يجعلوه يفيق من الإغماءة التي سببتها له الخمر المخدرة والمعاناة.. تعالا إذًا، أنتما تحبانه أيضًا وتؤمنان به!

فأحضر "توبسيوس" عباءته الغالية وهو مندهش وعاقد العزم. وهبطنا الدرج في صمت وحذر، نزلنا من الشرفة مباشرة إلى طريق من الحصى ملاصق للأسوار الجديدة التي شيدها "هيرودس". ومشينا لفترة طويلة في الظلام، مسترشدين بثوب الزاهد الأبيض، بين الأكواخ المهدمة. وبين حين وآخر كان كلب يهجم علينا وينبح. وفوق الشرفات العالية كانت مصابيح الحراسة الخافتة تتوالى. ثم لمحنا شبح رجل يسعل تحت شجرة، ثم نهض حزينًا وضعيفًا كما لو كان قد خرج للتو من قبره. ولمس ذراعي، وسحب "توبسيوس" من عباءته،

وتوسَّل إلينا بالآهات ونفخات من الدخان برائحة الثوم أن نذهب كي ننام فوق قبره الذي كان قد عطره بسنبل الطيب.

وتوقفنا أخيرًا أمام جدار، حيث أغلقت مدخله حصيرة سميكة من الحلفاء. قادنا ممر مغمور بالماء إلى فناء محاط بشرفة، تتكئ على عوارض خشبية خشنة. وكانت الأرض الناعمة مثل الطين تخنق أصوات نعالنا. وأطلق "جاد"، على ثلاث مرات متباعدة، صرخة كصرخات ابن آوى. وانتظرنا في وسط الفناء، عند حافة بئر، مغطى بألواح. والسماء من فوقنا تتخذ شكل البرونز في ظلمتها الصعبة القاسية. وأخيرًا، برز لنا من زاوية تحت الشرفة، وميض من سراج مضيء ألقى بضوئه على لحية سوداء لرجل غطى رأسه بعباءة بنية من "الجليل". لكن الشعلة انطفأت من هبة ريح قوية. وسار الرجل ببطء في الظلام نحونا.

وقطع "جاد" الصمت المقفر، قائلًا:

- السلام عليكم يا أخي! نحن مستعدون.

ووضع الرجل المصباح ببطء على غطاء البئر، وقال:

- لقد انتهى كل شيء.

وارتجف "جاد" وصرخ:

- الحاخام؟

ووضع الرجل يده على فم الزاهد ليكتم صرخته. ثم، بعد أن مسح الظل المحيط بنا بعيون لا تهدأ، وتلمع مثل عيون حيوانات الصحراء:

- إنها أمور أعلى مما يمكننا فهمه. كان كل شيء يبدو على ما يُرام. تم إعداد النبيذ المخدر بشكل جيد، أعدته زوجة "روزموفيم"، وهي ماهرة وتفهم في المواد جيدًا.. واتفقتُ مع قائد المئة، الرفيق الذي أنقذتُ حياته يومًا في

"جرمانيا" في حملة مع "بابليوس". وعندما دحرجنا الحجر فوق قبر يوسف الرامي، كان جسد الحاخام دافئًا!

ولكنه سكت كما لو أن الفناء المغلق تحت السماء المظلمة لم يكن من السرية والأمن بما يكفي، فوضع يده على كتف "جاد"، وسار بقدمين حافيتين دون ضجيج وذهبا إلى أظلم مكان تحت الشرفة، إلى جانب الجدار الحجري. وكنا قريبين منهما نرتعش في صمت وقلق. وشعرتُ أن وحيًّا إلهيًّا عظيمًا سوف يتنزل علينا، ويكشف ذلك الغموض. وهمس الرجل أخيرًا، كخرير ماء حزين يجري في الظلام:

- عند الغسق، عدنا إلى القبر. ونظرنا من خلال الشق. كان وجه الحاخام هادئًا ومليئًا بالجلال. ورفعنا الحجر، وأخرجنا الجسد. كان يبدو نائمًا، في غاية الجمال والقدسية في القماش الذي تكفَّن به.. كان لدى "يوسف" مصباح يدوي. وحملناه عبر حقول جريب بين البساتين. وعند سفح النافورة وجدنا دورية من جنود المشاة الرومان. فقلنا لهم: إنه رجل من أيوب داهمه المرض، ونحن ذاهبون به إلى الكنيس. فسمحوا لنا بالمرور. وفي منزل "يوسف" كان "شمعون"، الزاهد الذي عاش في الإسكندرية ويعرف طبيعة النباتات. وكان كل شيء معدًّا سلفًا، حتى جذور علاج مرض البَرَص.. ومددنا يسوع على الحصيرة. وقدمنا له العصائر ليشربها، وناديناعليه، وانتظرنا، وصلينا.. لكن للأسف! شعرنا بجسده يبرد تحت أيدينا! وفتح عينيه ببطء للحظة، وخرجت كلمة من بين شفتيه. كانت غامضة، لا نفهمها.. وبدا لنا أنه كان يدعو أباه، وأنه يشتكي إليه من الهجر.. ثم ارتجف؛ وظهر قليل من الدم على جانب من فمه... ومات الحاخام ورأسه على صدر "نيقوديموس"!

وسقط "جاد" بثقله على ركبتيه وهو ينتحب. أمَّا الرجل فتوارى، وبدا وكأنه قال كل ما عنده، وأخذ مصباحه من فوق البئر. فاستوقفه "توبسيوس" بشغف:

- استمع! أريد معرفة الحقيقة كاملة.. ماذا فعلت بعد ذلك؟

توقف الرجل عند أحد الأعمدة الخشبية. بعد ذلك، ثم مدَّ ذراعيه في الظلام واقترب جدًّا من وجوهنا، حتى شعرت بأنفاسه الحارة:

- كان من الضروري، من أجل خير الأرض، أن تتحقق النبوءات! ولمدة ساعتين ظل "يوسف الرامي" يصلي ساجدًا.. لا أعلم ما إذا كان الرب تكلم معه سرًا، ولكنه عندما قام، قام مشرقًا، وصرخ: "لقد جاء "إيليا"، لقد جاء "إيليا"، لقد حان الوقت!".. ثم، ائتمرنا بأمره وقمنا بدفن الحاخام في كهف كان قد نحته فى الصخرة خلف الطاحونة.

وعبَر الفناء، وأخذ مصباحه. وانصرف ببطء، دون ضجيج، عندما رفع "جاد" وجهه، وناداه وهو يبكي:

- استمع لي! عظيم هو الرب، حقًّا! وماذا عن القبر الآخر، حيث تركنه نساء "الجليل"، مكفنًا ومعطرًا، مع الصبر والحانوط؟

وتمتم الرجل، دون توقف، وبعدما توارى في الظلام:

- هناك، مفتوح وفارغ!

ثم جرّني "توبسيوس" من ذراعي، بشدة، لدرجة أننا تعثرنا في الظلام واصطدمنا بأعمدة الشرفة. وفتح باب في الخلف مع صوت ارتطام مفاجئ لحديد على الأرض.. ورأيت ميدانًا حزينًا وباردًا، ومحاطًا بأقواس شاحبة، به عشب بين شقوق الألواح المهجورة، مثل مدينة مهجورة.. توقف "توبسيوس" ولمعت نظاراته:

- "تيوديريكو"، لقد انقضى الليل. دعنا نرحل عن القدس! فقد انتهت رحلتنا إلى الماضي.. وتم الانتهاء من الأسطورة الأولى للمسيحية، وسنغادر العالم القديم!

وتأملت العالم المؤرخ، مشدوهًا ومرتعدًا.. وهفهف شعره بفعل رياح الإلهام، وكان الكلام يخرج من فمه فيحدث صدى هائلًا مرعبًا، وهو يسقط على قلبي:

- بعد غدٍ، عندما ينقضي يوم السبت، سوف تعود نساء "الجليل" إلى قبر "يوسف الرامي" حيث تركن يسوع مدفونًا.. وسيجدنه مفتوحًا وخاليًا.. وسيقال: "لقد اختفى، إنه ليس هنا!" ثم ستنطلق مريم المجدلية، المؤمنة المحبة، صارخة في شوارع القدس: "لقد بُعث، لقد قام!" وهكذا، فإن حب امرأة سوف يغير وجه العالم، ويهدي للإنسانية دينًا جديدًا!

ورفع ذراعيه في الهواء، وركض عبر الميدان، حيث بدأت الأعمدة الرخامية في السقوط بهدوء وسلاسة.. وتوقفنا عند بوابة "جمالائيل" منحنيين؛ فوجدنا عبدًا، لا تزال الأغلال المكسورة في معصمه، يمسك بفرسينا، وركبنا ومررنا تحت بوابة "الذهب" تصحبنا قعقعة حجارة حملها السيل من علٍ.. وركضنا صوب "أريحا" عبر الطريق الروماني من "شكيم"، بسرعة مذهلة لم نشعر معها بقرع سنابك الخيل على حجر البازلت الأسود.. وبعد ذلك، انزلقت عباءة "توبسيوس" البيضاء من جراء عاصفة غاضبة.

كانت الجبال تمر على الجانبين، مثل الأحمال على ظهور الإبل عندما يدب الهرج والمرج بين الناس.. كانت أنف فرسي تطلق دفعات من الدخان المائل للحمرة، وأنا أتشبث بناصية الفرس، ورأسي تدور، كما لو كنت أتدحرج بين السحاب.. وفجأة ظهر لنا سهل "كنعان" المنبسط حتى سلسلة جبال "مؤاب". وكان مخيمنا يقبع بجوار جمر النار المختفي تحت رماد المواقد. ووقفت الخيل تنتفض. وأسرعنا مترجلين نحو الخيام. وكانت الشمعة التي أوقدها "توبسيوس" كي يرتدي لباسه بعد ألف وثمانمئة عام ما زالت على الطاولة وقد خمدت وأصبحت شرارة شاحبة. استلقيت في فراشي بعدما أتعبت هذه الرحلة اللانهائية ظهري. استلقيت دون أن أخلع حذائي الأبيض.. وعلى الفور بدا لي أن شعلة تصدر دخانًا قد اخترقت الخيمة، فانبعث منها بريق بلون

الذهب.. فنهضتُ منزعجًا. كان "بوت" المرح في قميصه هو الـذي دخـل ومعـه خـيط من أشعة الشمس قادم من جبال "مؤاب"، يحمل حذائي في يده!

رميت البطانية بعيدًا، ورفعت شعري بعيدًا عن عيني، لأتحقق بشـكل أفضـل مـن التغيير الرهيب الذي حدث في الكون منذ البارحة! فرأيـت زجاجـات الشـمبانيا، التـي شربناها نخبًا للعلم والـدين، موضـوعة عـلى المائـدة. وكانـت اللفافـة التـي بهـا "تـاج الأشواك" بجانب وسادتي. و"توبسـيوس" ملقـى عـلى سريـره في ثـوب النـوم، ومنديلـه مربوط على جبهته، وأخذ يتثاءب، بعدما وضع نظارته الذهبية على طرف أنفه، وكـان "بوت" المرح يراقـب كسـلنا، ويريـد أن يعـرف مـا إذا كنـا متلهفـين هـذا الصـباح إلى: "التابيوكا" أو القهوة.

تركتُ زفرة رضا عالية تخرج بارتياح من صدري.. وفي ظل الابتهاج المنتصر لشعوري بـالعودة إلى شخصـيتي وإلى زمـاني، قفـزت عـلى المرتبـة وأنـا في مـلابسي الداخليـة، وصرخت:

- "تابيوكا"، يا صديقي "بوت"، "تابيوكا" طرية وسكر زيادة، كي تذكرني جيدًا ببلدي، البرتغال.

العودة

وفي اليوم التالي - وكان يوم أحد، وكان الجو حارًا - عندما جمعنا خيامنا من "أريحا".. ومشينا مع الشمس ناحية الغرب، عبر وادي "كيريت"، واتجهنا صوب "الجليل"، وكما لو كان نبع الإعجاب قد جف في نفسي، أو أن روحي قد انتُزعت للحظة إلى آفاق التاريخ وتعرضت هناك لرشقات قاسية من المشاعر المتباينة، فلم أعد أستطيع الاستمتاع بهذه الطرق الهادئة الصحراوية في سوريا، وصرت أشعر دائمًا باللامبالاة والتعب، وأنا أتنقل من أرض "إفرايم بن يوسف" إلى أرض "زبولون"، وعندما خيمنا تلك الليلة في مدينة "بيت إيل"، كان القمر يسطع من وراء تلال قرية "جلعاد" السوداء.. ودلني "بوت" المرح على الأرض المقدسة حيث كان يعقوب، راعي مدينة "بئر سبع"، ينام على صخرة من صخورها عندما رأى سلمًا طرفه عند قدميه والطرف الآخر يصل إلى النجوم، حيث تصعد وتهبط عليه الملائكة بين السماء والأرض، وهم صامتون مضمومو الأجنحة.. وأنا أتثاءب بكثرة، وهمستُ:

- نعم، كان أنيقًا ومنعمًا.

وهكذا، عبرتُ وأنا أهمس وأتثاءب أرض المعجزات. وكان جمال الوديان بالنسبة لي مملًا كقدسية الأطلال.. وعند بئر "يعقوب"، جلستُ على الأحجار نفسها التي كان يسوع يجلس عليها متعبًا مثلي في هدوء هذه الطرق ويشرب مثلي من إبريق سامري، ويبشر بدين نقي جديد، على سفوح "الكرمل"، أو في زنزانة زاهد، ويستمع ليلًا لصوت أغصان شجر الأرز التي تخفّى فيها إلياس وصوت الأمواج أسفل منه، وضجيج الحشود من أتباع "حيرام" ملك "صور".. وصاحبني الملل في كل أحوالي كصديق وفيٍّ، سواء وأنا أركض في ردائي وسط الرياح عابرًا سهل "إسدريلون". أو وأنا أجدف بعذوبة في بحيرة "جنيسارت"، يلفني الصمت والضياء، وكان الملل في كل منعطف يضمني لصدره الحنون، تحت ثوبه البني.. ومن حين لآخر كان الشوق اللذيذ الشهي إلى الماضي البعيد يتسرب إلى نفسي بخفة كما يهز النسيم البطيء الستائر الثقيلة.

وبعد ذلك، كنت أدخن أمام الخيام، وأنا أتجول على ظهر حصاني في مخرات السيول الجافة، وأتذكر بسعادة تلك الذكريات التي عشتها في الماضي والتي عشقتها، كالحمّامات الرومانية، التي تقف أمامها مخلوقة رائعة ترتدي عمامة صفراء تعرض نفسها بشبق وشهوة، والـ"منسي" العظيم وهو يحمل في يديه السيف المرصَّع بالأحجار الكريمة، والتجَّار في المعبد يفردون أثواب القماش البابلي المطرز، والحكم على المسيح، وخيط الدم على العمود الحجري، وباب المحكمة؛ والشوارع المضيئة، واليونانيين يرقصون رقصة "الكالابيدا"... وسرعان ما وُلِدتْ عندي رغبة حزينة في أن أعاود الغوص من جديد في هذا العالم الذي لن يعود.. شيء مثير للضحك، هل يُعقل أن يشتاق "رابوزو" الحاصل على شهادة الليسانس والذي يرفل في نعم العيش ووسائل الراحة الحديثة أن يشتاق إلى تلك القدس الهمجية، والتي عاش فيها بعضَ يومِ من

شهر أبريل عندما كـان "بـيلاطس البنطـي" والي "يهوديـة"! وسرعـان مـا تلاشـت تلـك الذكريات، كالنار التي تفتقـر إلى وقـود، ولم يبـقَ في نـفسي منهـا سـوى الرمـاد، وأمـام أطلال جبل "عيبال"، أو عند بساتين "شكيم" اللّاوية العطرة، رُحتُ أتثاءبُ من جديد.

وعندما وصلنا إلى "الناصرة"، والتي بدت منعزلة عن فلسطين كبُرعُمٍ نبت في أحجار قبر، لم تلفت نظري اليهوديات الحسان، واللاتي افتتن بهن القديس "أنطونيـو". رأيـتهن يصعدن بين أشـجار الجميـز، تحمـل كـل واحـدة مـنهن بلاصـها الأحمـر عـلى كتفهـا، ويتجهن ناحية نبع الماء الذي كانت مريم، أم يسوع، تذهب إليه عصر كل يوم، وهـي تغنـي مـثلهن وترتـدي مـثلهن الملابـس البيضـاء.. وأخـد "بـوت" المـرح، يلـف شـاربه ويغازلهن، وهن يبتسمن ويسدلن رموشهن الهدباء على أعينهن الجميلة.

وأمام هذا التواضع اللطيف تنهد القديس "أنطونيو"، وهو متكئ على عصاه، ويهز لحيته الطويلة قائلًا:

- يا لها من فضائل واضحة، موروثة من مريم المليئة بالنعم!

أما أنا فهمست قائلًا:

- نساء بائسات!

وصـعدنا إلى أعـلى بلـدة "النـاصرة" عـبر الأزقـة حيـث البيـوت المتواضـعة تزينهـا أشجار التين والكروم، كـما يليـق بقريـة جميلـة ينتمـي إليهـا ذلـك الـذي كـان يُعَلـم أتباعه التواضـع، والريـاح القادمـة مـن ناحيـة "الأدوميـين" تـدفع بنـا دفعًـا. وهنـاك قذف "توبسـيوس" بقبعتـه في الهـواء تحيـة لهـذه السـهول، وهـذه الأزمنـة البعيـدة ، التي أتى فيها يسوع ليتفكر ويتأمـل في نورهـا، ونِعَـم الجـمال الـذي لا يُضـاهى مـن ملكـوت اللــه.. وكـان العـالم المـؤرخ يشـير لي بإصـبعه إلى جميـع الأمـاكن الدينيـة،

والتي كان لأسمائها وقع الوحي في الروح مع هيبة النبوة، أو هدير المعركة، مثل: "أسدريلون"، و"عندور"، و"شوليم"، و"تابور".. كنت أنظر بينما ألف سيجارًا للتدخين. وأبتسم للون الأبيض في بياض الثلج على جبل الكرمل.. وكانت سهول "بيريا" تتلألأ تحت نسمات محملة بتراب كالذهب؛ وكان خليج "كيفة" شديد الزرقة. وغطّى الحزن جبال السامرة في الأفق. وحامت حولنا النسور الضخمة في الوديان.. وهمستُ وأنا أتثاءب:

- يا له من منظر رائع!

وفي الفجر، أخيرًا، عاودنا المسير نزولًا فى اتجاه القدس. ومن "السامرة" إلى "الرامة"، غمرتنا هذه الزخات الشاسعة من الأمطار السوداء القادمة من سوريا، والتي سرعان ما تتحول إلى سيول تجري بين الصخور تحت نبات الصبَّار المزهر، ثم عند تل "جبة"، حيث كان يجلس داوود في حديقة منزله، بين شجر السرو وأشجار الفاكهة، يعزف على قيثارته وينظر إلى "صهيون" - كان كلُّ شيء يكتسي بالزرقة والصفاء - وأحسست بقلق في نفسي، مثل ريح حزينة تهب على الأطلال.. كنت سأرى مدينة القدس! لكن أيُ قدسٍ سأرى؟ هل هي المدينة نفسها التي رأيتُها يومًا متألقة ومشرقة في فصل الربيع، بأبراجها الهائلة، ومعبدها ذي اللون الذهبي، الناصع في بياض الثلج، وتل "أكرا" التي تملؤها القصور، وحي "بيزيتا" التي تُروى مزارعها من مياه عين العذراء مريم؟

- القدس! القدس!

نادى بدوي عجوز وهو يلوح برمحه في الهواء، معلنًا عن اقتراب مدينة الرب بالاسم الذي يطلقه عليها المسلمون. وركضت وأنا أرتجف.. ثم رأيتُها، هناك في الأسفل، بجانب وادي "قدرون"، قاتمة ومزدحمة بالأديرة وجاثمة بين

جدرانها المتهالكة، مثل امرأة فقيرة، يملؤها القمل، تنتظر الموت في أسمالها البالية في زاوية منعزلة.

وبسرعة كبيرة، اخترقتُ بوابة دمشق، وأقدامُ خيولنا تغوص في الحصى في الشارع المسيحي. كان أحدُ الرهبان يتكئ على الجدار، كان بدينًا يمسك بكتاب الصلوات ويعلق مظلته في ذراعه، وهو يتعاطى نشوقًا ويعطس بشدة، وحللنا بفندق البحر المتوسط. وفي ساحة الفناء الضيقة، تحت إعلان "حبوب هولواي"، جلس رجل إنجليزي، يضع على عينه الزرقاء قطعة من الزجاج تمكنه من قراءة جريدة "التايمز"، بينما يمدد رجله فوق مقعد جلدي، وخلف شرفة مفتوحة حيث نُشرت ملابس بيضاء عليها بقع القهوة كان هناك صوت أجش يدندن، بالفرنسية: "إنه نيكولاس الوسيم، مرحبًا!".

نعم، كانت هي، هذه هي القدس الكاثوليكية! ثم، دخلنا غرفتنا، فوجدناها مضيئة ومبهجة بفضل الفروع الزرقاء المرسومة على جدرانها، وكنت لا أزال أحمل في ذاكرتي غرفة معينة متألقة، تزينها الشمعدانات الذهبية وتمثال "أوغسطس"، ويقف في وسطها رجل يلبس عباءة رومانية ويمد ذراعه ويقول: "إن قيصر يعرفني جيدًا!".

وأسرعتُ ناحية الشباك كي أستنشق هواء مدينة "صهيون" الحديثة؛ فرأيت الدير بنوافذه الخضراء المغلقة، والمزاريب ساكنة في عصر ذلك اليوم المشمس الجميل.. بين أسوار الحدائق، ترى السلالم الملتوية، يعبر عليها الآباء الفرانسيسكان بردائهم المميز، واليهود النحلاء بشعرهم القذر.. يا لها من راحة بين تلك الجدران بعد عناء السفر في طرق السامرة الملتهبة! ذهبتُ أتلمس السرير الوثير، وفتحت خزانة الملابس المصنوعة من خشب الماهوجني.. ربتّ على قميص "ماري" بخفة في لفافته المستديرة الأنيقة ذات الشريط الأحمر، وهي تختبئ بين الجوارب.. في تلك اللحظة جاء "بوت" المرح ليعطيني اللفافة الثمينة التي تحوي

"تاج الأشواك" مستديرة أنيقة ولها شريط أحمر أيضًا، وأعطاني ملخصًا عن أخبار القدس. كان قد استمع إليها من حلاق "طريق الآلام"، وكانت أخبارًا معتبرة؛ فقد جاء من القسطنطينية فرمان بنفي البطريرك اليوناني، ذلك الإنجيلي العجوز المسكين، الذي يعاني مرضًا في الكبد، والذي كان يساعد الفقراء. وصرَّح السيد القنصل "داميـاني" متشددًا في متجر للآثار بشارع الأرمن، أنه قبل عيد الميلاد وبسبب نزاع بين الفرانسيسكان وبعثة الآباء البروتستانت ستشتعل الحرب بين إيطاليا وألمانيا. وفي بيت لحم، في كنيسة "المهد"، سمع كاهن لاتيني ضجيجًا وهو يبارك خبز القربان فشج رأس كاهن قبطي بشمعة.. وأخيرًا، قال خبر مبهج، وهو أن مقهى جديد قد افتتح عند سفح بوابة "هيرودس"، يطل على وادي "جوزافات"، وبه لعبة البليارد، وأن اسمه "منتجع سيناء"!

فجأة، جاءت نسمة من الشباب والحداثة لتكشف عني أشواق الماضي المؤلمة كما تكشف الرماد الذي يغطي على روحي، فقفزت على البلاط الذي أصدر صوتًا، وقلت:

- يحيا المنتجع الجميل! إلى هناك! إلى المغريات! إلى البهجة! هيًّا! كنت أتحرق شوقًا للاحتفال! ثم إلى الفتيات الصغيرات! ضع لفافة التاج هناك يا "بوت" الجميل.. فهي لا تقدَّر بثمن! يا إلهي، إن "تيتي" سوف يجن جنونها بها! ضعها على خزانة الملابس، بين الشمعدانين.. ثم، بعد الغذاء، نذهب إلى "منتجع سيناء" يا صغيري!

وعندئذٍ دخل الحكيم "توبسيوس" يلهث، ليسوق لنا خبرًا تاريخيًّا جميلًا! فعندما كنا نتجول في "الجليل" وجدت لجنة حفريات الكتاب المقدس تحت الأطلال لوحًا رخاميًّا قال عنه "يوسيفوس" و"فيلون" إنه التلمود، وإنه كان مثبتًا على باب الهيكل، بالقرب من الباب البهي وعليه كتابات تفيد بمنع دخول الوثنيين.. وكان يريد منَّا الذهاب معه بعد تناول الحساء كي نرى هذه

المعجزة.. وكانت صورة ذلك الباب ما زالت تتلألأ في ذاكـرتي، بـاب جميـل بحـق، بـاب قيم ويجسِّد الانتصار، قد انتصب فوق أربع عشرة سلّمة من رخام "نوميـديا" الأخضر، لكنني هززت ذراعي في ثورة:

- لا أريد!

صرختُ:

- فقد مللتُ! وأنا أقول لك هذا بصراحة يا "توبسيوس"؛ مـن الآن فصـاعدًا لم يعـد بإمكاني رؤية صخرة، ولا بيوت عبادة.. نعم! فعندي جرعـة كافيـة وهـي قويـة، قويـة جدًّا، يا دكتور!

هز الرجل الحكيم السترة التي علقها في وسطه.

كنـتُ مشـغولًا في هـذا الأسـبوع بتوثيـق وتغليـف الآثـار الصـغيرة التـي جلبتهـا خصيصى للخالـة "باتروسيينيو"، وكانـت كثيرة وثمينـة، وفـاخرة تـزين خزينـة أعظـم دير، إضافة إلى ما تستورده "صهيون" من مرسـيليا في صـناديق: مـن مسـابح، وعقـود، وميداليات، وملابـس القساوسـة؛ بالإضـافة إلى تلـك التـي يبيعهـا الباعـة الجـائلون في القـبر المقـدس؛ مثـل، زجاجـات مـن مـاء نهـر الأردن، وحجـارة مـن "طريـق الآلام"، وزيتون من جبل "الزيتون"، وأصداف من بحيرة "جنيسـارت"، كـما أحضرت لهـا آثـارًا أخرى نادرة، وجميلة، وليس لها مثيـل؛ مثـل قطـع خشـب مـن صـنع يوسـف النجـار وعودين من المغارة التي وُلد فيها المسيح؛ وبعضًا من شقف الجرة التي كانت العذراء تملأ بها الماء من النبع.. وحدوة الحمار الذي فرت العائلة المقدسة على ظهـره إلى أرض مصر؛ ومسـمار معـوج وصـدئ.. كانـت هـذه الهـدايا الثمينـة معبـأة في ورق ملـون، ومربوطة بشرائط رقيقـة مـن الحريـر، وعليهـا ملصـقات أنيقـة، ووضـعتها جميعًـا في صـندوق كبـير، وأغلقتـه جيـدًا بصـفائح حديديـة. ثـم وجهـت جـل عنـايتي للأثـر

الأعظم، لتاج الشوك، فهو مصدر العناية السماوية لـ"تيتي"، وهو مصدر الثروة بالنسبة لي، فسأكون أنا فارسها، والمدافع عنها، ولكي أغلف التاج قررت اختيار خشب مقدس لهذا الغرض، فنصحني "توبسيوس" بخشب الأرز اللبناني الجميل جدًّا، والذي من أجله عقد سليمان صلحًا مع "حيرام" ملك "صور"، لكن "بوت" المرح كان أقل اهتمامًا بالتاريخ، فأوصاني بخشب الصنوبر، بعد أن يباركه بطريرك القدس، واقترحتُ أن أخبر "تيتي" بأن المسامير التي سأستخدمها هي من سفينة نوح، وأن ناسكًا قد وجدها بأعجوبة في جبل "أرارات"؛ وأن الصدأ الذي تركه الطين البدائي على المسامير عندما يذوب في الماء المقدس فإنه يشفي من نزلات البرد.. ناقشنا كل هذه الأمور المهمة، بينما نحتسي البيرة في "منتجع سيناء".

خلال هذا الأسبوع المزدحم، كانت لفافة تاج الشوك قد بقيت فوق الخزانة بين الشمعدانين الزجاجيين؛ ولما كانت الليلة الأخيرة لنا في القدس غلفتها بعناية فائقة؛ فغطيت الخشب بالحرير الأزرق الذي اشتريته من "طريق الآلام"؛ فجعلت قاع الصندوق ناعمًا ولطيفًا عندما وضعت فيه طبقة من القطن الأكثر بياضًا من ثلج "الكرمل"؛ ووضعت اللفافة الثمينة - دون أن أفضها، كما تركها "بوت" المرح - في ورقة بنية مربوطة بشريط رقيق أحمر؛ لأن طيات الورق التي طُويت في "أريحا"، وهذه العقدة في الشريط الرفيع التي عُقدت بجانب نهر "الأردن"، سيكون لها طعم لا يقارن ومعنى روحي خاص عند السيدة "باتروسينيو".. كان "توبسيوس" النحيل يوحي لي بهذه الأفكار وهو يدخن التبغ في النرجيلة المصنوعة من الفخار.

- قل لي يا "توبسيوس".. ما المكسب الذي سيعود عليَّ من هذا! قل لي يا صديقي الصغير، أخبرني! هل تظن أنني أستطيع أن أخبر "تيتي" بأن تاج الشوك هذا هو نفس...

فقاطعني ذلك الرجل العليم بحكمة قوية، خرجت من خلال الدخان الخفيف:

- إن الآثار المقدسة ليست ثمينة لذاتها سيد "رابوزو"، ولكن بمقدار الإيمان الذي تلهمنا به.. يمكنك إخبار "تيتي" بأنه التاج نفسه الذي وُضع فوق رأس المسيح!

- طوبى لك يا دكتور!

عصر ذلك اليوم، كان صديقي العالم سيرافق لجنة الحفريات إلى مقابر الملوك؛ فذهبتُ وحيدًا إلى حديقة "الزيتون"، لأنه لم يكن هناك مكان ظليل في محيط القدس حيث يمكنني أن أستمتع بنوع من الهدوء في ساعة العصر وأدخن فيه سوى هذا المكان؛ فخرجتُ من باب القديس "ستيفن".. وامتطيت جوادي سريعًا ناحية وادي "قدرون"، وقفزت فوق حواجز أشجار التين الشوكي حتى وصلت إلى حائط مطلي باللون الأبيض الذي يحيط بحديقة الجثمانية التي صلى فيها يسوع ليلة صلبه، ودفعتُ الباب الصغير الأخضر المطلي بالجير ذا المطرقة النحاسية، ودخلت البستان حيث ركع يسوع، وصلى تحت أوراق شجرة الزيتون.

ولا تزال الأشجار المقدسة تعيش هنا، والتي ظللت فروعها قديمًا بشكل خادع فوق رأسه المتعبة من العالم! كانت ثمانية أشجار سوداء، تآكلن بفعل الزمن، وكن مسندات بأوتاد خشبية، وقد نخر فيها السوس، بعد أن هُجرت منذ تلك الليلة من ليالي أبريل والتي حلقت فيها الملائكة في سكينة، وأطلت من بين فروعها لتقدم المواساة لابن الرب، وفي الثقوب التي في جذوعها حُفظت بلطات وقواديم، ونَمَتْ على أطراف فروعها بعض الأوراق الخضراء القليلة العطشى.. كانت تهتز لكنها بدت شاحبة كابتسامة رجل يحتضر، وفي كل مكان حول تلك الحديقة، التي كانت تُسقى بالمحبة، ويخصبها الإخلاص! في أحواض الزهور، مع تحويطات من شجر الحناء زُرعت براعم الخس الطازجة الخضراء، ولا تحتوي الممرات ذات التربة الرملية على ورقة ذابلة تُنقص من نظافة المصلى؛ وبجانب الجدران التي تتلألأ عليها طبقة من البورسلين في محاريب الرسل

الاثني عشر، نمت شتلات من الثوم والجزر غطت عليها رائحة الخزامى؛ لماذا لم يزهر هذا الفناء الجميل هنا في وقت يسوع؟ لربما كان لهذه الخضروات المفيدة الهادئة أثر في سكون عاصفة قلبه!

وجلستُ تحت جذع شجرة زيتون.. كان الراهب الذي يحرس المكان قديسًا له سنًا ضحوكًا ولحية لا نهاية لها، كان يسقي كالعادة قصاري زهور شقائق النعمان، وأقبل الليل بروعة وحزن، وملئتُ أنبوب التدخين الخاص بي، وابتسمت لأفكاري. نعم! في الغد سوف أغادر تلك المدينة الرمادية التي تقبعُ محاطة بجدرانها الجنائزية، مثل أرملة لا تريد أن يواسيها أحد.. ثم في صباح أحد الأيام، بعد أن أقطع المسافات سوف أرى سلسلة جبال مدينة "سينترا" النديّة، وسوف تأتي طيور النورس في بلادي لتصدح مرحبة بي، وترفرف حول الصواري، وتلوح لشبونة تدريجيًّا في الأفق، بمرتفعاتها الصخرية البيضاء، والعشبُ على أسطحها، وتبدو لعيني رغدة العيش حلوة.. وتخيلتُ نفسي وأنا أصرخ: "يا تيتي، يا تيتي!" وأصعد السلالم الحجرية لمنزلنا في "سانتانا"، ورأيت "تيتي" وقد سال لعابها على ذقنها، وهي ترتعد أمام الأثر المقدس العظيم الذي أقدمه لها بتواضع.. ثم، وفي حضور الشهود السماويين، مثل القديس بطرس وسيدة الرعاية، و"سان كاسيمير" و"سان جوزيف"، تدعوني "ابنها، ووريثها!" وفي اليوم التالي تبدأ في الشحوب، والاحتضار والآهات.. يا لفرحتي!

بخفة، وعلى الجدار، من بين زهور الأوركيد غرد الطير، وغنى الأمل في قلبي وهو أكثر ابتهاجًا! تخيلت "تيتي" في السرير، تربط رأسها بمنديلها الأسود، وهي تمسك بثنايا ملاءة السرير المتعرقة من الألم، وتلهث وتتلوى فزعًا من الشيطان، وتتشنج، وتتيبس قدماها. وفي يوم من أيام شهر مايو، يضعونها باردة، تفوح منها رائحة كريهة في تابوت مسمر بشكل جيد.. ويسجى جسدها على عربة يجرها الخيل، إلى قبرها حيث الحشرات، ثم يُفض ختم الوصية في

الغرفة الدمشقية، حيث أكون قد أعددت لكاتب العدل "جوستينو" الحلوى والنبيذ الجيد من "بورتو"؛ متظاهرًا بالحداد، وأخفي وجهي منكفئًا على رخام الطاولة، وأخفي بريق وجهي الفاضح بمنديلي البسيط.. ومن بين طيّات الورق تطل ورقة مختومة تصدر عند فتحها صوتًا كوسوسة الذهب، وهمسًا كصوت حبوب المحاصيل وهي تتدلى، وتتدلى معها في أذني أصوات نقود القائد "جودينيو".. يا لها من نشوة!

والراهب المبجل ينثر على قبرها شذرات المياه، ويسير في ممر بين أشجار الآس بكتاب الصلوات بين يديه يقرأ منه.. ماذا سأفعل وأنا بمنزلي في "سانتانا" بعدما يحملون هذه العجوز القميئة إلى قبرها مكفنة في زي العذراء؟ سأحقق العدالة الكاملة، حين أسرع إلى المصلى، وأطفئ الأضواء، وأنزع الأفرع، وأترك القديسين للظلام والعفن! نعم، فأنا السيد، "رابوزو" الحر، في حاجة إلى الانتقام من السجود أمام صورهم المرسومة على حائط المقدسات الدنيء، ومن سيطرته عليَّ بتقويمه في الصلوات والتسابيح مثل عبد مطيع!

كنت أخدم القديسين من أجل "تيتي".. ولكن الآن، فرحة لا توصف، إنها في قبرها تتحلل؛ تلك العيون التي لم تتدفق منها دموع الخير قط، تهرول الديدان بنهم لتأكلها؛ تحت تلك الشفتين، التي لطخهما الوحل ظهرت أخيرًا أسنانها القديمة المثقوبة التي لم تبتسم قط. لقد أصبحت أموال "جودينيو" ملكًا لي، وبعدما تحررتُ من تلك السيدة المقززة لم أعد مدينًا لهؤلاء القديسين بصلوات ولا وِرْد يومي! ثم، بعد أن تتحقق هذه العدالة الفلسفية فإني سأهرول إلى باريس، بحثًا عن النساء الفاتنات!

ضربني الراهب الصالح، وفمه الذي أحاطت به لحيته البيضاء كالثلج، على كتفي، وقال "يا بني"، وذكرني أن الحديقة المقدسة كانت ستغلق، وأنه سيكون

ممتنًا لصدقاتي. أعطيته قطعة من النقود وغادرت المكان راضيًا متجهًا للقدس، ببطء، عبر وادي جوزافات، وأنا أدندن بموَّال من التراث الجميل.

في اليوم التالي، عند العصر، رن الجرس معلنًا الصلاة التاسعة في كنيسة "التنعيم" عندما اصطفت قافلتنا عند باب فندق البحر المتوسط، لمغادرة القدس.. كانت لفافات الآثار المقدسة قد وُضعت فوق البعير بين بالات المتاع. وغرق البدوي، في عباءة لفته حتى غطت أنفه، كعباءات رجال الدين.. وركب "توبسيوس" عربة تجرها فرس تتهادى بوقار، أمَّا أنا، فوضعت من فرحتي وردة حمراء على صدري، وهمستُ، بينما نخطو آخر خطانا على "طريق الآلام":

- فلتبقِ هنا بعفنك يا مدينة "صهيون"!.

كنا بالفعل عند باب "دمشق" عندما جلجلت صيحة من آخر الشارع عند ناصية دير الحبشيين:

- يا صديقي "بوت"، أيها الدكتور، يا سادة! إن هناك لفافة نسيتموها.

كان الزنجي خادم الفندق، يلوح بحزمة سرعان ما عرفتُها بورقها البني وشريطها الأحمر.. إنه قميص نوم "ماري"! وتذكرت أني بالفعل لم أجده عندما كنت أحزم أمتعتي، ولم أره في خزانة الملابس، في درج الجوارب.. قال الخادم وهو يلهث، إنه بعد رحيلنا، أخذ ينظف الغرفة، وإنه اكتشف اللفافة بين كومة من الغبار والعناكب وراء خزانة الملابس، فنظفها بحرص، ولأنه كان حريصًا دائمًا على خدمة النبيل البرتغالي؛ فقد هرول إلينا دون ارتداء سترة حتى.

- كفى!

صحت فيه بجفاف وعُبوس.

وأعطيته العملات النحاسية التي ملأت جيبي.. وفكرتُ، "كيف تدحرجت اللفافة خلف خزانة الملابس؟".. ربما كان الزنجي الذي قام بتنظيف الحجرة هو

الذي أخرجها من درج الجوارب.. ولو لم يجدها لظلت هناك إلى الأبد، بين الغبار والعناكب! لأن هذه اللفافة في الحقيقة لم يعد وجودها مناسبًا بالمرة.. بالتأكيد! كنت أحب "ماري"، وكان الأمل في أن تحتضنني بذراعيها الممتلئتين عمَّا قريب في أرض مصر ما زال يجعلني أحس بالنشوة والرضا، ولكني كنت أحتفظ بصورتها في قلبي، ولم أكن بحاجة إلى جلب قميص نومها إلى حقائبي بشكل دائم.

بأي حق تجري بريطانيا ورائي في شوارع القدس، لتستقر في حقائبي رغمًا عني وترافقني إلى وطني؟ وكانت فكرة الوطن تلك هي التي تؤرقني كلما ابتعدنا عن أسوار المدينة المقدسة.. كيف لي أن أتسلل بهذه اللفافة البذيئة إلى بيت الخالة "باتروسينيو" الكنسي؟ كانت "تيتي" تتلصص باستمرار في غرفتي، وتحمل نسخة أخرى من المفاتيح وكانت حريصة على تفتيش الزوايا، وقراءة رسائلي والبحث في سراويلي.. ولك أن تتخيل حجم الغضب إذا عثرت في ليلة ما على ذلك القميص المبلل بشفتي، النتن من الخطيئة، ومكتوب عليه بخط اليد: "إلى صغيري البرتغالي الشجاع...!".

"لو كنت أعلم أنك سوف تقع في غرام التنانير في هذه الرحلة المقدسة، لكنت قد طردتك إلى الشارع مثل الكلاب!"، هكذا ستقول لي "تيتي"، عشية لقائي مع رجال القضاء والكنيسة، وأضيع أنا بسبب ترف عاطفي للحفاظ على ذكرى من بائعة القفازات، وأفقد الصداقة مع خالتي العجوز التي فزتُ بها بعد أن دفعتُ ثمنًا غاليًا من الصلاة على المسابح، ومن قطرات المياه المقدسة، والإهانات لعقلي الليبرالي؟ أبدًا.. لن يكون هذا!

وإن كنت لم أقم على الفور بإغراق اللفافة المشؤومة في ماء بركة عندما عبرنا أكواخ كولوني، فلأني لم أرد أن يكتشف "توبسيوس" الذكي جبن قلبي، لكني قررت أننا بمجرد دخول الليل علينا في جبال "يهودا"، فسوف أبطئ السير بفرسي، وبعيدًا عن أنظار المؤرخ، وبعيدًا عن "بوت" وفضوله، سأقذف

بقميص "ماري" الفظيع.. دليل خطيئتي ومهدد ثروتي بالزوال، وسرعان ما سوف تمزقه أسنان ابن آوى! وسرعان ما تهطل عليه أمطار الرب لتصيبه بالعفن! وعندما عبرنا قبر "صموئيل" وراء صخور عمواس واختفت مدينة القدس إلى الأبد من أمام عيني، رأت فرس "توبسيوس" نبع ماء، حُفر في وادي على الطريق، فتركت القافلة، وتخلت عن واجبها، وانطلقت ناحية الماء، بوقاحة وهمة عالية.. وقفتُ وصحتُ غاضبًا:

- اسحب اللجام، يا دكتور! انظروا لوقاحة الفرس! ما زالت تشرب للآن.. لا تستسلم! اسحب أكثر! ألا تلمسها يا رجل!

ولكن لا حياة لمن تنادي، كان الفيلسوف بمرفقيه البارزين وساقيه الطويلتين، يشد اللجام بينما أخذت عربته تهتز من تحته.. أسرعتُ أنا أيضًا ناحية النبع، حتى لا أترك الرجل وحده في تلك الصحراء الواسعة.. كان خيط من الماء يتدفق من قناة صغيرة من فوق صهريج نُحت في الصخر، وبالقرب منها رقدت عظام ذبيحة عظيمة لجمل عربي، وكانت فروع "الميموزا"، وحدها هناك، محترقة من أثر نيران القوافل، وعلى البعد، على إحدى التلال الصخرية، كان راعي أسود يسير بهدوء بين خرافه وخلفه سماء كالعقيق، يحمل رمحه على كتفه.. ووسط هذا الصمت الممل بدا صوت المياه المندفع من النافورة كالبكاء.. كان هذا الوادي مهجورًا لدرجة أنه أوحى إليَّ بالتخلص من قميص "ماري" مثل عظام الجمل العربي. شربتْ فرسُ المؤرخ بنهم، وأخذتُ أبحث هنا وهناك عن بئر أو بركة، عندما خُيّل إليَّ أني أسمع عند النبع، مع بكاء عين الماء بكاء عين بشرية أيضًا، واستدرتُ حول الصخرة التي كانت بارزة بشكل رائع، مثل مقدمة مركب شراعي، فوجدت امرأة تجلس القرفصاء تختبئ بين الصخور والأشواك، وتبكي ومعها طفل في حضنها.. وقد انتثر شعرها المجعد على كتفيها وذراعيها، تغطيها الملابس السوداء بالكاد؛ ودموعها تتساقط على

ابنها الذي نام في دفء حضنها، كانت الدموع أكثر تدفقًا وحزنًا من ماء النبع، وبدا كأنها لن تنتهي.. صحتُ مناديًا "بوت" المرح الذي أقبل مسرعًا بفرسه، وهو يمسك بعقب مسدسه الفضي، وتوسلتُ إليه أن يسأل تلك المرأة عن سبب تلك الدموع الغزيرة.. لكنها بدت مستغرقة في بؤسها، وحكت بصرامة عن كوخ محترق، وعن الفرسان الأتراك الذين مروا، وعن الحليب الذي جف من صدرها.. ثم ضمت الطفل إلى وجهها، واختنقت تحت الشعر الذي كان مبعثرًا وبدأت في البكاء مرة أخرى.

وضع "بوت" المرح عملة فضية في يدها؛ ودوَّن "توبسيوس" ملاحظاته حول هذه المصيبة ليتحدث عنها لاحقًا في مؤتمر "يهودية تحت حكم المسلمين".. وأخذتُ أتحسس جيوبي بحثًا عن النقود، وعندها تذكرت أنني قد أعطيتها في حفنة من يدي لذلك الزنجي خادم فندق "البحر المتوسط"، لكن خطرت لي فكرة مفيدة؛ أن ألقي في حجرها اللفافة الخطيرة وبها قميص "ماري"؛ وطلبت من "بوت" المرح أن يشرح للمرأة المنكوبة أن أيًّا من النساء الخاطئات اللاتي يسكنّ بالقرب من برج "داوود"، أو "فاطمة" البدينة أو "بالميرا"، أو المرأة السامرية، سيعطينها عملتين من الذهب لقاء هذا اللباس الفاخر، لباس الحب والحضارة.

وركضت الخيل صوب الطريق، والمرأة من خلفنا تدعو لنا من كل قلبها وهي تنتحب وتقبِّل ابنها الرضيع. واستأنفت القافلة المسير. سار الحوذي أمامنا، منفرج الساقين فوق الأمتعة، يغنى لنجم الزهرة بأن يرتفع ليضيء هذا الركن من سوريا، غنى بصوت حاد طويل وبه أنين، وفيه تغنى عن الحب وعن الله، وعن معركة بالرماح، وعن حقول الورود الدمشقية.

وبينما كنا نسير في فندق "جوزافات" في "يافا" العتيقة، كانت دهشتي عظيمة عندما رأيته جالسًا في البهو مهمومًا، يرتدي عمامة بيضاء منتفخة، إنه

البائس "ألبندرينا"! وضممته ضمة طحنت عظامه، وعندما ذهب "توبسيوس" مع "بوت" المرح تحت المظلة ليستعلما عن المركب الذي سيبحر بنا إلى أرض مصر، حكى لي الرجل قصته، وهو ينظف معطفي بالفرشاة، وأنه كان من المحزن أن يترك حبيبته، الإسكندرية، وأن فندق "الأهرامات" وتحميل الحقائب قد أصاب روحه بالملل الذي لا يُسبر غوره، وأن إبحارنا في مركب "الكايمان" إلى القدس قد أجج شوقه إلى البحار والمدن المليئة بالتاريخ، وإلى الحشود من كل حدب وصوب.. وأن يهوديًّا من "كويتش"، سيؤسس نزلًا في بغداد به صالة بليارد، قد استدرجه كي يعمل معه "مسجلًا". وكان معه نقود ادخرها من عمله المرير في مصر، وأنه سوف يخوض غمار هذه المغامرة بجانب مياه نهر الفرات الهادئة في أرض "بابل".. ولكنه وبعد أن تعب من حمل حقائب النزلاء جاء للقدس يزورها أولًا بعدم اكتراث، وربما حملته روحه على ذلك كما يفعل الرسل، طمعًا في أن يريح يديه على إحدى نواصي "طريق الآلام".

- وهل حصل سيدي على بعض الجرائد من لشبونة؟ أود أن أعرف كيف حال الشباب هناك.

وبينما كان يتمتم بكلماته تلك وهو حزين وعلى رأسه العمامة، كنتُ أسترجع بابتسامة ذكرياتي في أرض مصر الساخنة، وشارع "الراهبتان" المضيء، والمصلى المحاط بأشجار الموز، وقبعة "ماري" المصنوعة من الخشخاش.. وبشكل أكثر حدة، ساورتني رغبة في حبيبتي بائعة القفازات الشقراء مرة أخرى.. ما أجمل صراخها الحاني من شفتيها الغليظتين، عندما أقف تحت شرفتها بعد أن حرقتني شمس الشام، لكني صرت أقوى، وسأدخل عليها لأدهش قطها الأبيض! وقميص نومها؟ حسنًا! سأخبرها أنه في إحدى الليالي، وبالقرب من نبع الماء، سرقه مني الفرسان الأتراك تحت تهديد الرماح.

- قل لي "ألبندرينا"! هل رأيتها، "ماريكوينياس"؟ كيف حالها؟ أخبرني؟ هل ما زالت قصيرة بدينة؟

وخفض وجهه إلى الأرض، حيث أصابته فجأة حمرة الخجل.

- لم تعد هناك.. لقد رحلت إلى طيبة!

- إلى "طيبة"؟ حيث توجد الآثار؟ لكن هذا في صعيد مصر! هناك بالقرب من بلاد النوبة! ماذا ستفعل هناك؟

تمتم الرجل بحزن:

- ذهبت تمتع ناظريها.

تمتع ناظريها! فهمتُ ما يعنيه عندما حكى لي ذلك الأرستقراطي أن تلك المرأة ناكرة الجميل، وردة يورك، وزينة الإسكندرية، قد ذهبت مع رجل إيطالي ذي شعر طويل إلى طيبة لتصوير أطلال هذه القصور، التي كان يعيش فيها وجهًا لوجه مع رمسيس، ملك البشر، وآمون ملك الآلهة.. وذهبت "ماريكوكيناس" لتمتع ناظريها، وترى بها ظل الجرانيت الكهنوتي المتقشف، بشمسيتها المغلقة وملابسها الحديثة وقبعتها المصنوعة من الخشخاش.

- يا لها من وقحة!

صرختُ، وتقطعت بي السبل.

- إذًا مع إيطالي؟ ويروق لها؟ أم مجرد عمل؟ أخبرني، أيروق لها؟

تمتم "ألبندرينا":

- بل تهيم به.

وتنهد تنهيدة هزت فندق "جوزافات".. لكني وسط شعوري العذاب والعاطفة، عصفت بنفسي شكوك بغيضة.

- لقد تنهدت، "ألبندرينا"! هل غدرت بك أيضًا!

وخفض وجهه بشكل كبير لدرجة أن العمامة تدحرجت على البلاط، وقبل أن يصل إليها أمسكت بذراعه الناعمة بقوة.

- قل لي الحقيقة، "ألبندرينا"؟ هل نلتَ منها؟

كان وجهي الملتحي يلتهب، لكن "ألبندرينا" كان مفعمًا بالحيوية، تظهرُ عليه آثار أرضنا الفتيّة، أرض النبيذ والخيلاء. وتحول الخوف إلى غرور، ورمقني بنظرة من عينيه:

- لقد نلتُ منها أيضًا!

أطحت بذراعه بعيدًا، وامتلأت بالغضب والاشمئزاز، حتى هذه، مع هذا! آه، إنها الأرض! الأرض! وما هي إلا كومة من الأشياء الفاسدة، تدور في فلك السماء مغرورة كالنجوم.

- وقل لي "ألبندرينا"، أخبرني، هل أعطتك قميصها أيضًا؟

- أعطتني بلوزتها الداخلية.

أعطته أيضًا ملابس بيضاء! ضحكتُ بمرارة، ويدي على خاصرتي.

- قل لي.. هل كانت تدعوك بـ"صغيرها البرتغالي الشجاع" أيضًا؟

- لأني كنت أعمل مع الأتراك وكانت تناديني "العربي الظريف".

وبينما كنت أتقلَّب على الأريكة، وأخربش فيها بأظافري، وأضحك في ذهول، وازدراء يائس لكل شيء... جاء "توبسيوس" و"بوت" المرح مسرعيْن.

- ماذا...؟

- لقد جاءت من "أزمير" سفينة ستقلع بعد ظهر اليوم إلى مصر، وهي مركبنا الحبيب "كايمان"!

- جيد!

صرختُ، وأنا أضرب البلاط بقدمي.

- الحمد لله أني سئمت من المشرق! فلم ألقَ منه سوى الشمس الحارقة والخيانات والأحلام المروعة والضرب بالحذاء على المؤخرة! لقد سئمتُ!

وصرتُ أصيح هكذا وأنا غاضب. ولكن في عصر ذلك اليوم، وعلى الشاطئ أمام المركب الأسود الذي سيأخذنا إلى سفينة "كايمان"، داخلني شوق كبير إلى فلسطين، وإلى خيامنا التي أقيمت تحت روعة النجوم، وإلى السير في القافلة والتغني مرورًا بالأطلال تحمل أسماء المشاهير.

ارتعدت شفتاي عندما مد "بوت" يده متأثرًا بعلبة التبغ الخاصة به وقال:

- سيد "رابوزو"، إنها السيجارة الأخيرة التي يمنحك إياها "بوت" المرح.

وفرت دمعة من عيني عندما مد "ألبندرينا" ذراعيه النحيلتين في صمت.

وفي المركب الصغير، اتكأت على خزائن الآثار، وما زلتُ أنظر إلى الشاطئ، فرأيته يلوّح لي حزينًا بمنديل مربع وبجانبه "بوت" الذي كان يلقي لنا بالقبلات، وقد غاص حذاؤه السميك في الماء.. ولما صعدنا "كايمان" بالفعل، اتكأتُ على السور الحديدي، وأنا أنظر إليه قابعًا بلا حراك على حجارة الرصيف، ممسكًا بيديه عمامته البيضاء الكبيرة ضد نسيم البحر المالح. يا له من تعيس.. "ألبندرينا"! أنا فقط، في الحقيقة، الذي أفهم عظمتك! كنت آخر الجنود البرتغاليين، سليل عائلة "البوكيرك"، من السلالة النقية، من الرجال الأقوياء الذين كانوا يذهبون في حملات إلى الهند! قادك العطش الإلهي نفسه للمجهول، كما قادهم، إلى هذه الأرض من الشرق؛ حيث تصعد النجوم التي تنشر الضوء والآلهة الذين يعلّمون الإيمان.. أنت فقط لم يكن لديك بالفعل، كما كان لدى القدماء، المعتقدات البطولية الباسلة التي تنتج أعمالًا بطولية، وأنت لا

تمشي مثلهم بمسبحة طويلة وسيف عظيم، لتفرض على الآخرين مُلكك وإلهك؛ فليس عندك إله تحارب من أجله! ولا ملك تخوض غمار البحر من أجله.. لذلك فإنك بين شعوب الشرق، سوف تقضي نحبك في المهن الوحيدة التي تنطوي على الإيمان وعلى المثل الأعلى، وعلى قيم البرتغاليين الحديثة؛ بأن تتكئ على النواصي، أو أن تحمل متاع الآخرين مع الأسف. وضربت مجادف "الكايمان" عباب البحر.. ورفع "توبسيوس" غطاء رأسه الحريري، وصاح ناظرًا صوب "يافا"، التي حل ظلام الغسق على صخورها السوداء بين بساتينها الخضراء الداكنة:

- وداعًا، وداعًا إلى الأبد، يا أرض فلسطين!

ولوحتُ أنا أيضًا بخوذتي:

- وداعًا، وداعًا، أيتها المقدسات!

كنتُ أتحرك ببطء بعيدًا عن سور السفينة عندما لامست عباءة طويلة لامعة لإحدى الراهبات؛ وتحت ظل غطاء الرأس، الذي تحول إليَّ بخفة، رأيتُ بريق عينين سوداوين تنظران إلى لحيتي الكثيفة.. يا للروعة! كانت الأخت القديسة نفسها التي حملت على ركبتيها العفيفتين قميص "ماري" المدنس، ونحن في هذه المياه المذكورة في الكتاب المقدس! كانت هي نفسها! لماذا وضعها القدر في طريقي مرة أخرى، على ظهر مركب "كايمان" الضيق، تلك الوردة الكنسية الصغيرة، التي تذبل قبل أن تتفتح بالفعل؟ من يدري! فلعل حرارة رغبتي تعيد في هذه الزهرة النضارة من جديد، بدلًا من أن تبقى ذابلة إلى الأبد وغير مجدية، منكفئة عند أقدام تمثال إله! وهي تأتي هذه المرة دون حراسة من زميلتها الراهبة الأخرى، ممتلئة الجسم ذات النظارات! لقد تركها القدر بلا حماية، مثل الحمامة في الصحراء.

ثم راودني الأمل الملتهب في حب راهبة أقوى من خوفي من الله! أملٌ في أن يقع هذا الصدر الحبيس تحت رداء العفة الصوفي الثقيل ويرتجف مستسلمًا بين ذراعي القويتين.. وقررت أن أهمس لها لاحقًا: "يا أختاه، إني أذوب عشقًا فيك!"، وشعرتُ بلهيب في جسدي، فبرمتُ شاربي، وسرت ناحية الراهبة الحلوة، والتي وقفت خلف سور تسبح بيدها الشاحبة على مسبحة الصلاة.. لكن فجأة، انزلقت قدماي المغرورتان؛ فوقعتُ فجأة مندهشًا.. يا لبؤسي! ومهانتي! كان دوار البحر الملعون.. ركضت إلى الحافة؛ ولوثت مياه البحر الزرقاء النقية؛ ثم تخبطتُّ إلى السرير، ورفعت فقط رأسي من فوق وسادتي عندما شعرت أن تيارات "كايمان" تغوص في المياه الهادئة التي سقطت فيها هلوب المراكب الذهبية عندما كانت كليوباترا تفر من "أكتيوم" في عجلة من أمرها!

ومرة أخرى، بينما كنت أرتعش وأرتجف رأيتُكِ يا أرض مصر السفلى، بجوك الحار ولونك الذي يشبه لون الأسد! وحول مآذنك الجميلة تحلق الحمائم الهادئة. والقصر قابع عند حافة الماء بين أشجار النخيل.. كان "توبسيوس" يحوم فوق رأسي، يقص عليَّ بعلمه الغزير نوادر حول فنار الإسكندرية القديم، وغادرَتْ الراهبةُ الذابلة "الكايمان" كحمامة الصحراء تهرب من الحدأة؛ لأن الحدأة ضمت جناحيها عند الطيران وشعرت فجأة بالغثيان!

في عصر ذلك اليوم، وفي فندق "الأهرامات"، سُرِرتُ عندما علمت أن هناك باخرة تحمل ماشية، وتدعي "السيد البطل"، سوف تغادر فجرًا إلى أراضي البرتغال المباركة! ومن فوق حنطور ظريف مع الدكتور "توبسيوس" فقط، تجولتُ للمرة الأخيرة في ظلال ترعة المحمودية العطرة. وقضيت الليلة القصيرة في شارع رائع.. يا أهل بلدي، اذهبوا إلى هناك، إذا كنتم تريدون أن تتذوقوا مباهج الشرق؛ فمصابيح الغاز دون محابس تصفر على الدوام وهي ملتوية في مهب الريح؛ والبيوت الخشبية المنخفضة، تغلق أبوابها فقط بستارة بيضاء،

فيُرى ما بـداخلها.. كـل شيء تنبعـث منـه رائحـة خشـب الصـندل والثـوم.. والنسـاء جالسـات عـلى الحصـير في قمصـانهن، يـربطن الزهـور في ضـفائرهن، يـدعونك برقـة، وبلغات عدة: My Lord،Eh ،Eh môssiu! وخلدتُ إلى النوم في ساعة متأخرة، خائر القوى.. بعدما مررتُ بشارع الراهبتين، ولاحظتُ يدًا مطلية باللون الأرجواني على بـاب متجر مغلق، فانفطر قلبي لرؤيته.. وضربته بعصاي؛ فقد كان هذا آخـر مخـدع شـهد مغامراتي الطوال.

في الصباح، جاء السيد "توبسيوس" المخلص، يلبس حذاءً ذا رقبة طويلـة، لمرافقتـي إلى سقيفة الجمارك.. واحتضنته طويلًا بذراعي المرتجفتين:

- وداعًا، يا زميلي، وداعًا! اكتب لي على رقم 47 ميدان "سانتانا".

فهمس وهو يضمني:

- تلك الريالات الثلاثين ألفًا، سأرسلها إلى هناك.

احتضنته طويلًا، حتى أتجنب الحديث عن المال.. ثم، قلت له وأنا أضع قدمي على مقدمة القارب الذي سيقلني إلى سفينة "السيد البطل":

- أستطيع أن أقول لـ"تيتي" إن تاج الشوك من الشجرة نفسها.

ورفع يديه، وكأنه أوتي أسباب جميع العلوم، وقال:

- يمكنك أن تخبرها على ضمانتي بأنه هو نفسه، شوكة شوكة..

وخفض أنفه الشبيه بمنقار طائر اللقلق تزينه النظارات، وقبّلنا بعضـنا بعضًـا عـلى وجنتينا مثل شقيقين.

وأخـذ الزنـوج يجـدفون.. وحملـتُ عـلى رجـلي صـندوق أعظـم الآثـار قدسـية، ولكـن عنـدما أبحـر القـارب الشراعـي الـذي يقلنـي عـلى المياه الزرقـاء مـر أمـامي قـارب بطـيء آخـر، يتجـه مـن يجـدفون فيـه صـوب الـقصر القـابع بـين أشـجار

النخيل.. وفي لمحة رأيت العباءة السوداء، وغطاء الرأس حاسرًا.. نظرتْ نظرة عطشى طويلة، للمرة الأخيرة، إلى لحيتي.. وقفتُ، وأخذت أصيح: "يا فتاتي الصغيرة، يا مغازلة!" لكن الريح أخذتني بالفعل. وهي، في قاربها، شاحت بوجهها عني، وعلى الصدر المرهف الذي تجرأ على الغرام، ضغط الصليب الحديدي الغيور بثقله، وبشكل أقوى، على قلبها!

صرتُ وحيدًا بلا هدف، ولكن، من يعلم؟ لعل هذا القلب كان هو الوحيد في هذا العالم الفسيح الذي يمكنني أن أستريح في أحضانه كملجأ آمن.. لكن ماذا! هي مجرد راهبة، وأنا مجرد ابن أخت.. هي ذاهبة إلى الإله الذي تعبده، وأنا ذاهب إلى خالتي.. وعندما تقابل قلبانا في هذه المياه، وشعرا بالوفاق، ودق كل منهما للآخر في صمت، كان قاربي الشراعي يجري مرحًا ناحية الغرب، بينما سار قاربها الأسود يجدف ببطء صوب الشرق.. فراق دائم للنفوس المتآلفة، في هذا الغزو من الجهد الأبدي والنقصان الأبدي!

المفاجئة

بعد مرور أسبوعين، وصلتُ في حنطور يقوده رجل رث الملابس إلى ساحة سانتانا، ومن الباب الموارب للعربة مددت رجلي لأضعها على الرّكّاب، ورأيت بين الأشجار العارية من الأوراق البوابة السوداء لمنزل "تيتي"! وكنت بداخل هذه العربة الفظة أتألق أكثر من القيصر الفاتح، المتوج بأوراق الشجر الذهبية، على عربته الضخمة، عائدًا من معاركه لإخضاع الشعوب والمعبودات.. كان هذا بالتأكيد من باب ولعي بالاستعراض تحت سماءٍ شديدة الزرقة والصفاء تشبه سماء شهر يناير، وفي شوارع مدينتي لشبونة الهادئة ذات اللون البني كلون الحجر الجيري المتسخ، وهنا وهناك تتدلى الأعلام الخضراء من النوافذ، مثل الجفون المثقلة بالنعاس والخمول، وكان ذلك، قبل كل شيء، يقينًا مني بالتغيير "الجليل" الذي سوف يحدث في ثروتي العائلية وتأثيري الاجتماعي.

حتى ذلك الحين، ماذا كنتُ أمثل في منزل السيدة "باتروسينيو"؟ " تيوديريكو"، الصبي الذي، على الرغم من حصوله على الليسانس ورغم لحيته

الكثيفة، لا يمكنه أن يأمر بسرج حصانه كي يذهب ليقص شعره في "بايشا" دون أن ينتظر الإذن من "تيتي".. والآن؟

أستاذنا "تيوديريكو"، الذي اكتسب، بزيارته للأماكن المقدسة سلطة شبه بابوية! ماذا كنتُ هناك، في مقهى "شيادو" بين أقراني وأهل مدينتي؟ "رابوزو" الشاب، الذي يمتلك حصانًا.. أمّا الآن؟ "رابوزو" العظيم الذي تغرَّب ليحج إلى الأراضي المقدسة، مثل "شاتوبريان"، وبما أنه سافر إلى أراض بعيدة وقبّل الشركسيات البدينات فإنه يمكن أن يتحاور مع علية القوم في جمعية الجغرافيا أو حول مرض الجدري.. أوقف الحوذي الحنطور، وقفزتُ، وصندوق الأثر المقدس في أحضاني.. ولمحتُ في صدر الفناء الكئيب المبلط بالحجر، السيدة "باتروسينيو داس نيفيس"، ترتدي الحرير الأسود، المطرز بالدانتيل الأسود، تبتسم لي بوجهها الشاحب، تحت النظارات الداكنة!

- أوه، "تيتي"!

- أوه، ولدي!

وضعت الصندوق المقدس، وسقطت على صدرها الجاف.. وشممت رائحة النشوق والمصلى والعمل الدؤوب تفوح منها، كانت مثل الروح التي تحيط بي كي تعيدني إلى روتين البيت من جديد.

- آه، يا بني، لقد عدت ببشرة داكنة!

- خالتي، جئتُ لك بأشواق كثيرة من الرب يسوع.

- أعطنيها جميعًا.. امنحها كلها لي!

وأمسكت بي، وضمتني إلى صدرها الجامد، وهي تلثم بشفتيها الباردتين لحيتي بكل احترام كما لو كانت لحية تمثال من الخشب للقديس "تيوديريكو"، وعلى جانب من الفناء جلست "فيسنسيا" تجفف دمعها بطرف

المئزر الجديد.. كان الحوذي قد أنزل حقيبتي الجلدية.. ثم، رفعتُ صندوق خشب الصنوبر الثمين المقدس، وأنا أغمغم بتواضع: "هذا هو الأثر المقدس الذي يخص الرب!".

ارتعدت اليدان الغليظتان للسيدة البشعة عندما لمست ذلك الصندوق الذي يحتوي على السر المعجز لصحتها وحمايتها من آلامها.. صمتت، تيبست، وضمت إليها الصندوق بحذر، تسلقت السلمات الحجرية، عبرت غرفة سيدة الأحزان السبعة، ودلفت إلى المصلى، وأنا خلفها، منتفخ الأوداج، ألبس خوذتي، وأتمتم بصلواتي "تبارك الرب، تبارك الرب!".. أمَّا الطباخة "يوسابيا" التي سقطت كل أسنانها، فانحنت في الممر عند مرورنا كما لو كانت تشاهد مرور القربان المقدس.. وفي المصلى، وأمام المذبح الذي مُلأ بزهور الكاميليا البيضاء، كنت مثاليًا.. لم أركع، ولم أشر بيدي على الوجه والصدر بعلامة الصليب، لكني فقط أشرت بأصبعين من مسافة بعيدة إلى يسوع الذهبي، المسمر على صليبه، بحركة مألوفة.. نظرت إليه، بوجه باسم رقيق، كما لو كان صديقًا قديمًا بيننا أسرار قديمة. تفاجئت "تيتي" بهذه العلاقة الحميمة مع الرب.. وعندها جلسَتْ على السجادة تاركة لي الوسادة المخملية الخضراء، كان ذلك يعني الكثير سواء بالنسبة إلى مخلصها أو لابن أختها، رفعتُ يدي بالصلوات.. وعندما انتهت صلوات الحمد للرب على سلامة وصولي، تذكرتْ وهي لا تزال راكعة، وبتواضع:

- يا بني، حريّ بي أن أعرف ما هو هذا الأثر، كي أعرف كم شمعة أوقدها، وكي أقدم له الاحترام اللائق.

اقتربتُ، وركبتي ترتعد:

- سترينه قريبًا بما فيه الكفاية.. في الليل، يتم فك الآثار.. هذا ما أوصاني به بطريرك القدس، على أية حال، أشعلي أربع شمعات، فحتى خشب الصندوق مبارك!

أضاءتها، في خضوع جمّ؛ ووُضع الصندوق على المذبح بعناية وتقوى؛ وطبعتْ عليه قبلة طويلة بصوت، وغطته بقماش دانتيل رائع.. ثم، أشرتُ بإصبعين كالأساقفة بعلامة الصليب على الصندوق لأمنحه البركة.

كانت تنتظر، ونظارتها السوداء تحملق فيَّ، غارقة في الحنان:

- والآن يا بني، الآن؟

- الآن وقت العشاء، "تيتي"، فأنا أتضور جوعًا.

وأسرعت السيدة "باتروسينيو"، وشمرت تنورتها وتوجهت إلى "فيسنسيا".. وذهبتُ إلى غرفتي التي فرشتها "تيتي" بالحصير من جديد كي أفض حقيبتي، وعُلقت ستائر البيت منتشاة بالصمغ؛ وعَطّر دُرج الخزانة فرعٌ من زهر البنفسج العطر، وجلسنا على مائدة الطعام لساعات طويلة، حيث كان طبق الأرز الحلو يحمل الأحرف الأولى من اسمي، وتحتها قلب وصليب، رسمتها "تيتي" بالقرفة على الطبق، ورويت رحلتي المقدسة.. حكيت عن أيام الورع التي عشتها في مصر، التي قضيتها في تقبيل آثار أقدام العائلة المقدسة في رحلتهم هناك واحدًا تلو الآخر، وحكيت عن هبوطنا في "يافا" مع صديقي "توبسيوس"، وهو باحث ألماني، ودكتور في اللاهوت، وعن خبز القربان اللذيذ الذي تذوقناه هناك، وعن تلال "يهودا" المغطاة بالحشائش والتي كنت أتوقف فيها بفرسي، وأركع، وأهدي كل القديسين وكل المقاصير تحيات الخالة "باتروسينيو".. وحكيتُ عن القدس، صخرة صخرة! و"تيتي" تستمع، دون أن تتناول الطعام، وتقبض على يديها، وتتنهد بدهشة ورعة:

- يا لها من روعة! كم هو مقدس سماع هذه الأشياء! يا إلهي، إني أحس بالفرحة داخلي!

ابتسمتُ بتواضع.. وفي كل مرة أطري عليها تبدو لي "باتروسينيو داس نيفس" أخرى غير التي أعرفها.. وصارت نظراتها السوداء العميقة، التي طالما كانت تلمع بقسوة، تفيضُ بالحنان، وصوتها الذي فقد قساوته الحادة، صار يخطئ ويصدر عنها ناعمًا ويهمس بحنان ورقة.. نعم صارت نحيفة لكن في عظامها الجافة بدا لي الدفء الإنساني يجري في دمائها! وفكرتُ، "لا بدَّ أن تكون مثل شال الحرير في يدي"، وأسرفتُ في تقديم الأدلة على علاقتي الحميمة بالسماء.

قلت لها: "في إحدى الليالي على جبل "الزيتون"، بينما كنت أصلي، فجأة مر بي ملاك..."، وقلت: "تخليتُ ذات مرة عن حرصي وذهبت إلى قبر الرب، وفتحتُ الغطاء، وأخذت أبكي في الداخل...".

وهي تتكئ برأسها على يدها مندهشة أمام هذه الامتيازات العظيمة، التي يضارعني فيها فقط "سان أنطونيو" أو "سان براس".

ثم عدّدت صلواتي العظيمة، وصياماتي الفظيعة.. وفي الناصرة، عند سفح النافورة حيث كانت السيدة العذراء تملأ الجرة، صليت ألف مرة "السلام عليكِ يا مريم"، على ركبتي، تحت المطر.. وفي الصحراء حيث عاش القديس يوحنا، كنت أعيش مثله على أكل الجراد.. و"تيتي" تستمع، وقد امتلأت نفسها بالرضا:

- آه، حبيباتي، الصغيرات، الجراد! وماذا أحب فيه صديقنا القديس يوحنا الغني! فقد كان مضطرًا للعيش في الصحراء! وقل لي يا بني، ألم يؤذيك أكله؟

- بل زاد وزني، "تيتي"! لا شيء، هذا ما قلته لصديقي الألماني: "إذا رأينا حشرة كهذه فلا بدَّ من استغلالها لإنقاذ أرواحنا...".

والتفتت إلى "فيسنسيا" التي كانت تبتسم، مندهشة، في مكانها التقليدي بين النافذتين، تحت صورة البابا "بيوس التاسع" والنظارة القديمة للقائد "جودينيو":

- ما رأيك يا "فيسنسيا"، ألا ترين أنه رجع كامل الفضائل! نعم، لقد عاد محملًا بها.

- يبدو لي أن ربنا يسوع المسيح لم يكن مستاءً مني!

رددتُ عليها، وأنا أمد ملعقتي لأتناول حلو "السفرجل".

وصارت السيدة الحاقدة تتأمل كل حركاتي (حتى احتسائي للمرق) بإجلال، كمن يتأمل حركات ثمينة مباركة.

ثم قالت وهي تتنهد:

- ثمة شيء آخر، يا بني.. هل جلبت لنا من هناك بعض الصلوات، من تلك الصلوات الفعالة، التي تعلمتها على يدي البطاركة، والرهبان هناك...؟

- معي صلوات عظيمة، "تيتي"! أحضرت الكثير، منسوخة من مذكرات القديسين، وهي فعالة لجميع الأمراض! معي للسعال، ولأدراج الخزانة عندما لا تعمل، ومعي صلوات تُتلى للفوز باليانصيب.

- وهل لديك للتشنجات؟ إنني في بعض الأحيان، في الليل، يا بني.

- أحضرت لك صلاة لا تخطئ في التشنجات.. أعطاني إياها راهب صديق، يظهر له باستمرار الطفل يسوع...

قلتها - وأنا أشعل سيجارة، لم أكن أجرؤ نهائيًا على التدخين أمام "تيتي"! كانت دائمًا تكره التبغ، أكثر من أي ذنب آخر - ولكن الآن جرت كرسيها بشراهة ناحيتي كمن يقترب من صندوق مقدس، مُلأ بتلك الصلوات التي تهيمن على عدم خضوع الأشياء، وتهزم كل الأمراض، وتخلد العجائز في الدنيا.

- عليك أن تعطيني إياها يا بني.. إن ذلك من أعمال البر!

- آه، "تيتي"، ولم لا! كلها لك! ثم أخبريني، "تيتي".. كيف حال المرض معك؟

وتأوهت آهة تنم عن ألم لا نهائي.

- حالي سيئ، سيئ جدًّا.

وقالت إنها تشعر بالوهن يومًا بعد يوم، كما لو كانت ستتحلل.. على أية حال، فهي لم تمت قبل أن تشعر بالرضا بأنها أرسلتني إلى القدس لزيارة قبر الرب، وأنها كانت تتوقع منه أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار، وأن يشفع لها ما أنفقته، وما تحملته في بعدي عنها عند الرب في تخفيف آلامها، لكن حالها كان يسير من سيئ لأسوأ!

وأدرت وجهي لأخفي ومضة الفرح التي أنارت وجهي.. ثم أفرطتُ في تشجيعها.. ما الذي قد تخشاه "تيتي"؟ وقلت لها:

- الآن، عليكِ "أن تتشبثي بالحياة" وتتغلبي على قوانين التحلل الطبيعي، ألا تملكين الآن أثرًا مقدسًا من الرب؟ وثمة شيء آخر، "تيتي"؛ كيف حال الأصدقاء؟

وأخبرتني بالخبر المحزن.. لقد صار "كاسيميرو"، أفضل الأصدقاء وأكثرهم امتنانًا لها، طريح الفراش من يوم الأحد بعد أن تورمت ساقاه، وأن الأطباء قالوا إنه استسقاء، لكنها ترجِّح إصابته بطاعون أصابه بعد عدوى من شخص جليقي.

- على أية حال، فالرجل هناك! وأنا أفتقده، أفتقده كثيرًا.

- آه يا بني، لن تتخيل! إن ما صبّرني قليلًا على فراقكما هو ذلك الشاب، الأب "نيجراو".

- "نيجراو"؟

رددت الاسم الذي يعني "البقعة السوداء" في دهشة.

- نعم! لم أكن أعرفه.. الأب "نيجراو" كان يعيش عند سفح "توريس".. لم يكن يأتي إلى لشبونة مطلقًا، لأن جوها يمرضه، بما فيه من كسل.

وقالت إنه كان يأتي فقط من أجلها، ولكي يساعدها في شئونها، وإن القديس ضحى بالعيش الهانئ في قريته، وإنه رقيق جدًّا، وخدوم جدًّا.. نعم! إنه رجل كامل!

- لقد أسدى لي صنائع معروف لا تحصى ولا تعد يا بني.. ناهيك عن الصلوات التي صلاها من أجلك كي يحميك الرب في هذه الأراضي التركية.. والصحبة الدائمة لي! فهو يأتي كل يوم هنا لتناول العشاء معي، لكنه لم يرد أن يأتي اليوم، حتى قال لي شيئًا جميلًا جدًّا: "لا أريد، يا سيدتي، أن أعكر صفو جلستكم".. انظر كيف يتكلم، انظر للباقته، فهو دائمًا يقول أشياء تمس الأحاسيس.. آه، لا يوجد من يضاهيه في هذا.. لا يمكنك أن تتخيل، فهو يقدم الهدايا.. إنه رائع!

هززت سيجارتي، وقد جف حلقي.. لماذا يأتي كاهن "توريس" على خلاف العادات ليشارك "تيتي" العشاء كل يوم؟ وقلت بنبرة متسلطة:

- هناك في القدس، يأتي الكهنة والبطاركة لتناول العشاء يوم الأحد فقط.. أمَّا هذا فقد تجاوز الحد في الفضيلة.

جن الليل؛ فأشعلت "فيسنسيا" مصابيح الغاز في الردهة؛ ولما عرفت بدعوة "تيتي" للأصدقاء كي يستقبلوا الحاج، وأنهم على وشك الوصول، دلفت إلى غرفتي لأرتدي معطفي الأسود.. ثم نظرت إلى وجهي في المرآة، وابتسمت بفخر وقلت لنفسي: "آه، تيوديريكو، لقد فزت!".

نعم، لقد فزت! انظر كيف رحبت بي "تيتي"! وإلى كم الاحترام! وإلى إعجابها بي.. وقلدتها بسخرية: "حالي سيئ، سيئ جدًّا". في القريب العاجل سوف يدق قلبي فرحًا مع كل دقة على نعشها.. ولا شيء يمكن أن يخرجني من وصية السيدة "باتروسينيو"! لقد أصبحتُ بالنسبة لها القديس "تيوديريكو"!

وأخيرًا، اقتنعت المرأة العجوز المتعفنة أن تترك لي ثروتها.. كانت تنوي التبرع بها كلها ليسوع والرسل وإلى الكنيسة الأم المقدسة!

سمعت صرير الباب، ودخلت "تيتي" ترتدي شالها الحريري المطرز القديم على الكتفين.. بها شيء غريب، يبدو لي أن السيدة "باتروسينيو داس نيفيس" القديمة قد عادت؛ القاسية، والفظة، والمتسلطة، والتي تمقت الحب وتعدُّه شيئًا قذرًا، وتكره الرجال الذين يمشون وراء التنانير! وبالفعل! فقد صارت نظاراتها جافة من جديد، تلمع، وهي تحملق بشكل مريب في حقيبتي.. يا للسماء! لقد عادت السيدة "باتروسينيو" القديمة.. كانت يداها المطويتان على الشال شاحبتين، ومطويتين كالمخالب، وتمسكان بحوافه، وتتحرق شوقًا لتفحص ملابسي البيضاء، وارتسمت على شفتيها النحيلتين علامات الاشمئزاز، والمرارة! لكنه سرعان ما أتاني إلهام من الرب، وأمام الحقيبة، فتحت ذراعي بجرأة:

- صحيح! إليك "تيتي" الحقيبة التي جالت شوارع القدس.. ها هي مفتوحة على مصراعيها، لكي يرى العالم كله أنها حقيبة رجل دين! كما كان يقول صديقي الألماني، الذي كان يعرف كل شيء: "اسمع يا "رابوزو"، أيها القديس الصغير، عندما ترتكب الخطيئة في رحلة ما، وعندما يتحلل المرء من القيم، ويسير وراء التنانير، فإن حقيبته تفضحه دائمًا.. مهما حاول أن يخبئ، فإن الأدلة تتساقط منها، وغالبًا ما ينسى شيئًا تفوح منه رائحة الخطيئة!".. كان يقول لي ذلك دومًا، قالها حتى أمام أحد البطاركة.. ووافقه البطريرك الرأي؛ لذا أقول لكِ، هذه حقيبتي مفتوحة، دون خوف.. يمكنك تفحصها، ويمكنك أن تشمي رائحتها.. إن ما يفوح منها هو رائحة الدين! انظري يا "تيتي"، انظري.. هذه سراويلي وهذه جواربي، وهي لا يمكن الاستغناء عنها، إذ إن المشي عاريًا يعد ذنبًا.. أمَّا الباقي، فكله مقدس! مسبحتي، كتاب الصلاة الخاص بي، وصور القديسين على القماش، من أجود ما يكون، وكلها من القبر المقدس.

- لديك هناك بعض اللفافات!

همست السيدة المثيرة للاشمئزاز، وهي تشير بإصبعها الكبير النحيل.

فتحتها لها بسرعة، بسعادة.. كانت زجاجتين مملوءتين بمياه من نهر الأردن! ووقفت جادًا أمامها، مرفوع الرأس.. وقفت أمام السيدة "باتروسينيو" بزجاجة من السائل المبارك في كفي.. ثم إنها، بنظاراتها الحانية من جديد، قبّلت بإيمان الزجاجتين، وسال بعض من لعابها على أظافري.. ثم، عند الباب، تنهدت، وقد استسلمت بالفعل:

- انظر يا بني، أنا حتى أرتعش.. فقد راقني كل ما رأيتُ!

وغادرت.. ومكثتُ أنا أهرش ذقني.. نعم، لا يزال هناك ظرف من شأنه أن يحرمني من وصية "تيتي"! وهي أن يظهر أمامها دليل مادي وملموس على مغامراتي العاطفية، لكن كيف سيظهر في هذا العالم من حولي؟ فكل سقطاتي السابقة كانت مثل الأبخرة المتناثرة للنار المطفئة، والتي لا يمكن لأي جهد أن يشعلها مرة أخرى. وخطيئتي الأخيرة - التي ارتكبتها في بلاد بعيدة، في مصر القديمة - كيف سيأتي خبرها إلى "تيتي"؟ لا يمكن لأي إنسان أن يجلب إلى ساحة "سانتانا"، الشاهدين الوحيدين لهذه الخطيئة؛ فبائعة القفازات مشغولة في الوقت الحالي بالتنزه بقبعتها المصنوعة من الخشخاش بتأمل حجر الصوان من عصر رمسيس في طيبة، وأمَّا الدكتور فهو معتكف في أحد الأقسام الدراسية في حرم جامعة ألمانية قديمة جدًّا، يبحث في تاريخ "آل هيرودس".. وما عدا هذه الزهرة الفاجرة وهذا العمود العلمي، لا أحد على وجه الأرض يعرف نزواتي المحرمة في مدينة البطالسة الجميلة.

علاوة على ذلك، فإن الدليل الرهيب على مغامرتي مع "ماري" الدنيئة وهو قميص النوم المعطر برائحة البنفسج موجود هناك يغطي الآن في صهيون

خصر شركسية نحيل، أو صدر برونزي لنوبية من كوش، أمَّا الورقة التي كتبت فيه: "إلى حبيبي البرتغالي الصغير الشجاع" فلا بدَّ أنها قد احترقت في الموقد.. بالفعل، سوف يذهب القميص ويبلى في خدمة الحب الشاقة، وعندما يتمزق ويتسخ ويبلى سوف يُقذف به سريعًا إلى نفايات القدس العلمانية! نعم، لا شيء يمكن أن يحول بين طموحي الجارف العادل وبين صرّة "تيتي" الخضراء.. لا شيء، باستثناء جسدها العجوز، تلك الشمطاء القاسية، التي تسكنها شعلة حيوية عنيدة لا تريد أن تنطفئ! يا لحَظّي الرهيب! إذا عاشت "تيتي" العنيدة الشرسة، حتي يتفتح القرنفل في العام المقبل!

لم أتمالك نفسي. قفزت عاليًا، وصرخت يائسًا، وكلي شوق إلى رغبتي:

- يا مريم العذراء، اجعليها تقضي نحبها بسرعة!

في تلك اللحظة دق جرس الفناء الغليظ.. وكنت سعيدًا لأني أدركتُ، بعد طول البعاد، النقرتين القصيرتين الخجولتين لـ"جوستينو" المتواضع؛ وأكثر سعادة عندما ميزتُ العجيج المهيب للدكتور "مارجريد"، وعلى الفور فتحت "تيتي" باب غرفتي، بارتباك جليّ:

- "تيوديريكو"، يا بني، اسمع! لقد فكرت كثيرًا.. ويبدو لي أن الكشف عن الآثار المقدسة من الأفضل أن يكون بعد مغادرة "جوستينو" و"مارجريد"! آه، إني أحبهما كثيرًا، إنهما رجلان فاضلان جدًّا، لكنني أظن أنه بالنسبة لحفل كهذا، من الأفضل أن يحضره فقط أناس من الكنيسة.

إنها، بتفانيها، اعتبرت نفسها من الكنيسة.. وأنا، بعد رحلتي، اعتبرتني شخصًا من السماء تقريبًا.

- لا، يا "تيتي".. لقد أوصاني بطريرك القدس أن أفضها أمام جميع أصدقاء الأسرة، في المقصورة، على ضوء الشموع.. هكذا تكون أكثر فعالية.. وانظري، أخبري "فيسنسيا" أن تأتي لتأخذ الحذاء لتنظفه.

- أنا أعطيها إياه! أهذا هو؟ إنه متسخ، نعم إنه كذلك! ها قد رأيته، يا بني، ها قد رأيته!

وحملت السيدة "باتروسينيو داس نيفيس" حذائي! السيدة "باتروسينيو داس نيفيس" أخذت حذائي!

آه، لقد تغيرت! تغيرت كثيرًا! ورسمت على رابطة عنقي الحريرية الصليب المالطي، وأيقنت أنه منذ ذلك اليوم سوف أحكم هنا، في "كامبو دي سانتانا"، من العلياء، بحكم قداستي، وأني كي أسرع من قدوم الموت البطيء، ربما كان عليَّ أن أضرب تلك المرأة العجوز.

كم كانت حلوة بالنسبة لي لحظة الدخول للغرفة، لألتقي بأصدقائي الأعزاء، في معاطفهم، واقفين، يفتحون أحضانهم لي. وجلست "تيتي" على الأريكة، جامدة، وشاحبة، تلبس الحرير الخاص بالأعياد والجواهر، وبجانبها كاهن نحيل جدًّا، يحني ظهرة ويضع يده على صدره، ويظهر من وجهه أسنان حادة نهمة.. كان "نيجراو"، أعطيته اثنين من أصابعي:

- أنا سعيد لرؤيتك.

- شرف عظيم جدًّا لخادمكم!

همس، وهو يجذب إصبعيّ إلى صدره.

وأسرع وظهره منحني وأكثر ذلًا إليَّ ليرفع نور المصباح حتى يغمرني الضوء، ويرى إذا ما كان يمكنه أن يلمح في وجهي أثر رحلة الحج.

وقال الأب "بينيرو"، بابتسامة مريضة:

- أكثر نحافة!

وتردد "جوستينو"، وهو يضع يده على وجهي بصوت، ويقول:

- أكثر سُمرة!

أما "مارجريد" فقال بمودة:

- أكثر رجولة!

تدحرج الأب "نيجراو"، وهو لا يزال منحنيًا ناحية "تيتي" كما لو كان يحمل النعمة بين طيات ملابسه:

- وصار كل شيء يشع بالاحترام لمن يستحق تمامًا أن يكون ابن أخت ربة الخير السيدة "باتروسينيو"!

وفي هذه الأثناء، ساد الفضول بين الأصدقاء، فتعالت الأصوات: "وكيف حال صحتك؟"، "وماذا عن أورشليم؟" "كيف كان الطعام هناك؟".

لكن "تيتي" ضربت بالمروحة على ركبتها، خشية أن تصيب هذه الاضطرابات المألوفة سان "تيوديريكو" بضيق. وقال "نيجراو" بحماس ونعومة مبالغ فيها:

- بنظام، أيها السادة، بنظام! فإذا تحدث الجميع في صوت واحد فلن يستمتع أحد.. فمن الأفضل أن ندع ابننا "تيوديريكو" يتحدث!

كرهتُ "ابننا" هذه منه.. كرهت ذلك الكاهن؛ لأنه كان يتصنع بكلامه المعسول.. لماذا ميزته بالجلوس على الأريكة، ويلامس بركبته الخشنة الحرير الطاهر لعباءة "تيتي"؟

لكن د. "مارجريد"، قال وهو يفتح صندوق السعوط، موافقًا على هذه الطريقة التي ستكون مثمرة أكثر.

- لنجلس هنا جميعًا، في دائرة، وليحكي "تيوديريكو" بالترتيب جميع العجائب التي رآها!

ركض "نيجراو"، مع شعور فاضح بأنه الأفضل، دخل ليحضر كوبًا من الماء والسكر كي أرطب به فمي.. وضعت منديل السفرة على ركبتي.. سعلتُ وبدأت في رسم الرحلة الرائعة.. حكيت عن الترف الذي رأيته في "مالقا"، وجبل طارق وتلاله المغطاة بالغيوم، ووفرة "الموائد المستديرة" العامرة بالبودنج والمياه الفوارة.

- كل شيء متاح، كما يقول الفرنسيون!

تنهد الأب "بينيرو"، وقد لمع بريق الشراهة في العين المكبوتة.

- ولكن بالطبع، كل شيء محرم.

- أقول لك، أب "بينيرو".. نعم، كل شيء رائع، كل شيء على الطريقة الفرنسية.. ولكني فقط كنت آكل الأشياء الصحية التي لا تضر الأمعاء.. لحم البقر المشوي اللذيذ، ولحم الضأن الشهي.

- لكنها بالتأكيد لا تقارن بالدجاج الذي تطهينه، سيدتي!

قالها "نيجراو" متملقًا، وعلى مقربة من كتف "تيتي" النحيفة.

أبغضتُ ذلك الكاهن! وأخذت أقلب السكر في الماء، وقررت في نفسي أنه بمجرد أن أقوم بحكم "كامبو دي سانتانا" فلن تعود دجاجات عائلتي تنزلق إلى بلعوم ذلك الخادم للرب.

لكن "جوستينو" الطيب، الذي ضغط على ياقة قميصي وهو يبتسم لي، مسرورًا.. وسأل كيف كنت أقضي الليالي في الإسكندرية؟ هل كان هناك تجمع، أين كان مكانه؟ هل تعرفت على أسرة محترمة تتناول معها كوبًا من الشاي؟

- أنا أقول لك، "جوستينو".. تعرفتُ، لكن أصدقك القول، فقد شعرتُ بالاشمئزاز من التردد على منازل الأتراك.. فهم أناس لا يؤمنون إلا بمحمد! أتعرف ماذا كنتُ أفعل في الليل؟ بعد العَشاء كنتُ أذهب إلى كنيسة صغيرة قريبة تنتمي لمذهبنا الجميل، من دون أشياء ولا طقوس غريبة، حيث كان هناك دائمًا قداس جميل.. كنت أواظب على صلواتي، ثم قابلت شخصًا ألمانيًّا يرتدي النظارات، وصار صديقي.. قابلته في ساحة كبيرة يقول عنها أهل الإسكندرية إنها أفضل بكثير من ميدان "روسيو".. قد تكون أكبر وأكثر إثارة.. لكن ليست في جمال "روسيو" في البلاط والأشجار والتمثال والمسرح.. على أية حال، بالنسبة لي، وللتمتع بالصيف أفضِّل "روسيو".. وقلتها للأتراك!

أثنى الدكتور "مارجريد"، وهو يلف سيجارة، على إطرائي على كل ما هو برتغالي أمام الأجانب. وأردفتُ.. إنه عمل وطني.. ولم يدُم حكم "الجاما" و"البوكيركي" إلا بهذه الطريقة، بعزة النفس!

- حسنًا، هذا صحيح.. كنت أقابل ذلك الألماني؛ ثم نروح عن أنفسنا قليلًا، لأنه في نهاية المطاف من الضروري دائمًا الترويح عند السفر، كنا نذهب لشرب القهوة.. هناك، نعم! هناك قهوة يجهزها الأتراك لا مثيل لها!

- قهوة جيدة، هاه؟

سأل الأب "بينيرو"، واقترب مني بكرسيه مهتمًا.

- قهوة قوية؟ ورائحتها طيبة؟

- نعم، أب "بينيرو"، تفوق الوصف! كنا نشرب القهوة، ثم نعود إلى الفندق، ثـم في الغرفة مع الأناجيل المقدسة، بدأنا بدراسة جميع تلـك الأمـاكن المقدسـة في "يهوديـة" حيث كان علينا الذهاب والصلاة.. وبما أن الألماني كان مطلعًا ومثقفًا ويعرف كل شيء، كنت أستفسر منه وأسأله دائمًا.. حتى إنه كان يقول في بعض الأحيان: "أنت، يا رابوزو، بعد كل هذه الليـالي، سـتعود إلى بلـدك عالمًـا..." وقـد كـان، فكـل مـا يخـص المسـيح والأماكن والأشياء المقدسة أعرف عنه كل شيء.. حسنًا، أيها السادة، وكنا نسـهر هكـذا على ضوء المصباح حتى السـاعة العـاشرة أو الحاديـة عشرة.. ثـم، نتنـاول الشـاي، ثـم الصلاة قبل النوم.

- نعم يا سيدي، كانت ليالي ممتعة للغاية، ليالٍ مثمرة للغاية!

قالها الدكتور "مارجريد" المبجل مبتسمًا لـ"تيتي".

- إن هذا ما جعلك مميزًا جدًّا!

تنهدت السيدة الفظيعة.

- كان الأمر كما لو كانـت تصـعد إلى السـماء.. حتـى مـا يقولـه رائحتـه طيبـة. إن رائحته تشبه رائحة القديسين.

وبتواضع، خفضت جفنيَّ ببطء.

لكن "نيجراو"، قال بنبرة لئيمة إنه سيكون أكـثر فائـدة وأكـثر تـأثيرًا في النفـوس أن نسمع أشياء عن الاحتفالات والمعجزات، وعن الزهد.. أجبته بحدة:

- أنا أصف رحلتي بترتيب الأحداث، أب "نيجراو".

- كما فعل "شاتوبريان".. وكما يفعل جميع المؤلفين المشهورين!

أكد "مارجريد" بالموافقة.

وجهت نظري ناحيته، كمن يتجه نحو أكثر المستمعين علمًا، وحكيت عن رحيلي عن الإسكندرية في يوم عاصف. وعن اللحظة المؤثرة التي رأيت فيها راهبة في جمعية خيرية (التي زارت لشبونة من قبل وسمعت عن أعمال "تيتي" الخيرية)، عندما أنقذَتْ من المياه المالحة لفافة كنتُ قد أحضرتُها من أرض مصر، التي وطئتها أقدام العائلة المقدسة.. وعند وصولنا إلى "يافا"، حدثت معجزة، فبمجرد صعودي إلى ظهر السفينة مرتديًا قبعتي الطويلة تذكرت "تيتي"، فإذا بأشعة الشمس تتوج رأسي.. صاح الدكتور "مارجريد" وقال:

- رائع! أخبرني، "تيوديريكو"، ألم يكن معكم دليل حكيم، يرشدكم إلى الأطلال، ويشرحها لكم؟

- أصبتَ يا دكتور "مارجريد"! كان معنا عالم باللغات اللاتينية، هو الأبُّ "بوت"!

وبللتُ شفتي.. وحكيت عن أحاسيسي في تلك الليلة المجيدة التي عسكرنا فيها قرب الرملة، والقمر في السماء يلقي بضيائه على الأماكن المقدسة، والبدو يحرسوننا بالرماح فوق الأكتاف، وهدير الأسود من حولنا.

- يا له من مشهد رائع!

صاح الدكتور "مارجريد"، وهو يهتز بحماس.

- يا له من مشهد عظيم! ليتني كنت هناك! يبدو وكأنه واحد من تلك المشاهد العظيمة في الكتاب المقدس! إنه مشهد مُلهم! بالنسبة لي، إذا كان بإمكاني رؤيته، فلن أتمالك نفسي! لن أستطيع أن أمنع نفسي من نظم قصيدة شعرية بليغة!

سحب "نيجراو" طرف معطف القاضي الوجيه، وقال:

- من الأفضل أن ندع "تيوديريكو" يتكلم حتى نتمكن جميعًا من الاستمتاع.

فاحمر "مارجريد" خجلًا، وأبدى امتعاضه، ورفع حاجبيه الأكثر سواد من خشب الأبنوس:

- لا أحد في هذه الغرفة، أفضل مني، أب "نيجراو"، يستمتع بالروائع!

فقالت "تيتي"، بنهم، وهي تضرب بالمروحة على فخذها:

- حسنًا، حسنًا.. احكِ يا بني، لا تتوقف! واسمع، أخبرنا بشيء حدث لك مع ربنا، تدغدغ به عواطفنا.

وصمت الجميع، باحترام؛ فأخبرتهم عن الرحلة إلى القدس وعن نجمتين أمامنا ترشدانا إلى الطريق، كما يحدث دائمًا مع الحجاج المميزين والأسر الطيبة؛ وعن الدموع التي انهمرت عندما رأيت في صباح يوم مطير، أسوار القدس؛ وزيارتي إلى القبر المقدس، في معطفي، بصحبة الأب "بوت"، والأدعية التي همست بها أمام القبر، وسط التنهدات وبين الحجيج: "يا يسوع، يا ربي، أنا هنا، لقد جئتك من عند "تيتي"!

وخرج صوت السيدة البشعة محشرجًا:

- إن قلبي ليتوق لذلك! أمام قبر الرب!

ثم مسحتُ وجهي المتوهج بالمنديل.. وواصلتُ:

- في تلك الليلة ذهبت إلى الفندق كي أصلي.. وهناك، يا سادة، حدث شيء غير سار.

واعترفت برضا نفس مني، أنه باسم الدين، وشرف "رابوزو"، ومن أجل كرامة البرتغال دخلتُ في نزاع في الفندق مع إنجليزي ضخم ذي لحية كثيفة.

- شغب!

قالها الخسيس "نيجراو" بلؤم، وكله حرص على إخماد وهج القداسة الذي أدهش "تيتي".. نزاع في مدينة يسوع المسيح! يا للعجب! يا للحقارة!

وقاطعت ذلك الكاهن الفظ وأنا أضغط على أسناني:

- نعم يا سيدي! خناقة! لكن لتعلم حضرتك أن بطريرك القدس قد أعطاني الحق.. وربت حتى على كتفي وقال لي: "حسنًا، "تيوديريكو"، تهانينا، أنت تصرفت مثل الفرسان!" ماذا لدى حضرتك الآن لتقوله؟

وهز "نيجراو" رأسه موافقًا، والتي تسرب إليها ضوء القمر عبر الزجاج الأزرق فعكس ضوءًا أزرق عليها فبدا وجهه كوجوه المرضى في وقت الطاعون:

- إذا كان نيافته قد وافقك الرأي..

- نعم يا سيدي! وها هي قصة تلك المشاحنة، "تيتي"! في الغرفة المجاورة لي كانت هناك امرأة إنجليزية، وهي ملحدة، وكلما بدأتُ في الصلاة، تبدأ هي العزف على البيانو، وغناء الحب والأشياء الفاضحة وغير الأخلاقية التي تُغنى في مسارح أولئك الإنجليز.. والآن، تخيلي، "تيتي"، عندما يكون الشخص جاثيًا بكل حماسة على ركبتيه، ويقول: "يا مريم الراعية، امنحي "تيتي" طول العمر"، ويأتي صوت من وراء الحائط لامرأة حمقاء تنبح: "أنا الإنجليزي، مرحبًا.. كل أملي في الحياة أن أصير أرمل!".. شيء مخجل.. وذات ليلة، بلغ مني اليأس مبلغه، فلم أتمالك نفسي، وخرجتُ إلى الردهة، وقرعتُ الباب بشدة، وصرختُ: "اصمتي لو سمحتِ، فجارك مسيحي يريد الصلاة!".

وقال الدكتور "مارجريد":

- معك كل الحق.. والقانون في صفك!

- هذا ما قاله لي البطريرك! حسنًا، أيها السادة، كما كنت أقول لكم، صرخت في المرأة التي بالداخل، وعدت بجد إلى غرفتي، عندما خرج لي والدها، وهو رجل ضخم له لحية كثيفة، يحمل عصا في يده.. وكنت حذرًا جدًّا؛ طويت ذراعي وأخبرته أنني لا أريد فضائح هناك بالقرب من قبر الرب، وأن كل ما أردته هو

الصلاة في سلام.. واسمعوا، بماذا ردَّ عليَّ؟ أنه كان سَيـَ.. حسنًا، لا أستطيع حتـى تكـرار ذلك! شيء خارج عن حدود الأدب عند قبر الـرب.. وأنـا، "تيتـي"، أصـابني الـدوار في رأسي، فأمسكت به من قفاه.

- هل جرحته يا بني؟

- لقد مزقته، "تيتي"!

وانبرى الجميع يهدؤون من غضبي.. واستشهد الأب "بينيرو" بقوانين الكنسية التـي تجيز للمؤمنين قمع الأشرار، أما "جوستينو" فكان متأثرًا بالحدث وقـال لا بـدَّ أن هـذا الإنجليزي قد انهار أمام لكمة البرتغالي القوية.

أمَّا أنا فقلت بعـدما استشـعرت الحـماس بفعـل الثنـاء عـليَّ والـذي كـان كطبـول الحرب، بعدها وقفت منتصبًا، مهيبًا:

- أشرار أمامي، وأفعال تغضب الرب، لا! أنا أكسر كل شيء، وأحطم كل شيء! أنا في أمور الدين وحش كاسر!

وانتهزتُ هذا الغضب المقدس لإضفاء اللمسات الأخـيرة، كتحـذير، وضعـت قبضـة يدي المشعرة الثائرة أمام ذقن "نيجراو" النحيفة.. وتراجع خادم الرب اللئـيم الملتـوي، لكن في تلك اللحظة، جاءت "فيسنسيا" بالشاي، في الأكواب الفضيات الثمينة من عهـد القائد "جودينيو".

ثم بدأ الأصدقاء الأعزاء، والخبز المحمص في أيديهم، يثنون بحماس:

- يا لها من رحلة مفيدة! إنها تشبه دورة دراسية!

- ما أروع الوقت الذي قضيناه هنا! هكذا تكون الأوقات الممتعة وإلا فلا!

- وانظروا إلى طريقته في السرد! وإلى الحماس، وإلى الذاكرة القوية!

وببطء، اقترب "جوستينو" الطيب من النافذة، ومعه فنجان الشاي وحوله الكعك، وكما لو كان ينظر في السماء المرصعة بالنجوم، ومن بين أطراف الستائر دعتني عيناه المتلألئتان ليفضي إليَّ على انفراد.. ذهبتُ، وأنا أتمتم بصلواتي.. وغاص كلانا في ظل من الستائر الحريرية. واقترب بشفتيه من ذقني وهمس:

- قل لي يا صديقي الصغير، وماذا عن النساء؟

كنت أثق في "جوستينو"؛ فاقتربت من طوقه وهمستُ:

- تذهبن بالعقول، "جوستنينو"!

ولمعت عينه كعين قط في شهر يناير، واهتز الفنجان في يده.

وابتعدتُ ناحية الضوء، وأنا أفكر: "نعم، ليلة جميلة، لكن هذه النجوم الصغيرة ليست كتلك النجوم المقدسة التي رأيناها عند نهر الأردن!" ثم اقترب الأب "بينيرو"، عندما رآني أشتت انتباه الآخرين عن حديثنا، وضربني بخجل على كتفي، وسأل عمَّا إذا كنت قد تذكرتُ في هذه الأراضي المقدسة، ومع الكثير من المشاغل، قنينة المياه من نهر الأردن؟

- نعم، أب "بينيرو"، بالطبع! أحضرتُ كل شيء! غصن من جبل الزيتون من أجل "جوستين"والصورة لـ"مارجريد".. كل شيء!

وأسرعتُ إلى غرفتي لإحضار هذه "الهدايا التذكارية" الحلوة من فلسطين.. وعندما عدت، أحمل أطراف منديل مليء بهدايا ثمينة مقدسة، ووقفت خلف الستار عندما شعرت بأنهم يتحدثون عني في الداخل.. وأحسست بفرح لطيف! كان الدكتور "مارجريد" الأصيل هو الذي ينصح "تيتي"، بسلطته الهائلة:

- سيدة "باتروسينيو"، لم أرد أن أخبركِ بذلك أمامه.. فهو الآن ليس مجرد ابن أخت، إنه فارس نبيل! إن لديك في هذا البيت صديقًا حميمًا لربنا يسوع المسيح!

سعلتُ، ودخلتُ.. لكن السيدة "باتروسينيو" كانت مشغولة بمشاعر الغيرة.. لم يكن يبدو حسنًا في عيون الـرب (ولا في عينيهـا) توزيـع هـذه التـذكارات الصـغيرة قبـل أن أسلمها الأثر المقدس الخاص بها في المقصورة، بصفتها صاحبة البيت وبصفتها خالتي.

- ليكن في علمكم، أصدقائي.

أعلنتْ وصدرها يمتلئ بالرضا:

- إن ابني "تيوديريكو" قد جلب لي أثرًا مقدسًا، وإنـه سـوف يواسـيني في لحظـات ضعفي، وسوف تـُشفى به آلامي!

- أحسنت جدًّا!

صاح الدكتور "مارجريد" بحماس.

- لقد أخذ "تيوديريكو" بنصيحتي، هل هو من تلك القبور المتناثرة؟ أحسنت! إنها هدية من حاج سخي!

- إنها من ابن أخت، لم يعد يوجد مثله في البرتغال!

أضاف الأب "بينيرو"، وهو يقف بجانب المرآة:

- إنها من ابن، نعم، من ابن!

أعلن "جوستينو" وهو يقف على طرف حذائه.

ثم أظهر "نيجراو" أسنانه الشرسة، وسأل وهو يتملق عن هذا الأثر العتيق:

- بقي أن نعرف يا سادة، ما هو هذا الأثر المقدس؟

كم كنت متعطشًا لدم هذا الكاهن! رمقته بنظرة أكـثر حـدة ولمعانًـا مـن الأسـياخ على الجمر:

- ربما ستسقط حضرتك على ركبتيك، إذا كنت كاهنًا حقيقيًّا، عندما تظهر تلك الأعجوبة!

وتحولت بناظري إلى السيدة "باتروسينيو"، بنفس قد نفد صبرها، وأستيأست وتحتاج إلى تعويض:

- بالفعل، "تيتي"! دعونا نذهب إلى المصلى! أريد أن يدهش الجميع هناك! هذا ما قاله صديقي الألماني: "هذه البقايا، عندما تنكشف، فسوف تجعل أسرة بأكملها في ذهول!

نهضت "تيتي" ويداها مطويتان.. وأسرعتُ لأحضر مطرقة، وعندما عدتُ، وجدت الدكتور "مارجريد" الطيب يلبس قفازه الأسود بجد.. وخلف السيدة "باتروسينيو"، التي كان حفيف طيات فستانها الحريري يصدر ضجيجًا مثل ضجيج عباءة أساتذة جامعة كويمبرا، دخلنا الرواق حيث كان مصباح الغاز الكبير يصفر داخل البلورة الزجاجية. وعلى البعد، وقفت "فيسنسيا" والطباخة والمسابح في أيديهم.

كان المصلى مشرقًا.. وكانت الصواني الفضية القديمة، التي تسلط عليها ضوء الشموع، تصدر بريقًا أبيض فيضفي أجواء من العظمة على المذبح، وكانت لوحات القماش المطرز المغسولة بين زهور الكاميليا البيضاء كالثلج، وعباءات القديسين الزرقاء والحمراء، ببريقها الحريري، تبدو كلها وكأنها جديدة، مصممة خصيصى في خزانات السماء لهذه الليلة الطريفة الحافلة.. في بعض الأحيان، كان ضوء الهالات على رؤوس القديسين يهتز ويصدر وميضًا كما لو كانت تسري في جنبات الخشب الذي عليه الصور نشوة الفرح.. وعلى صليبه الثمين المغلف بالقماش الأسود كان تمثال المسيح المصمت، المصنوع من الذهب الخالص، حتى إنه يتعرق ذهبًا وينزف ذهبًا.. كان يتلألأ في بهاء شديد.

- كل شيء يتم بذوق عالٍ! يا له من عشاء جميل! همس الدكتور "مارجريد" بتـأثر عظيم.

وبعناية ورعة وضعت الصندوق على الوسادة المخملية. وملتُ لأصلي عليه "السلام عليك...". ثم رفعتُ المنشفة التي تغطيه، ووضعتها على ذراعي، وبعد ذلك، قلت:

- "تيتي"، أيها السادة.. لم أكن أريد حتى أن أكشف عن هذا الأثر المقدس لأن بطريرك القدس كان قد أوصاني بذلك... والآن سأحدثكم عنه.. ولكن أولًا وقبل كل شيء، أريد أن ألفت أنظاركم إلى أن كل شيء هنا هو أثر مقدس، الورق، الشريط، الصندوق الخشبي، المسامير، كل شيء مقدس! فعلى سبيل المثال، المسامير الصغيرة... هي من سفينة نوح.. يمكنك أن ترى أيها الأب "نيجراو"، يمكنك أن تلمسها! هي من بقايا السفينة، حتى لاحظ عليها الصدأ.. وكذلك الباقي، كل شيء ينم عن الفضيلة! فضلًا على ذلك أريد أن أعلن أمام الجميع بأن هذا الأثر هو ملك "تيتي" فقط، وقد أحضرته كدليل على أني لم أفكر في سواها وأنا بالقدس، وفيما عاناه الرب، وفي الحصول على هذه الصفقة الرابحة.

- سترى دائمًا الخير معي يا بني!

تمتمت السيدة القبيحة وهي متأثرة.

قبلتُ يدها، لأوثق هذا الاتفاق أمام القضاء والكنيسة.. ثم، التقطتُ المطرقة:

- والآن، وحتى يستعد كل منكم بالصلوات المناسبة، يجب أن أقول ما هو الأثر.

سعلتُ، وأغلقت عيني:

- إنه تاج الشوك!

صُعقت "تيتي" وأصدرت أنينًا أجش، وصلَّت على الصندوق صلاة الشكر، وأحاطته بذراعيها وهي ترتجف.. ولكن "مارجريد" ضرب بيده على الصندوق

الخشن وهو يفكر.. واختفى "جوستينو" داخل طوق عباءته؛ وفغر المارق "نيجراو" فاه الأسود لي، بدهشة وسخط! أيتها السماوات العادلة! إذا أظهر القضاة والكهنة عدم التصديق؛ فسوف يكون ذلك رهيبًا بالنسبة لميراثي!

وارتعدتُ وأنا أغرق في عرقي، عندما ضغط الأب "بينيرو"، بجد، وثقة، وانحنى على يد "تيتي" لتهنئتها على المكانة الدينية التي بلغتها بامتلاك هذا الأثر المقدس.. بعد ذلك، وباستسلام للسلطة الكنسية القوية للأب "بينيرو"، وقف الجميع في صف للتهنئة، وليشدوا على أصابع السيدة المذهولة.

لقد نجوتُ! وبسرعة، ركعت على حافة الصندوق، ووضعت الإزميل تحت حافة، ورفعتُ المطرقة في انتصار.

- "تيوديريكو"! بني!

صرخت "تيتي"، وهي ترتجف، كما لو كنت سأدق على لحم الرب وهو حي.

- لا تخافي يا "تيتي"! تعلمتُ في القدس التعامل مع هذه الأشياء الصغيرة التي تخص الرب!

كشفت اللوح الخشبي الرقيق، وظهرت طبقة القطن بيضاء.. رفعتها باحترام وعطف، وأمام الأعين المنتشية، ظهرت اللفافة المقدسة من الورق البني، ملفوفة بالشريط الأحمر.

- يا له من عطر! آه! آه، إني أحتضر!

تنهدت "تيتي" وهي تهيم في نعيم التقوى، وظهر بياض عينيها فوق حافة النظارة السوداء.

نهضتُ، وقد انتفخت أوداجي فخرًا:

- إنه يخص عزيزتي "تيتي"، فقط هي التي يمكنها، لكثرة فضائلها، أن تفض اللفافة!

ولما أفاقت من إغماءتها، شاحبة ترتجف، كانت جادة مثل قداسة البابا، أخذت اللفافة، وصلت للقديسين، ووضعتها على المذبح.. وفضت الشريط الأحمر بتقوى؛ ثم، بحرص من يخشى أن يجرح جسدًا مقدسًا أخذت تفض طيات الورق البني واحدة بعد أخرى.. ظهر بياض الكتان.. وأمسكته "تيتي" بأطراف أصابعها، وسحبتها بشكل حاد - ووضعتها على المذبح، بين القديسين، وفوق الكاميليا عند قاعدة الصليب - وإذا بقميص نوم "ماري" بأقواس الدانتيل، وأربطته!

قميص نوم "ماري"! بكل ترفها، وبكل تبجحها، مكرمشة من أثر عناقي، وتفوح من كل ثنية رائحة الخطيئة! قميص نوم "ماري"! ومثبت فيه بدبوس، ورقة بدت واضحة تحت ضوء الشموع، كتب فيها بخط متشابك: "إلى حبيبي "تيوديريكو"، البرتغالي الصغير القوي، تذكار لكل ما استمتعنا به" والتوقيع بحرفين: M. M... قميص نوم "ماري"!

بالكاد أتذكر ما حدث في المصلى الأنيق! وجدت نفسي عند الباب، جاثيًا عند الستارة الخضراء، وقد التوت ساقي، وأغمى عليَّ.. وأحسست باتهامات "نيجراو" الذي اتهمني بها مثل قطع الخشب وهي تقذف في النار، و"تيتي" تساعده: "قلة حياء، حقارة، قميص عاهرة، أتحتقر السيدة المحترمة "باتروسينيو" وتدنس مصلاها!" وميزتُ حذاءه وهو يقذف ناحية البهو القميص الأبيض.. ورأيت الأصدقاء، واحدًا تلو الآخر، يمرون، مثل الظلال الطويلة المدفوعة برياح عاتية.. كانت أضواء الشموع تذبل وتخفت.. وميزتُ "تيتي" تقترب مني ببطء وهي شاحبة، قاسية، بشعة، غارقة في العرق، من بين

طيات الستائر، وتوقفت. اخترقتني نظارتها الباردة الشرسة.. وقالت وهي تشدُّ على أسنانها كلمة واحدة:

- نجس!

وخرجت.

دخلتُ غرفة النوم، سقطتُ على السرير، تكومتُ.. كان صوت الفضيحة قد أيقظ البيت الكئيب.. وظهرت "فيسينسيا" أمامي، منزعجة بمريلتها البيضاء في يدها:

- يا فتى! يا صبي! السيدة أرسلتني لأقول لك غادر البيت فورًا إلى الشارع، وأنها لا تريدك في البيت للحظة واحدة.. وتقول لك أن تأخذ ملابسك البيضاء وكل ما يخصك من أسمال!

مطرود!

رفعتُ وجهي المجهد من فوق الوسادة.. و"فيسنسيا"، مذهولة، تطوي المريلة:

- آه يا فتى! آه، يا بُني! إذا لم تخرج إلى الشارع الآن، تقول لك إنها سوف تبعث في طلب شرطي!

أنت مطرود!

نزلتُ بقدمي الحائرتين على الأرض، ووضعت فرشاة أسنان في جيبي.. وسرت أتخبط في الأثاث، بحثت عن النعال التي كنت قد لففتها في جورنال "الأمة"، ودون انتباه، وضعت في حقائبي صندوقًا كبيرًا؛ وهبطت الدرج على أطراف قدميَّ، منكمشًا ذليلًا مثل كلب أجرب خَجِل من جربه.. وعبرت الفناء بالكاد، ونزولًا على أوامر "تيتي" القبيحة، دفعتني "فيسنسيا" من الخلف بالباب المصفح بالحديد:

- غير مأسوف عليك، اذهب إلى الأبد!

صرتُ وحيدًا في الشارع وفي الحياة أيضًا! وعلى ضوء النجوم الباردة عددت النقود التي معي في راحة يدي.. كان لديَّ جنيهان، وثمانية عشر قرشًا، وشلن إسباني وعملات نحاسية.. ثم اكتشفت أن الصندوق، الذي حملته في عجلة من أمري بين الحقائب كان صندوق الآثار الصغيرة. يا لسخرية القدر! لكي أغطي جسدي الذي صار بلا مأوى لم يكن لديَّ شيء آخر سوى قطع الخشب من صنع القديس يوسف، وقطع من الشقف من جرة العذراء! ووضعت اللفافة التي بها حذائي في الحقيبة.. ودون أن أنظر خلفي إلى بيت خالتي، سرتُ على قدميَّ، والصندوق على ظهري، في ليلة مليئة بالصمت والنجوم، ناحية حي "بايشا"، لفندق الحمامة الذهبية.

في اليوم التالي، كنت أجلس شاحبًا وبائسًا على مائدة الفندق، أقلب حساء البقول مع اللفت، عندما جاء رجل في صدرية سوداء مخملية ليشغل المكان بجانبي، وبجواره زجاجة من مياه "فيداجو"، وعلبة دواء وعدد من جريدة "الأمة".. وعلى جبهته العريضة المقوسة مثل بوابة كنيسة صغيرة، ظهر وريدان ملتويان منتفخان.. وتحت فتحتي الأنف الواسعتين المليئتين بالشعر الأسود، كان الشارب عبارة عن خصلة قصيرة من الشعر الرمادي، الخشن مثل شعيرات الفرشاة.. وعندما قُدّم النادل شوربة اللفت والحبوب لذلك الرجل، غمغم بتقدير: "حسنًا، مرحبًا بظهورك من جديد سيد "لينو"!".

ولما جاء النبيذ المعتق ترك الرجل الجريدة التي كان يطالع فيها صفحة الإعلانات بصمت، وحملق فيَّ بعينين صفراوين من أثر الصفراء والطحال، وقال إننا نعيش فترة ازدهار منذ الفترة الملكية.

وهمستُ بتحفظ:

- في منتهى السعادة.

وأدخل السيد "لينو" منديل السفرة في طوقه من جديد، وسأل:

- وهل سيادتك، واعذر فضولي، قادم من أقاليم الشمال؟

مررتُ يدي ببطء على شعري:

- لا يا سيدي، لقد جئت من القدس!

ولفرط دهشته وقعت منه ملعقة الأرز.. وبعدما اجتر مشاعره في صمت اعترف لي بأنه كان مهتمًا للغاية بكل هذه الأماكن المقدسة لأنه رجل متدين، والحمد لله! ولديه وظيفة، والحمد لله، في الغرفة البطريركية.

- آه، في الغرفة البطريركية!

أبديتُ دهشتي.

- نعم، وظيفة محترمة جدًّا.. أعرف بطاركة كثيرين.. وأعرف بطريرك القدس جيدًا.. رجل مبارك جدًّا، ولطيف جدًّا.. كنا نرفع الكلفة بيننا!

قدَّم لي "لينو" كأسًا من مياه "فيداجو" وتحدثنا عن أراضي الكتاب المقدس.

- وماذا عن القدس، ومحلاتها التجارية؟

- محلات؟ تقصد محلات الأزياء؟

- لا، لا!

أردف السيد "لينو":

- أعني محال القداسة، والآثار المقدسة، والتذكارات الصغيرة المباركة.

- نعم.. لا بأس.. هناك محل دامياني في "طريق الآلام"، عنده كل شيء، حتى عظام الشهداء.. لكن الأفضل هو أن يقوم كل شخص بالتنقيب والبحث والحفر بنفسه. أنا جلبت العجائب بهذه الطريقة!

أوقدَتْ شعلة الطمع الفريدة بريقَ الأمل في عين السيد "لينو" الصفراء، من الغرفة البطريركية.. وفجأة، اتخذ قرارًا ملهمًا:

- أحضر لنا أيها النادل نبيذ "بورتو"، فاليوم نحتفل!

وعندما وضع الزجاجة أمامه وتاريخ إنتاجها مكتوب على بطاقة قديمة بخط اليد، قدَّم لي السيد "لينو" كأسًا ممتلئة.

- في صحتك!

- بعون الرب! في صحتك!

ومن باب المجاملة، وبعد انتهاء الشراب، دعوتُ الرجل الذي، بحمد لله، كان عنده دين، لدخول غرفتي وتأمل صور القدس؛ فقبل بسعادة.. وما إن عبر الباب حتى ركض - غير مكترث بقواعد الذوق وبجشع - إلى سريري، حيث وضعتُ بعض الآثار التي قمت بتفريغها ذلك الصباح.

- هل يقدِّر الفارس هذه الأشياء؟

سألته وأنا أفرد صورة فيها منظر لجبل الزيتون، وفكرت في إهدائه مسبحة.

كان يتأمل في صمت، وفي يديه الغليظتين ذات الأظافر المقضومة قنينة من ماء نهر الأردن.. شمها، ووزنها، ورجها. ثم قال في جد، وقد ظهرت العروق في وجهه العريض:

- هل معك شهادة بها؟

فهمت أنه يتحدث عن شهادة من الراهب الفرانسيسكاني، التي تؤكد أصالة هذه المياه وأنها غير مختلطة بمياه أخرى غير مياه نهر المعمودية؛ فأعطيته الورقة ليقرأها باستمتاع كبير وحماسة:

- سأعطيك خمس عشرة بريزة للقارورة!

وكأن نافذة فتحت في عقلي لينفذ منها ضوء الشمس، عقل ذلك الفتى الحائز على شهادة الليسانس! رأيتُ، بشكل غير متوقع، في وهجها القوي حقيقة هذه التذكارات المباركة، وتلك المياه، والشظايا، والحصى، والقش، والتي كنتُ أعتبرها - حتى ذلك الحين- من قبيل القمامة الكنسية التي نسيَتها مكنسة الفلسفة! كانت تلك الآثار تمثل القيم! كان لها سحر القيم القادرة على كل شيء! كانت قطعة الطين مقابل قطعة من الذهب! وبعدما فهمتُ ذلك، بدأتُ أبتسم، بشكل غير معقول، ويدي متكئة على الطاولة كما لو كانت سور شرفة لتخزين البضائع:

- خمس عشرة بريزة للمياه الطاهرة من نهر الأردن! حسنًا! باختصار، عند حضرتك مياه القديس يوحنا المعمدان تساوي.. خمس عشرة بريزة! هذا جحود! هل تتخيل أن مياه نهر الأردن تشبه مياه الأرسنال؟ هيهات.. لقد رفضتُ عرضًا من كاهن "سانتا جوستا"، هذا الصباح بثلاثة آلاف ريال، عند قدم هذا السرير.

قفزت القارورة في يده الغليظة، وفكر، وحسب حساباته:

- سأعطيك أربعة آلاف ريال.. أرجوك وافق، فنحن رفاق في عمل الخير!

وعندما خرج السيد "لينو" من غرفتي، وقنينة المياه في يده مغلفة في عدد من جريدة "الأمة"، وجدت نفسي أنا - "تيوديريكو رابوزو" - للأسف، وبالصدفة، تاجرًا ماهرًا في الآثار!

فقد كنت آكل منها، وأدخن منها، وأحب منها، لمدة شهرين، هادئًا ومستمتعًا في الصومعة الذهبية.. وفي كثير من الأحيان، كان السيد "لينو" يأتي في الصباح في قبقاب الحمام ليدق باب غرفتي، ويختار شقفة من جرة العذراء أو قشة من المهد الذي وُلد فيه المسيح، وكان يلفها في ورق من جريدة الأمة، ويعطيني المال ويرحل مسرعًا وهو يصفر بلحن "دي بروفنديس".. ومن الواضح أن الرجل

المبجل كان يعيد بيع بضاعتي الثمينة بأرباح باهظة، لأني بعد وقت قليل، رأيته يرتدي على سترته السوداء المخملية سلسلة ذهبية لامعة.

وفي هذه الأثناء، بذكاء وكياسة، لم أحاول (لا بالتوسل، أو باختلاق المبررات، أو بالبحث عن وساطة) التخفيف من غضب "تيتي" الشديد وإعادة اكتساب ثقتها.. واقتصرتُ على الذهاب إلى كنيسة "سانتانا"، متشحًا بالسواد، ومعي كتاب صلواتي.. لم تكن "تيتي" تأتي للكنيسة؛ فقد كانت تصلي كل صباح في المصلى مع "نيجراو" الدنيء، ولكني كنت أركع هناك وأضرب تائبًا على صدري، وأعترف عند المذبح، وكانت أخبار إيماني الذي لم يتغير تصل بالتأكيد إلى السيدة البشعة عن طريق "ميلشيور" خادم الكنيسة.

وكنتُ ماكرًا للغاية، عندما لم أسعَ لمقابلة أصدقاء "تيتي"، الذين يجب أن يتشاطروا بحكمة مشاعرها الروحية للحصول على مزايا عند كتابتها للوصية، وبالتالي تجنّبتُ إحراج هؤلاء المحسنين من القضاء والكنيسة.. وكلما قابلتُ الأب "بينيرو" أو دكتور "مارجريد"، طويتُ يدي داخل أكمامي، وخفضت عيني، وأظهرتُ التواضع والندم.. وكان الأصدقاء بالتأكيد ممتنين لهذا الاجتناب، لأنه عندما قابلت "جوستينو" ذات ليلة بالقرب من منزل "بنتا بيشجوزا"، اقترب الرجل مني وهمس عند لحيتي، بعد التأكد من خلو الشارع:

- استمر هكذا، يا صديقي الصغير! سيتم ترتيب كل شيء؛ فهي الآن كالوحش والشيطان يسيطر عليها!

ومشى.

ومن جانب آخر كنتُ، عن طريق "لينو"، أبيع الآثار.. وبسرعة، تذكرتُ ما كنت أدرسه في منهج الاقتصاد السياسي، وفكرت في توسيع قاعدة المستهدفين، وإقصاء "لينو"، وأن أتوجه بنفسي، وبجرأة، للمستهلك المتدين.

كنتُ أكتب إلى النساء النبيلات، خادمات "رب خطوات النعمة"، رسائل مع قوائم وأسعار الآثار، وأرسل عروضًا بأسعار عظام الشهداء إلى كنائس الأقاليم.. وأعزم خدام الكنائس على كؤوس البراندي، حتى يدلوا العجائز المريضات عليَّ: "بالنسبة للأشياء المباركة لا يوجد مثل السيد الدكتور "رابوزو" الذي وصل لتوه من القدس..." وابتسم لي الحظ.. كان تخصصي هو مياه نهر الأردن، في قنينات من الزنك، مختومة بقلب يحترق، وبعتُ من هذه المياه للتعميد، وللطعام، وللاستحمام؛ وفي بعض الأيام كان هناك نهر أردن آخر، أوسع وأنقى من نهر فلسطين، يجري في لشبونة، وينبع من غرفة فندق الحمامة الذهبية.

وبخيالي الواسع، أدخلتُ بضائع جديدة مربحة ولا تخلُ من إبداع.. أطلقتُ أشياء لاقت إقبالًا كبيرًا مثل "شقفات من الجرة التي كانت السيدة العذراء تذهب بها إلى النبع"؛ وكنتُ أول من آمن بالورع الوطني "إحدى حدوات الحمار الذي هربت على ظهره العائلة المقدسة".. والآن، عندما يطرق "لينو"، مرتديًا نعليه، على باب غرفتي - حيث تتزاحم فيها أكوام من قش المهد مع أكوام قطع الخشب المصنوعة بيد القديس "يوسف النجار" - أفتح الباب قليلًا وأهمس له:

- لقد نفدت بضاعتي.. انتظر! فقط لمدة أسبوع، سوف يأتيني صندوق كبير من الأرض المقدسة.. فتنتفخ عروق وجه ذلك الرجل القوي، في سخط من يعُدُّ نفسه الوسيط المدلل.. كانت آثاري مرحبًا بها بحماس شديد؛ لأنها أتت من "رابوزو، القادم للتو من القدس".. أمَّا تجار الآثار الآخرون فلم يكن لديهم هذا الضمان وهو القيام برحلة إلى الأرض المقدسة.. فقط أنا، "رابوزو"، من يحتفظ بهذا المخزن الضخم للبضائع المقدسة.. أنا وحدي دون الجميع من يعرف كيف يختم الورقة الشمعية التي توثِّق الأثر، بالتوقيع المزخرف لبطريرك القدس.

لكن سرعان ما أدركتُ أن هذا الكم الهائل من الآثار قد يصيبُ السوق بالتشبع في بلادي! فهذا البرتغال الكاثوليكي الغارق في آثاره، لم يعد لديه القدرة على استقبال واحدة من تلك الأغصان الجافة من زهور الناصرة، التي كنت أبيعها بخمسة قروش!

وأصابني القلق فخفضت الأسعار مضطرًا آسفًا.. وكنت أعلن في صحيفة الأخبار إعلانات مغرية: "نفائس من الأراضي المقدسة، بالجملة، في كشك سجائر ريجو" وفي أيام كثيرة كنت أذهب صباحًا، بمعطفي الكنسي ومنديل كاشان حريري أخفي به لحيتي، وأقتحم عند أبواب الكنائس النساء العجائز المؤمنات، وأعرض عليهن قطعًا من سترة العذراء مريم، وسيور من صندل القديس بطرس.. كنت أستجديهن، وأتمسح في ملابسهن ورؤوسهن: "رخيصة جدًّا، سيدتي، رخيصة، وممتازة لنزلات البرد!".

وكانت ديوني في الغرفة الذهبية قد ثقلت.. كنت أتسلل على السلالم حتى لا يراني المالك، وكنت أتملق الجليقيّ "لينو":

- صديقي "أندريه"، يا صاحبي الأنيق.

وكنتُ أضع كل أملي في تجديد الإيمان! ويبهجني أصغر خبر عن حفل في كنيسة كإضافة إلى الإخلاص عند الناس. كنتُ أكره بشدة الجمهوريين والفلاسفة الذين هزوا صورة الكاثوليكية، وبالتالي ينقصون من قيمة الآثار التي تحبذها الكنيسة.. وكتبت مقالات للأمة، أصرخ فيها: "إذا لم نتشبث بعظام الشهداء، فكيف تريدون لهذه الأمة أن تزدهر؟".

وفي مقهى "مونتانا"، كنت أقدم العظة على الطاولات: "أليس الدين ضروريًّا، اللعنة! بلا دين، ليس هناك طعم لشيء ولا حتى لشرائح اللحم!"، وفي بيت "بنتا بيشجوزا"، المخصص للدعارة، كنتُ أهدد الفتيات إذا لم يرتدين

الحجاب، وآمرهن ألا يعدن للذهاب إلى هناك وأن يذهبن إلى بيت السيد "أديلايـدى"! وكان قلقي على "طعامي اليومي" يؤرقني مما جعلني أطلب مـن "لينـو" أن يتـدخل - بصفته رجلًا ذا علاقات كنسية كثيرة، وهو قريب لقسيس الدير - وأطلعته من جديـد على سريري المليء بالآثار، وقلت له مرة أخرى، وأنا أفرك يدي: "دعنا نتاجر من جديد، يا صديقي! إن لديَّ تشكيلة جديدة هنا، قادمة للتو من صهيون!".

لكن، موظف الغرفة البطريركية المحترم، قام فقط بكيل الاتهامات لي:

- هذا المكر لا يخدعني، يا سيدي!

صاح وعروقه تنفجر بغضب في وجهه المتوهج.

- حضرتك الذي دمرت هذه التجارة! السوق مكتظة، ولا توجد وسيلة لبيع حفاضة صغيرة حتى للطفل يسوع، وهو أثر كان يُباع بشـكل جيـد! كـان عملـك ببيـع حـدوة حمار القديس يوسف غير لائق تمامًا.. ويخلو من الذوق! هذا مـا أخـبرني بـه قسـيس، ابن عمي، منذ أيام: "إنها حدوات كثيرة جـدًّا لمثـل هـذا البلـد الصـغير!" "أربـع عشرة حدوة، يا سيدي! إنه تجاوز للحد! هل تعرف حضرتك كم مسـمارًا اسـتُخدم في صـلب المسيح على الصليب، سيادتك، وثقتها جميعًا بالوثائق؟ خمسة وسبعون، يا سيدي! لن أخبرك بأكثر من هذا.. خمسة وسبعون!

وخرج، وأغلق الباب بغضب، وتركني محطمًا.

وبالصدفة، في تلك الليلة، وجدتُ "رينشاو" في منزل "بنتـا بيشـيجوزا"، وطلـب منـي عـددًا كبـيرًا مـن الآثـار.. كـان "رينشـاو" عـلى وشـك الـزواج مـن فتـاة مـن عائلـة "نـوجيرا"، ابنـة السـيدة "نـوجيرا"، مـن أغنيـاء بلـدة "بيجـا" ومحسـنيها، وهي مربية خنازير ثرية.. و"أراد أن يعطي هدية غريبة للمرأة العجـوز، كأشـياء مـن تعـاليم الـدين ومـن القـبر المقـدس".. أعـددتُ لـه صـندوقًا جمـيلًا مليئًـا

بالآثار (وضعت فيه المسمار السادس والسبعين من مسامير صلب المسيح)، وزينتة بزهور بديعة جافة من "الجليل".. وبالمبلغ الكبير الذي أعطاني "رينشاو" إيَّاه، دفعتُ ديون الغرفة الذهبية؛ وأخذتُ بالباقي غرفة في بيت ضيافة "بيتا"، على طريق "باليا".

وبالتالي تقلصت تجارتي المزدهرة.. أصبحت غرفتي الآن في الطابق العلوي، في الدور الخامس، بها سرير حديدي، وكرسي قديم بذراعين، بطانته من الكتان الخشن العطن، والشيت الرخيص الممزق.. وكانت الزخرفة الوحيدة المعلقة على خزانة الملابس، في إطار مشذّب بشرائط القماش، هي صُورة للمسيح بالألوان، محاطة بالسحب السوداء من العاصفة حتى قدميه.. وكانت عينه الملونة تراقبني في جميع أفعالي، حتى في أدقها، حتى وأنا أشذب أظافري.

ومر عليَّ الأسبوع، في السكن الجديد وأنا أجوب لشبونة للسعي على الرزق بحذاء أشرف على الهلاك وانفصل نعله، عندما قابلتُ "أندريه" صاحب فندق الغرفة الذهبية ومعه لي رسالة كانت قد وصلت هناك في اليوم السابق، وكُتِب عليها "عاجل".. وعليها شريط ورقي أسود؛ ومختومة بالشمع الأسود.. فتحتُها، وأنا أرتجف، ورأيت توقيع "جوستينو":

"صديقي العزيز، وجدت من واجبي الجسيم الذي أقوم به وعيني تذرف بالدموع، أن أنقل لك خبر موت خالتكم المبجلة، وسيدتي، المفاجئ".

يا إلهي! ماتت المرأة العجوز!

وقفزتُ بشغف بين السطور، ووقفت عند تفاصيل مثل: "احتقان الرئتين.. تقبل العزاء.. الكل يبكي.. كاهن العائلة "نيجراو"...." وامتقع لوني، وغمرني العرق، عندما رأيت، في نهاية الخطاب، الخبر البشع؛ "وتنص وصية السيدة

الفاضلة على أن يكون المنظار المعلق على جدار غرفة الطعام من نصيب ابن أخيها "تيوديريكو"...".

وحرمتني من الميراث!

أمسكت قبعتي، وركضت عبر الشوارع لأتحرى الأمر في مكتب "جوستينو" في حي "ساو باولو".. وجدته على المقعد يرتدي رابطة عنق سوداء، والقلم خلف أذنه، يأكل شرائح لحم العجل على عدد قديم من جريدة الأخبار.

- أوصت لي بماذا؟ المنظار؟

قلتها وأنا أتلعثم، خائر القوى، وأكاد أصطدم بزاوية الرف.

- هذا صحيح.. أوصت بالمنظار!

قالها وفمه ممتلئ بالطعام.

سقطتُ فوق الأريكة الجلدية، فاقد الوعي تقريبًا.. وقدم لي نبيذ "بوكلاس".. شربتُ الكأس، وقلت وأنا أمرر يدي المرتجفة على وجهي الغاضب:

- أخبرني إذًا، أخبرني بكل شيء، "جوستينو"!

تنهد "جوستينو"، وقال:

- إن السيدة المباركة المسكينة تركت وثيقتين لتوزيع أموالها.. وعلاوة على ذلك، وزعت في وصيتها ثروة القائد "جودينيو"، بشكل فوضوي وغير منطقي؛ فكان مبنى ساحة "سانتانا" وأربعون ألف "إسكودو" من نصيب رب خطوات النعمة.. وأسهم شركة الغاز، وأفضل أنواع الفضيات التي عندها، ومنزل "ليندا الراعية" للأب "كاسيميرو"، الذي أصبح مشلولًا يصارع الموت، أمَّا الأب "بينيرو" فكان من نصيبه مبنى شارع "الأرسنال"، أمَّا مزرعة "موشتيرو"، ببواباتها الخلابة المعلق عليها أسلحة كونتات "ليندوزو"، ووثائق الائتمان

العامة، وأثـاث "كـامبو دي سـانتانا"، وتمثـال المسـيح الـذهبي فـذهبت جميعًـا لـلأب "نيجراو".. وثلاثة آلاف ريال والساعة من نصيب "مارجريد".. والمفروشـات ذهبـت إلى "فيسنسيا"، والمنظار لك!

- ربما لكي ترى الباقين من بعيد!

قالها "جوستينو" بنظرة فلسفية، وهو يطقطق أصابعه.

تمددتُ على كومة من التبن، وظللتُ لساعات، وأنا مرتديًا الحذاء، وعينـاي يتطـاير منهما الشرر، تنتابني رغبة يائسة لإهانة جثة "تيتي"؛ بأن أبصق على وجهها الغاضـب، وأن أخرق بعصا بطنها العفنة.. واسـتنزلت عليهـا كـل غضـب الطبيعـة؛ فطلبـتُ مـن الأشجار ألا تظلل قبرها! وطلبـت مـن الريـاح أن تهـب عليهـا محملـة بكـل قـاذورات الأرض! ووعدتُ الشيطان بـأن: "أعطيـك روحـي إذا عـذبت تلـك المـرأة العجـوز دون كلل!" ورفعتُ أكفَّ الضراعة إلى الـرب قـائلًا: "إذا كـان لـديك جنـة، فأخرجهـا منهـا!" خططـتُ لهـدم حجـارة الضريـح الـذي شـيدوه لهـا.. وقـررت أن أكتـب إعلانـات في الصحف، أحكي فيها كيف كانت تمـارس الزنـا مـع جليقـي عصر كـل يـوم عـلى سـطح منزلها، بنظاراتها السوداء وتنورتها!

ولما تعبتُ من كرهها، ذهبتُ في نوم عميق.

كان "بيتا" هو الذي أيقظني عند الغسق، عندما دخـل عـليَّ بلفافـة طويلـة.. كـان يحملُ المنظار الذي أرسله به "جوسـتينو"، مـع هـذه الكلـمات الـودودة: "إليـك هـذا الميراث المتواضع!".. أشعلتُ شمعة، وتناولتُ المنظار بمرارة فظيعـة، وفتحتـه، ونظـرتُ من خلاله، كما لو كنتُ أنظر من فوق حافة سفينة تغرقُ في الماء.. نعم، وكـما أكـد لي "جوستينو" بمكر شديد، إن "باتروسينيو" المقرفة قد تركت لي المنظار بسـخرية حاقـدة حتى أرى من خلاله بقية الميراث!

ورأيتُ بوضوح، رغم ظلام الليل الحالك، ربَّ الخطوات يدس بين طيات عباءته الأرجوانية وثائق الملكية، ورأيتُ "كاسيميرو"، وهو يصارع الموت يتحسس بيده المشغولات الفضية، وهي تنتشر على سريره.. أمَّا "نيجراو"، الأكثر قذارةً، فرأيته يرتدي معطفًا من الكتان وحذاء ذا رقبة عالية، يتنزه سعيدًا على شاطئ النهر، تحت أشجار مزرعة "موشتيرو"! ورأيتُ نفسي، ومعي المنظار! وأنا هناك إلى الأبد، فوق كومة التبن، وليس في جيبي سوى سبعمائة وعشرين بنسًا أصارع بها الحياة في المدينة الكبيرة! صرخت صرخة، وألقيت بالمنظار، الذي تدحرج إلى جانب حقيبة القبعات التي على الرف، حيث أحتفظُ بخوذة الفلين التي كنتُ أرتديها في رحلتي إلى الأرض المقدسة.. واستقرتا هناك، الخوذة والمنظار، كشعارين لمرحلتين من حياتي مرحلة الترف ومرحلة البؤس! منذ عدة أشهر، كنتُ "رابوزو" المنتصر، أعلق الخوذة في عنقي، كنتُ وريث السيدة "باتروسينيو داس نيفيس"، والذهب يهتز في جيوبي، أشم رائحة زهور الحضارة العطرة من حولي تنتظر مني أن أقطفها! والآن، أنا المسكين "رابوزو" ذو الحذاء المتهالك، أشعر من حولي بكل أشواك الحياة السوداء على استعداد لجرحي، ولمَ كل ذلك؟ لأنه في يوم من الأيام، في فندق صغير بمدينة آسيوية، اختلطت عليَّ لفافتان من الورق البني، فوضعتُ إحداهما مكان الأخرى!

لم أرَ في حياتي سخرية للقدر مثل تلك التي أعانيها! أحضر لخالتي الورعة - التي تكره الحب وتعدُّه شعورًا قذرًا، والتي كانت تنتظر مني أن أبحث لها في القدس عن أثر مقدس - قميص نوم "ماري"، بائعة القفَّازات! خالتي التي كنتُ أنتظر حتى أرث مالها وعقاراتها! وبدافع الشفقة، وبعمل كنت أبتغي منه رضاء السماء عني، أعطي لامرأة فقيرة في حالة يرثى لها، مع طفلها الجائع يبكي في حضنها تاج الشوك، على سبيل الصدقة!

أخبرني يا ربي! أو قل لي أيها الشيطان، كيف تم ذلك؟ كيف تبدلت اللفافتان؟ هذه هـي مأساة حيـاتي؟ كانتـا متشـابهتين في الـورق، وفي الشـكل، وحتـى الشريـط الـذي ربطهما! كانت اللفافة التي بها القميص في قاع دولاب الملابس، واللفافة الأخـرى فـوق الخزانة، رائعة بين شمعدانين.. ولا يمكن أن يكون قد مسهما أحد؛ لا "بـوت" المـرح ولا العالم "توبسيوس".. ولا أنا! لم يجرؤ أي إنسان بأيدٍ بشرية، على تحريك الحزمتين.. مـن نقلهم إذًا؟ فقط شخص بأيد خفيـة! نعـم، كـان هنـاك واحـد، بـلا جسـد، قـدير، قـام بأعجوبة، وبسبب كرهه لي، بتحويل الأشـواك إلى قميص، حتـى تحرمنـي "تيتـي" مـن الميراث، وحتى أقبع للأبد في قاع المجتمع!

وعندما أشتاطُ غضبًا، وأجدُ نفسي مهزومًا، أكتشف أن عين المسيح المصلوب الملونة في إطارها القماشي المغطي بالشراشيب تحملق فيَّ بشجاعة شديدة، مسـتمتعة بهزيمة عمري.

- لقد كنتَ أنت!

صرختُ فجأة بعدما تفتق ذهني وفهمتُ المعجزة.

- لقد كنت أنت! نعم، أنت!

ووجهت قبضتي ناحيته، بحثُ بمكنون فكري وقلبي، وشكوت مر الشكوى:

- نعـم، أنـت الـذي حولـت تـاج الآلام الـذي في أسـطورتك إلى قمـيص "مـاري" المـدنس في عـين "تيتـي" التقيـة! ولمـاذا؟ مـاذا فعلـتُ لـك؟ أيهـا المعبـود المتقلـب النـاكر للجميـل! أيـن ومتـى اسـتمتعتَ بـإخلاص وعبـادة مثـل إخـلاصي وعبـادتي؟ ألم أحضر أيـام الآحـاد، مرتـديًا مـلابسي السـوداء، لأحضر أفضـل مـا تقدمـه لشـبونة من صلوات؟ ألم أملأ معدتي كل يوم جمعـة لإرضائك، بسـمك القـد وزيـت الزيتـون؟

ألم أقض أيامًا في مصلى "تيتي"، وركبتي تؤلمانني، أتمتم بذكر فضائلك؟ فلم أدع كتابًا به صلوات إلا تلوته لك، ولم أدع حديقة بها زهور إلا زيّنتُ بها مقاصيرك؟

وزاد غضبي، ومسحتُ بيدي على رأسي، وجذبت لحيتي لأسفل، وواصلتُ الصراخ على مقربة من الصورة وصرت أنفث غضبي على زجاج الصورة ووجهي قريب منه حتى غطاه بخار أنفاسي:

- انظر إليَّ جيدًا، ألا تتذكر هذا الوجه، هذا الشعر، قبل قرون، في البهو الرخامي، تحت المظلة، حيث جلس الوالي الروماني يترأس المحاكمة؟ ربما لا تتذكر! فرق شاسع بين إله منتصر على عرشه وبين حاخام بلدة صغيرة مربوط بالحبال! حسنًا! في ذلك اليوم من شهر أبريل، حيث لم يكن لديك بعدُ أماكن مريحة في الجنة والنعيم توزعها على المؤمنين بك.. في ذلك اليوم، عندما لم تكن لديك بعد مصادر للثروة ولا أسباب السلطة تؤتها من تشاء وتمنعها عمَّن تشاء؛ في ذلك اليوم، الذي كانت "تيتي" وجميع أولئك الذين يسجدون اليوم عند قدميك، سوف يهتفون ضدك مثل تجار المعبد و"الفريسيين" وشعب تل "أكرا".. في ذلك اليوم، الذي كان الجنود الذين يرافقونك اليوم في جوقة يعزفون على الآلات النحاسية، والقضاة الذين يسجنون الآن من يستهين بك أو ينكر وجودك، والأثرياء الذين يهبون لك الذهب ويقيمون لك الاحتفالات في الكنائس.. ما كان ليسعهم إلا أن ينضموا بأسلحتهم وتشريعاتهم وأموالهم كي يقتلوك لأنك ثوري، وعدو للنظام، وخطر على الممتلكات.. في ذلك اليوم، عندما كنت مجرد عقل مبدع ونفس تدعو للخير بهمة، وبالتالي كان رجال السلطة يعدونك مصدرًا للخطر الاجتماعي، وكان هناك في القدس قلب من تلقاء نفسه دون طمع في جنتك أو خوف من جحيمك، ينتحب من أجلك.. كان ذلك هو قلبي! والآن تضطهدني.. لماذا؟

وفجأة، حدثت المعجزة، فانبعثت أشعة متلألئة من الإطار القديم، في بياض الثلج ولمعان الذهب.. وتفتق الزجاج من وسطه عن باب من الضياء يصل إلى السماء، وبداخله المسيح على عوده الخشبي دون أن يزيل الأوتاد التي تصفد ذراعيه، واقترب مني بهدوء، وأخذ يكبُر حتى طال السقف برأسه، فصار أبهى في إشراقه من سطوع للشمس المشرقة خلف الجبال.. وصرختُ صرخة ثم سقطتُ على ركبتي، وارتطم وجهي بالأرض وأنا مرعوب.. ثم سمعت صوت نسمة هادئة برائحة الياسمين تعبق أنحاء الغرفة، وصوت ناعم، رقيق يقول لي:

- عندما ذهبت إلى قمة جبل النعم لتقبل أقدام تمثال لي، فعلتَ ذلك كي تعود لتخبر "تيتي" عن التقوى التي قبلت بها قدمي؛ لأن شفتيك لم تجرِ عليهما قط صلواتٌ لي، ولا ظهر الخضوع في عينيك إلا لكي تسر "تيتي" وأنت تعرف قدر سرورها وحماستها لأعمال التقوى.

إن إلهك الذي كنتَ تسجد له هو ثروة القائد "جودينيو"، والسماء التي رفعت لها ذراعيك المرتجفتين هي وصية "تيتي".. ولكي تحقق لنفسك مكانة أفضل فيها، تظاهرت بالتدين، وأنت غير مؤمن، وعفيف وأنت زانٍ؛ وخيـّر، وأنت شرير.. وتظاهرت بحنان الابن، وليس لديك إلا طمع الوريث.. كنتَ منافقًا إلى أبعد الحدود! وكان لديك وجودان: واحد أمام عيون "تيتي"، تمسك فيه دومًا بمسبحتك، وتتظاهر بالصوم، والصلوات، وبعيدًا عن "تيتي"، في الخفاء، كان لك حياة أخرى كلها كبائر، تمتلئ بـ"أديليا" وبنات الليل.. كنتَ تكذبُ دومًا، وكنت صادقًا مع السماء، ومع العالم، فقط عندما توسلت إلى يسوع والعذراء بأن تموت "تيتي" بسرعة.. ثم قمتَ بتلخيص هذا الخبث الطويل الأمد المليء بالأعمال في لفافة؛ حيث وضعتَ فيها فرعًا من نبات زائف كزيف قلبك، وكنت تعتمد عليه كي تستولي على أموال "باتروسينيو" وعقاراتها للأبد! لكنك أحضرت حزمة مماثلة إلى فلسطين، بها رداء ذو أربطة ودانتيل، كدليل دامغ على نفاقك البيِّن..

الآن تحققت العدالة وفتحت "تيتي" الحزمة التي قدمتها لها، وهي التي أظهرت وجهك القبيح! وهذا يثبت لك، "تيوديريكو"، عدم جدوى النفاق!

أخذتُ أتأوّهُ وأنا جالس على اللوح الخشبي؛ فتعالى الصوتُ، وانتشر في أرجاء المكان كرياح العصر عندما تمر بين الفروع:

- أنا لا أعرف من الذي بدَّل الحزمتين، واحدة مكان الأخرى، بمكر ودهاء؛ ربما لا أحد، وربما تكونُ أنت! إن حرمانك من الميراث لم يكن بسبب هذا التغيير بين تاج الشوك والقميص؛ بل لأنك تحيا حياتين: حياتك الحقيقية المليئة بالشك، وأخرى تتظاهر فيها بالقداسة.. كنتَ تعيشُ لزمن طويل في تناقض؛ فجانبك الأيمن يُظهر "رابوزو" التقي، وجانبك الأيسر يظهر "رابوزو" الفاحش.. ما كان لك أن تستمر هكذا فترة طويلة مع "تيتي"، تظهر لها فقط ذلك الوجه الذي يرتدي لباس يوم الأحد المصنوع من الكشمير، والذي يشرق بالفضيله؛ ولا بدَّ أنه كان سيأتي يومٌ تفزع فيه "تيتي" عندما ترى الجانب الحقيقي المجرد، الذي تنتشر فيه بقع الرذيلة السوداء.. وهذا هو السبب في أنني أشير، "تيوديريكو"، إلى عدم جدوى النفاق.

ومددتُ شفتي، خجلًا، إلى قدم المسيح، الشفافة، المعلقة في الهواء، والتي بها مسامير تتلألأ كالجواهر.. وعبر الصوت من فوقي، رخيمًا حادًا، مثل الريح التي تعصف بأشجار السرو:

- تقولُ إنني أطاردك! لا. إن المنظار وما تسميه أنت قاع المجتمع ما هو إلا ثمرة لما زرعته يداك وليس لي دخلٌ فيها.. أنا لا أختار لك حياتك.. أنا أشاهدها فقط وأحكم عليها بهدوء، دون أن أتحرك أو أتدخل بالمعجزات.. لا يزال بإمكانك النزول إلى مدارك البؤس، أو أن ترتقي إلى جنة مثمرة في الأرض، وتكون مديرًا لأحد البنوك.. هذا يعتمد فقط عليك فقط وعلى جهدك كرجل.. استمع! لقد سألتني قبل قليل إذا كنتُ أتذكر وجهك.. أسألكَ الآن إذا كنتَ لا

تتذكر صوتي.. أنا لست يسوع الناصري، ولست إلهًا آخر من خيال البشر.. أنا سابق على كل الآلهة المؤقتة؛ وهم بداخلي يولدون، وفي داخلي يخلدون، وفي داخلي يتحولون، وفي داخلي يذوبون.. وأبقى أبديًّا من حولهم وظاهر عليهم، أخلقهم وأفنيهم، في جهد دؤوب كي ألفظ خارجي الإله المطلق الذي أشعر به في داخلي.. أنا الضمير.. أنا في هذه اللحظة ضميرك أنت، لكني منعكس خارجك، في الهواء والضوء، وأتخذ أمام عينيك الشكل المألوف، الذي تعتاد عليه بقلة خبرتك ونقص حكمتك، ولكن يكفي أن تنهض لتراني جيدًا، حتى تختفي هذه الصورة المهزوزة لكل شيء.

وقبل أن أرفع عيني كان كل شيء قد اختفى! ثم، بلغ مني التأثر مبلغه، فأنا أقف أمام معجزة واضحة، رفعتُ يديَّ إلى السماء وتوسلتُ:

- أي ربي يسوع، أيها الرب ابن الرب، يا من تجسدت وعانيت من أجلنا.

لكنني صمتُّ.. هذا الصوت الساحر ما زال يتردد في روحي، وذكرني بعدم جدوى النفاق.. استشرتُ ضميري، الذي عاود الدخول في جسدي، وتأكدتُ تمامًا من عدم الإيمان بأن يسوع هو ابن الرب من امرأة متزوجة من "الجليل" (كما كان هرقل ابن جوبيتر وامرأة من "أرغوليذا") ولفظتُ من شفتيَّ، التي صارت صادقة للأبد، بقايا صلاة عديمة الفائدة.

في اليوم التالي، دخلتُ إلى حديقة "سان بيدرو دي ألكانتارا"، وهو مكان لم تطأه قدماي منذ أن كنت أدرس اللاتينية.. وما إن تجولت قليلًا بين أحواض الزهور حتى وجدت زميل الدراسة القديم، ابن "تيليس كريسبم" وشركاه، صاحب مصنع الغزل في "بامبوليا" وهو صديق لم أره منذ أن التحقتُ بالجامعة.. كان هذا هو "كريسبم" الأشقر، الذي كان يقبلني قبلات شرهة في ردهة مدرسة "الإزيدوريين"، وكان يكتب لي رسائل يعدني فيها بصناديق من أقلام الحبر

الفولاذية.. تُوفي جده "كريسبم"، وأصبح "تيليس" البدين الثري نائبًا لكونت "سانت تيليس"، أمَّا "كريسبم" الحفيد، صديقي، فقد ورث الشركة.

تبادلنا عناقًا صاخبًا، وقال "كريسبم وشركاه" إني أصبحتُ "قبيحًا جدًّا".. بعدها غبطني على رحلتي إلى الأراضي المقدسة (الذي علم بها عن طريق جريدة الأخبار) وألمح بفرح وود شديد إلى "الثروة الطائلة التي تركتها لي السيدة "باتروسينيو داس نيفيس".

بمرارة، أريته حذائي الممزق.. وعلى مقعد صغير، بجانب شجيرات الورد قصصتُ عليه وسط هذا الجو الهادئ العَطِر قصة قميص "ماري" المشؤوم، والأثر المقدس والحزمة التي كان فيها، والكارثة التي حدثت في المصلى، والمنظار، وغرفتي البائسة في بنسيون "باليا".

- حتى إنني، يا صديقي العزيز، لا أجد الخبز!

تعجب "كريسبم وشركاه" وأخذ يبرم شاربه الأشقر، وقال إنه في البرتغال، بفضل الدستور والدين، فإن الجميع له الحق في الخبز، وأن ما يفتقر إليه البعضُ هو الجبن:

- سأعطيك الجبن يا صديقي القديم!

قالها بمرح، وهو يربت على كتفي، قال:

- إن أحد العاملين هناك في مكتب "بامبوليا" بدأ يكتب الشعر، واختلط بالممثلات.. وهو جمهوري جدًّا، ويسخر من المقدسات.. وأخيرًا، استرحتُ منه وفصلته من العمل! حسنًا، أعرف أن خط يدك جميل.. ولن يصعب عليك جمع وطرح الحسابات.. سوف تتولى محفظة الرجل وأوراقه، هيَّا، خمسة وعشرون ألف ريال شهريًّا.. سوف تمكنك من شراء الجبن!

واحتضنتُ "الشركة" والدموع في عيني، عانقت "كريسبم وشركاه".. وقال مرة أخرى، وهو يداعبني بمرارة:

- هيَّا! لقد صرت قبيحًا جدًّا!

بدأت عملي بحرص ودأب في مصنع الغزل في "بامبوليا".. وفي كل يوم أراجع الدفاتر، وألبس أكمامًا صوفية فوق قميصي، وأنسخ الأوراق بخط يدي ذي الحنيات الجميلة، وأدون الأرقام المتوازية في دفتر كبير.. وقد علمتني الشركة "المتوالية" ومهارات أخرى.

وكما تحمل الرياح البدور إلى الأرض البور فتنبت بشكل غير متوقع نباتات مفيدة وتزدهر: أثمرت الدروس التي تعلمتها من الشركة في شخصيتي كدارس للقانون عن مهارات كبيرة فيما يخص تجارة النسيج.. بالفعل، فقال صاحب الشركة عني باقتناع عميق، في جمعية "كارمو" العمومية:

- إن صديقي "رابوزو"، على الرغم من دراسته للقانون في "كويمبرا"، والمذكرات النظرية التي درسها هناك فإن لديه مهارة واضحة في أعمال الشركة الجسيمة!

وفي عصر يوم سبت من أيام شهر أغسطس، بينما كنت أغلق دفتر الخزينة، وقف "كريسبم وشركاه" أمام مكتبي، وابتسم وهو يشعل السيجار:

- اسمع يا "رابوزو"، في أي كنيسة تحضر عادة القداس؟

خلعتُ أكمامي الصوفية بهدوء.

فأضاف:

- أسألك عن ذلك لأنني سأذهب غدًا مع أختي إلى الضفة الآخر، إلى مزرعة لنا في "ريبيرا".. فإذا لم تكن شديد الارتباط بكنيسة معينة تعالَ معنا إلى

كنيسة "سانتوس" في التاسعة، وسنذهب لتناول الغداء في فندق "تنترال"، وسوف نبحر من هناك إلى "كاشيلاس".. أريد أن أعرفك على أختي!

كان "كريسبم وشركاه" رجلًا متدينًا يعدُّ أن الدين لا غنى عنه لصحته، ولازدهار تجارته، وللإدارة الجيدة للبلاد.. كان يزور بإيمان رب خطوات النعم، وينتمي إلى جماعة "إخوان القديس يوسف"، وكان لا يطيق الرجل الذي توليتُ حسابات الشركة مكانه لأنه كتب في جريدة المستقبل، ذات النزعة الجمهورية، مقالات يشيد فيها بـ"رينان" ويسخر من القربان المقدس.

وكنتُ على وشك أن أخبر "كريسبم وشركاه" بأنني مواظب على حضور قداس كنيسة "كونسيساو الجديدة"، وأني لا أستمتع بغيرها، ولكني تذكرتُ ذلك الصوت الأجش القوي عند كومة التبن، وكتمت الأكذوبة الصارخة التي كانت ستلوث شفتي بالفعل.. قلتُ، وأنا أمتقعُ لكن في إصرار:

- انظر، "كريسبم"، لن أذهب إلى الكنيسة أبدًا.. كل هذا هراء.. لا أستطيع أن أصدق أنَّ جسد الرب يحل كل يوم أحد في قطعة من الخبز المصنوع من الدقيق.. الرب ليس لديه جسد، ولم يكن له قط.. كل هذا هو عبادة لأصنام، وتعصب أعمى.. أقول لك هذا بصراحة شديدة.. يمكنك أن تفعل معي الآن ما تريد.. لكن كن صبورًا عليَّ!

وحملق فيَّ الرجل وهو يعض على شفتيه:

- انظر إذًا، "رابوزو"، تعجبني هذه الصراحة! أنا أحب الناس الصرحاء.. إن المارق الآخر، الذي كان هنا في مكانك، كان يقول أمامي "إن البابا رجل عظيم!" ثم كان يذهب إلى الحانات ويعلن كفره بالأب الأقدس.. حسنًا، لقد انتهى الأمر! ليس لديك إيمان، ولكن لديك الفروسية.. على أية حال، نلتقي في العاشرة لتناول الطعام، ثم نبحر إلى "ريبيرا"!

وهكذا تعرفتُ على أخت "الشركة".. كان اسمها "جزوينا"، كانت قد بلغت الثانية والثلاثين من عمرها، وكانت حولاء. ولكن منذ ذلك اليوم الذي التقينا فيه وسط الريف وقرب النهر، شغلني شعرها الكثيف الأحمر مثل حواء، وصدرها ونهداها الكاعبان، وبشرتها التي بلون التفاح الناضج، والضحكة التي تكشف عن أسنان صحيحة بيضاء.. كان ذلك في عصر أحد الأيام، عندما كنتُ متكئًا أدخن سيجارًا وأتأمل صواري المراكب الشراعية.. كانت قد أتمت تعليمها في مدارس "ساليزيان"، وكانت تعرف الجغرافيا، وتعرف جميع أنهار الصين، وتعرف التاريخ وكل ملوك فرنسا.. وكانت تدعوني تيوديريكو "قلب الأسد"، لأنني زرتُ بلاد فلسطين.. وفي أيام الآحاد، أتناول عشاء في "بامبوليا"؛ فتعد لي السيدة "جزوينا" طبق البيض المحترق؛ وتحملق بعينيها الرقيقتين اللتين تمتلآن بالمتعة المستمرة في وجهي المهيب ولحيتي الكثيفة.

وذات مساء كنا نتناول القهوة عندما أشاد "كريسبم وشركاه" بالأسرة المالكة، وباعتدالها الدستوري، وبعطف الملكة وتقواها.. ثم نزلنا إلى الحديقة، وكانت السيدة "جزوينا" تروي الزرع، وأنا بجانبها أجهز سيجارًا، وتنهدتُ وهمست عند كتفها:

- سعادتكم، "جزوينا" هانم، تصلحين لأن تكوني ملكة إذا أصبح "رابوزو" الملك!

فأعطتني، في خَجل، آخر وردة من ورد الصيف.

وفي ليلة عيد الميلاد، جاء "كريسبم وشركاه" إلى مكتبي، ووضع قبعته بفرح على صفحة دفتر الحسابات الذي ملأته بالأرقام، وطوى ذراعيه بضحكة كلها إخلاص واحترام:

- من تصلح أن تكون ملكة، إذا كان "رابوزو" ملكًا؟ حسنًا، قل لي سيد "رابوزو": هل هناك حب حقيقي في قلبك لأختي "جزوينا"؟

كان "كريسبم وشركاه" يحترم العواطف والمثاليات. وكنت على وشك أن أقول إنني أحب السيدة "جزوينا" كنجم بعيد المنال؛ لكنني تذكرت الصوت المتغطرس المتعجرف على تلة التبن! وكتمت تلك الكذبة العاطفية التي كانت على شفتَي بالفعل.. وقلت بجرأة:

- حب، حب، لا.. لكني أراها امرأة جميلة، وتعجبني شخصيتها كثيرًا، وسأكون لها زوجًا صالحًا.

- أعطني هذه اليد الشريفة!

صاح "الشركة".

وتزوجتُ، وأصبحتُ أبًا، وعندي عربة تجرها الخيل، وأتمتع باحترام كل من حولي، وثناء السيد المسيح.. وكان "مارجريد" الطبيب الذي يتناول معي العشاء مساء الآحاد مرتديًا بذته المميزة يقول لي إن الدولة يجبُ أن تمنحك لقب بارون "موشتيرو" جزاء لعلمك، ورحلاتك الكثيرة ووطنيتك؛ لأنني كنت قد اشتريت مزرعة "موشتيرو".. بعدما أعلمني القاضي الصالح عصر يوم ونحن نتناول الطعام أن "نيجراو" المروِّع، الذي يرغب في زيادة عقاراته في "توريس"، قرر بيع أرض عائلة كونتات "ليندوزو":

- الآن، سوف تُظِلل تلك الأشجار السيدة والدتك بحق، "تيوديريكو".

قال الرجل المحب، أكمل:

- بل أقول أكثر من ذلك: إن الظلال نفسها سوف تُظِل أباكم المبجل، "تيوديريكو"! وأنا، إذا كان لي شرف أن أكون من عائلة "رابوزو"، ما كنت لأمنع نفسي من شراء "موشتيرو"، وبناء الأبراج وعليها الزخارف!

فقال "كريسبم وشركاه" وهو يضعُ كأسه الفارغة:

- اشتريها، إنها من ممتلكات عائلتك.. سوف تناسبك.

وفي ليلة عيد الفصح، وقّعت في مكتب "جوستينو" مع محامي "نيجراو"، العقد الذي جعلني أخيرًا، وبعد الكثير من الآمال واليأس، سيد مزرعة "موشتيرو"!

- وماذا يفعل هذا البائس "نيجراو" الآن؟

سألتُ "جوستينو" الطيب، بعدما ذهب وكيل القسيس الدنيء.

طقطق الصديق العزيز أصابعه وقال إن "نيجراو" اغتنى! وأنه ورث كل شيء من الأب "كاسيميرو"، الذي دُفن عند تل "سان جواو" وروحه في حضن الله.. والآن أصبح الصديق الحميم للأب "بينيرو"، الذي ليس لديه ورثة، والذي كان قد أخذه إلى توريس "ليعالجه"، وقد صار المسكين "بينيرو" هناك نحيفًا أكثر من ذي قبل، يلتهم الطعام هناك على مائدة "نيجراو" الضخمة، ويخرج لسانه أمام كل مرآة.. ولحسن الحظ أن "نيجراو" كان يجمع (باستثناء ما كان لرب خطوات النعمة، الذي لم يستطع أن يميته هذا البائس!) أفضل ما في ثروة القائد "جودينيو".

وصرخت غاضبًا، شاحب اللون:

- يا له من غبي!

- أتقول عنه غبي، يا صديقي الصغير! إن لديه عربة، ولديه منزل في لشبونة، وهو يرافق "أديليا" الآن.

- ماذا؟ "أديليا"؟

- إنها امرأة جميلة، كانت في صحبة "إلوتيريو"، ثم ظلت عاشقة لفتى غبي حائز على البكالوريوس، لا أعرف من هو.

- أنا أعرفه.

- نعم! والآن هي مع "نيجراو"، تعيش في نعيم، بسجادة على الدرج، والستائر الدمشقية، وكل شيء.. وأصبح أكثر بدانة.. رأيته بالأمس، كان قادمًا من الصلاة.. على الأقل قال لي "لقد جئت من عند القديس "روكي"، وأنا غير قادر على قول اللطائف إلى شيطان قديس!" فهو ظريف في بعض الأحيان.. ولديه أصدقاء جيدون، وله تأثير جيد في بلدة "توريس".. ما زلنا نراه أسقفًا!

رجعتُ إلى بيتي وأنا شارد الذهن.. كل ما كنت أتمناه وأحبه (حتى أديليا!) امتلكه "نيجراو" الفظيع بصورة قانونية الآن! خسارة مروعة.. وليس سببها أني بدلت اللفافتين واحدة مكان الأخرى، ولا من أخطاء نفاقي. والآن، كأب، وقائد، ومالك، أصبح لدي فهم أكثر إيجابية للحياة. وشعرت بشكل جيد أنني حُرمت من ميراث القائد "جودينيو" لمجرد أنني كانت تنقصني في مصلى "تيتي" شجاعة التأكيد! نعم! عندما ظهر قميص الخطيئة على مذبح "تيتي" بدلًا من تاج الشهادة، كان يجب أن أصرخ: "هذه هي البقايا! أردت أن أفاجئكم.. ليس تاج الشوك".. بل أفضل.. إنه قميص سانتا ماريا المجدلية! أعطتني إياه في الصحراء".

وسرعان ما أؤكد كلامي بتلك الورقة المكتوبة بخط متقن:

"إلى صديقي البرتغالي، في ذكرى الوقت الذي تمتعنا فيه....." كان هذا هو الخطاب الذي قدمته لي القديسة مع قميصها.. وفيه تتلألأ الأحرف الأولى من اسمها: M. M! وهناك يتأكد هذا الاعتراف الواضح: "الوقت الذي تمتعنا فيه"؛ فكم استمتعتُ بإرسال صلواتي إلى القديسة في السماء، وكم استمتعتْ القديسةُ في السماء بتلقي صلواتي! ومن كان يشك في ذلك ؟ ألم يظهر القديسون التبشيريون في براج، في خطبهم، التذاكر المرسلة من الجنة، أرسلتها لهم العذراء مريم، دون ختم؟ ألم تؤكد جريدة "الأمة" على صدق هذه الرسائل، التي يفوح من طياتها عبيرُ الجنة؟ وسرعان ما سيشيدُ الكاهنان، "نيجراو" و"بينيرو" -

اللذان يدركان واجبهما، وحرصهما الطبيعي على البحث عن شيء يثبتان به المعتقدات الدينية المذبذبة - بالقميص، والخطاب والأحرف الأولى، ويعدانه انتصارًا معجزًا للكنيسة.. وكانت الخالة "باتروسينيو" ستقع على صدري، وتدعوني "ابنها ووريثها"، وأصير غنيًّا! وأصير قديسًا! وتعلق صوري على حائط الكاتدرائية المقدس، ويرسل البابا لي نعمة رسولية، عن طريق أسلاك التلغراف.. وكنت سأحقق بهذه الطريقة طموحاتي الاجتماعية. ومن يدري؟ ربما كنت أحقق طموحاتي الفكرية أيضًا التي اكتسبتها من الدكتور "توبسيوس".. بل وربما أدعي العلمُ - الذي دائمًا ما يغبط الإيمان - لنفسه هذا القميص الذي يخص مريم المجدلية، كوثيقة أثرية، وربما استطاع القميص أن يضيء البقع المظلمة في تاريخ عادات حقبة العهد الجديد؛ كطريقة صنع القمصان في "يهودية" في القرن الأول الميلادي، وحالة صناعة الأقمشة السورية في ظل الحكم الروماني، وطريقة ارتداء الملابس الداخلية بين الأجناس السامية، وكان صيتي سيذيع في ربوع أوروبا، مثل شامبليون، وأفراد عائلة "توبسيوس"، وأفراد عائلة "لبسيوس"، وغيرهم من الباحثين عن أسرار الماضي.. وكانت الجامعات ستتنافس في طلبي، وتصرخ: "نريد رابوزو عندنا!".. وكان "رينان"، هذا المؤسس لمذهب الإلحاد، سوف ينادي: "يا له من زميل لطيف، السيد رابوزو!" ولن يتوانى العلماء في تأليف الكتب عن قميص ماري باللغة الألمانية، مع خرائط توضح مسار رحلتي في "الجليل".. وكنتُ سأنال أعظم تقدير من الكنيسة، وتحتفل بي الجامعات، وأعيش مستقرًا أرفل في النعيم، وصفحتي محفورة في ذاكرة التاريخ، وأستمتع في سلام بثروة القائد "جودينيو".

فقدتُ كل هذا المجد! لماذا؟

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.2	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.3	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	أيام رائعة	رافاييل مونتيز	البرازيل
.6	منزلنا في الأناضول	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
.7	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
.8	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.9	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
.10	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.11	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
.12	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.13	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.14	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.15	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.16	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.17	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.18	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.19	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.20	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.21	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.22	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.23	الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
.24	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.25	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.26	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.27	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.28	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.29	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.30	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا

.31	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.32	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.33	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
.34	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
.35	جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
.36	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.37	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.38	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
.39	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
.40	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
.41	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
.42	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
.43	سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
.44	جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
.45	معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
.46	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
.47	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
.48	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
.49	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
.50	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
.51	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
.52	خريطة آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
.53	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
.54	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
.55	شمس سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
.56	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
.57	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
.58	الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
.59	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
.60	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
.61	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
.62	بنات الصين	يي مِاي	الصين
.63	الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين

.64	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
.65	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
.66	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
.67	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
.68	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.69	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
.70	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
.71	التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
.72	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
.73	صلوات ليلية	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
.74	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
.75	القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
.76	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
.77	قصص خيالية	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
.78	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.79	صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
.80	سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
.81	حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
.82	دكَّان الساري	روبا باجوا	الهند
.83	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
.84	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
.85	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
.86	تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
.87	عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

صدر من كتب عامَّة:

.88	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
.89	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
.90	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
.91	المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
.92	الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
.93	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
.94	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.95	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.96	مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
.97	زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
.98	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
.99	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
.100	ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
.101	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
.102	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
.103	النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
.104	لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
.105	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
.106	الجري	ثور جوتاس	النرويج
.107	عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
.108	اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

.109	شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
.110	علاقات دولية	إلييت أليكا	ألبانيا
.111	الأسئلة	أنطونيو زيرزينسكي	البرازيل
.112	شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
.113	في حب بابلو وكراهية إسكوبار	فيرجينا فالاجيو	أسبانيا
.114	اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
.115	ردًا على خطاب من هيلجا	بيرجيسفين بيرجيسون	أيسلندا
.116	الفخ	ليليا سيجورثاردوتير	أيسلندا
.117	الحب في زمن الاحتباس الحراري	جوزيف بانيك	التشيك
.118	ذكرى سوداء	ألبير كانيجوز	تركيا
.119	المزيد	هاكان جونداي	تركيا
.120	بال خالٍ	أولجا سلافينكوفا	روسيا
.121	يوغوسلافيا وطني	جوران فوجنوفيتش	سلوفينيا
.122	جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا
.123	دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
.124	الأخ الأكبر	ماهر جوفين	فرنسا
.125	تكوين الملح	ماجيلا بودوين	فنزويلا
.126	لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
.127	مغامرات دكتور مينجوس	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
.128	يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
.129	روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
.130	فرق التوقيت	ألموت تينا شميت	النمسا
.131	لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا
.132	أفكار سيئة	لويد ميرخام	ويلز

#كتب_مختلفة # البرتغال

تدور الرواية على لسان "تيوديريكو رابوزو" الذي تُوفي والداه عندما كان في السابعة من عمره، وانتقل ليعيش تحت رعاية خالته فاحشة الثراء والمهووسة بالكنيسة والرب. عندما يكبر "رابوزو" يقرر بأنه لا بد وأن تظل خالته راضية عنه حتى يرث عنها كل شيء، وحتى لا تكتب كل ما تملك للكنائس والأديرة. وهكذا عاش "رابوزو" أو "الثعلب"، كما أسماه أصدقاؤه، حياة مزدوجة. فهو أمامها تقي ورع لا يفوت صلاة واحدة في الكنيسة، وخلف ظهرها يلهث وراء النساء وشرب الخمر والتمتع بكل ملذات الحياة. وعندما سمع من أحد أصدقائه عن الحرية المطلقة التي سيجدها في باريس، طلب من خالته أن تسمح له بالسفر، لكنها رفضت وطلبت منه أن يسافر إلى القدس، ليحج وليحضر لها أثرًا مقدسًا من هناك. وهكذا يسافر "رابوزو" ليحضر الأثر المقدس وليصف لنا وصفًا دقيقًا لمدينة القدس ولأهلها ولعاداتهم.
تدور الرواية في قالب تاريخ درامي لا يخلو من الكوميديا.

إيسا دي كيروش

يُعد من أعظم وأشهر الكتَّاب البرتغاليين في فن الأدب الواقعي.
اعتبره الكاتب الفرنسي "إميل فرانسوا زولا" أفضل من كتب الرواية الواقعية وقال إنه حتى أفضل بكثير من "جوستاف فلوبير". كما وضعته "الأوبزرفر" البريطانية في مصاف الكتاب العظماء أمثال ديكنز، وبلزاك، وتولستوي.

وُلد "إيسا دي كيروش" عام 1845. درس القانون بجامعة "كويمبرا". أول أعماله التي نُشرت كانت مجموعة من القصائد النثرية. وتم نشرها في "مجلة البرتغال". عمل صحفيًا لفترة، ثم عاد إلى لشبونة ونشر بمشاركة صديق سابق له من أيام الدراسة وأصدقاء آخرين "مغامرات كارلوس فراديك منديس" عام 1900.
سافر "دي كيروش" خلال عام 1869 و1870 إلى مصر ليشهد افتتاح قناة السويس (نشرت العربي للنشر والتوزيع كتابه عنها: "خيالات الشرق: رحلتي إلى افتتاح قناة السويس" عام 2018، وترجمة: دكتور سيد واصل). وكانت رحلته تلك هي التي ألهمت العديد من أعماله الأخرى، وأشهرها: "سر طريق سينترا" (1870)، و"الأثر المقدس" (1887) والتي نقدمها لكم هنا.

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg
9 789773 194604 >
WWW.alarabipublishing.com.eg

ايمان عشق مغامرات خديعة القدس رحلة الميراث

تصميم الغلاف: جورج لطيف